الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
زارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة- 1

كلية اللغة والادب العربي والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

حضور المرأة في القرآن الكريم

دراسة تحليلية فنية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم
في الأدب العربي

إعداد الطالبة:
شامية بن عباس

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد القادر دامخي

السنة الجامعية:
1436-1435هـ /2016-2015م

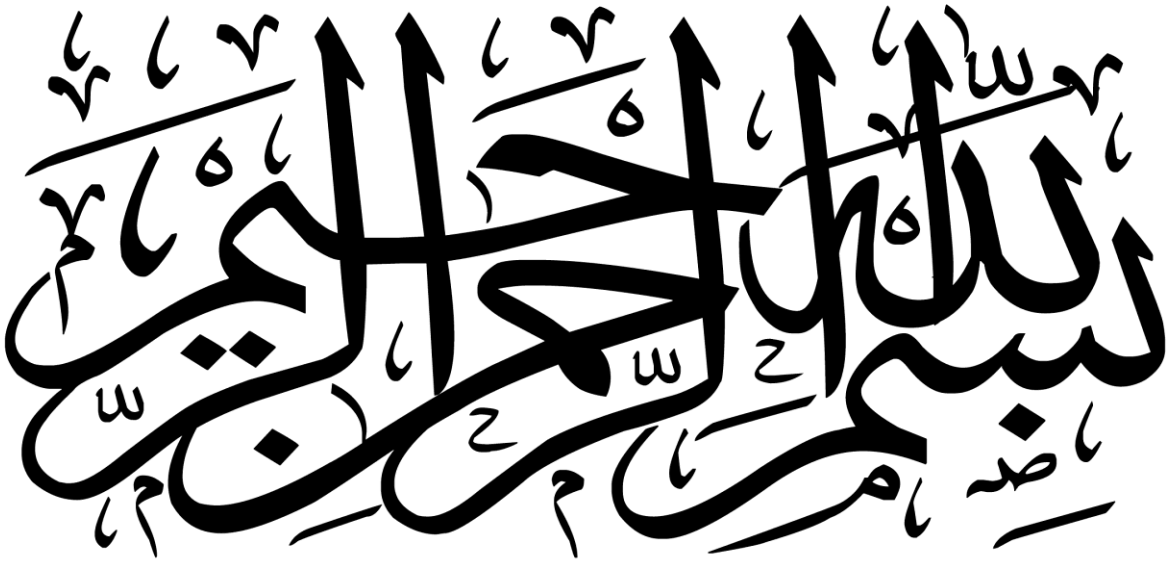
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى روح والديّ الذين قال فيهما رب العزة:

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

سورة الإسراء الآية 24.

إلى أفراد أسرتي الكريمة جميعهم، وأخص منهم رمز العطاء والإيثار

أختي الحبيبة "فطيمة".

إلى كل من ساعدني بكتاب أو نصيحة أو شجعني ولو بكلمة طيبة

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة جهدي عرفانا بجميلهم.

شكر وعرفان

أشكر الله العلي القدير الذي هداني للبحث في كتابه الكريم، وأحمده على عونه لإتمام هذا العمل ليرى النور بقوته ومشيئته.

وأوجه شكري الجزيل لأستاذي المشرف "عبد القادر دامخي" الذي تولى رعاية هذا البحث بجهده ووقته ونصائحه وتشجيعه.

كما أوجه شكري إلى كل من مد إلي يد العون من قريب أو بعيد ولو بكلمة طيبة وأخص بالذكر القائمين على مكتبة الآداب والعلوم الإنسانية.

المقدمة

المقدمة

إن القرآن الكريم هو المصدر الرباني الأعظم، والمرجعية العليا للمسلم، في حياته الدنيوية والأخروية، فهو منهج متكامل، ونظام شامل، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقد كان نقطة تحول في حياة البشرية منذ نزوله على جميع المستويات الفكرية والاجتماعية والسياسية، مما دفع بالمسلمين إلى تأسيس حضارة شهد لها العالم بأسره.

وقد التف المسلمون حول القرآن الكريم منذ نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فصار مجال بحثهم، ولذلك ظهرت مجموعة من الدراسات اللغوية، والبلاغية، والقرآنية، خدمت النص القرآني، ولم تتوقف الدراسة حول القرآن الكريم إلى يومنا هذا، فهو لا زال يستنهض همم الباحثين لتقديم المزيد من البحث حول آفاقه اللامتناهية بجانبيه الفكري والفني، ولم يحض كتاب بالدراسة والبحث مثلما حضي القرآن الكريم، بل صار محط أنظار العالم، نتيجة لما فيه من إعجاز لغوي، وبياني، ونفسي، وتربوي، وتشريعي، وعلمي، لهذا تعددت الدراسات القرآنية، فظهر نشاط ثقافي ومعرفي لتقديم المزيد من البحث في مجالاته الواسعة، لأن هذا النص لا ينضب معينه ولا يبلى مع الزمن، بل يظل متجددا يعطي لكل مجتهد قدر اجتهاده ويستجيب لكل أمر مستجد ويجيب كل متسائل عن سؤله، ويبعد الحيرة عن الحائر بتجلية الحقيقة، ثم يبقى رحب المدى سخي المورد، لما فيه من أسرار وعجائب لا تنتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هذا المنطلق جاءتني فكرة الدراسة في القرآن الكريم، ومحاولة الوصول إلى كشف حقيقة الشبهة الموجهة إلى الإسلام بعدم إنصافه للمرأة، حيث ركز المغرضون على مجموعة من القضايا كالقوامة، والميراث، والشهادة، وتعدد

الزوجات، محرضين المرأة على التمرد على الأسرة والمجتمع بل على الدين مظهرين لها أن الإسلام قد أجحف في حقها، وأن حضورها في القرآن الكريم كان حضوراً محدودا وسلبيا يدعوها إلى أن تكون تابعا للرجل، مسلوبة الحرية، قعيدة البيت، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. الأحزاب: الآية 33.

ومن هنا تأصلت فكرة الموضوع في ذهني وهو "حضور المرأة في القرآن الكريم" لأعرف حقيقة هذه التهم الموجهة إلى الإسلام عن طريق المرأة، فتبين لي أن حضورها في القرآن الكريم لا يقل كثيراً عن حضور الرجل، وأن حضورها كان فاعلا ومتميزاً ومكثفاً، ولم يغفلها القرآن الكريم حتى قبل الإسلام، بل خصها بعناية فائقة ومتميزة، وخاطب فيها العقل والعاطفة مقدما في ذلك حججا وبراهين على أهميتها سواء أكانت أما، أم أختا، أم بنتا، أم زوجة، مبينا ما لها من حقوق وما عليها من واجبات.

إن اختياري لهذا الموضوع في الحقيقة جاء بعد تردد طويل، وتفكير أطول؛ لأن النص القرآني ليس كغيره من النصوص يحتاج إلى آليات خاصة للاقتراب منه، ولكن ما شجعني على ذلك هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد الآية ٢٤، لعل الله يغفر زلاتي، إن بذلت جهدي وصدقت نيتي في الوصول إلى كشف حقيقة التهمة الموجهة إلى الإسلام عن طريق المرأة، وعدم إنصافها.

كما أن تشجيع الأستاذ المشرف على هذا البحث جعلني أمضي قدما في طريق هذه الدراسة، رغم المخاوف التي تنتابني في كل حين نتيجة للصعوبات التي تحيط بالموضوع.

كما لا أخفي أن هناك حوافز أخرى لاختياري لهذا الموضوع منها:

أ- حبي لكتاب الله الذي لا أجد الراحة والسكينة إلا وهو بين يدي، لأنه يخاطب المنازع الروحية في الإنسان.

ب- إن القرآن الكريم يستجيب لكل متطلبات الحياة ماضيا وحاضراً ومستقبلاً، ويعالج كل القضايا المستجدة في كل زمان ومكان، وفيه الجواب الشافي لكل قضية شائكة ومستعصية.

ج- أني لاحظت أن الدراسات حول المرأة في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة ولكنها كانت تقتصر على الجانب الموضوعي فحسب، ولم تتطرق إلى جانب الجمالي فيه، فأردت أن أجمع في هذه الدراسة بين الطرفين لعلي أضيف لبنة في هذا البناء الشامخ لعل الله ينفع به، ويفتح الطريق لمن يأتي بعدي في هذا المجال؛ لأن هذا النص المعجز فيه من الخصائص والسمات الفنية والفكرية المتميزة التي تجعله من أفضل النصوص على الإطلاق يحتاج للدراسة، فهو حقل معرفي لا ينضب معينه على مر العصور.

د- ومن أهم الدوافع وأشدها إلحاحا للخوض في هذا الموضوع تلك الدعوات التغريرية المشبوهة التي تحرض المرأة على التمرد على كل القيم والأخلاق والمبادئ، بل حتى على الدين بدعوى التحرر من تبعية الرجل واستعباده لها، ومن ضوابط الشريعة التي كبلت حياتها ولم تجعلها مساوية للرجل أو بالأحرى نداً له، فانساقت وراء هذه الدعوات فأصبحت سلعة ينالها

كل عابث، فيشهر بها للبضائع والسلع في الأسواق، وعلى قارعة الطرقات، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

وتتمثل أهمية البحث في الكشف عن حقيقة الحضور القوي والفاعل للمرأة في القرآن الكريم، وإزاحة الغطاء عن الشبهات الموجهة للإسلام من خلال المرأة بعدم الاهتمام بها أو بالأحرى بعدم إنصافها، حيث جعلها مهمشة أو تابعا للرجل مراعية في ذلك جانب الأسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم لتبيان الحقيقة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة النحل، الآية 89. مبينة ما فيه من بعض الأسرار التعبيرية واللمسات الفنية التي تبين سمو هذه التعبير لما فيه من الإعجاز معنى ومبنى.

أما المنهج الذي اتبعته في دراستي فهو منهج التحليل الفني في دراسة النصوص القرآنية التي أستقيتها لدراستي "حضور المرأة في القرآن الكريم" فكنت أجمع في دراستي للآية القرآنية بين جمال اللفظ وسمو المعنى، فأدرس الآية في معناها ومبناها مبينة ما فيها من جمال فني يزيد المعنى وضوحا وبيانا.

أما المصادر والمراجع التي اعتمدتها، فقد كان القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لهذه الدراسة؛ لأنه كان المرتكز الأول الذي استقيت منه الآيات التي تخدم موضوع بحثي، ثم كانت كتب التفاسير المرجعية الأساسية في تفسير الآيات القرآنية وتحليلها، كتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وتفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، وقد ساعدتني كثيرا في الوصول إلى كنه المعاني بإتيانها بأسباب النزول الذي يساهم مساهمة فعالة في فهم بعض الآيات القرآنية.

كما كانت كتب البلاغة، كالبلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان) و(علم المعاني) للدكتور عبد الفتاح لاشين، وأساس البلاغة للزمخشري. كما أن كتب النحو كانت وسيلة لفهم الآيات القرآنية كمغْني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، كما كان لبعض الدراسات الجمالية الحديثة الدور الفعال في إضاءة طريقي في هذا البحث كدراسة ياد كار لطيف الشهرزوري في كتابه جماليات التلقي في السرد القرآني، كما كان لبعض المعاجم اللغوية السبيل الأول في فهم ألفاظ الآيات القرآنية وعلى رأسها معجم لسان العرب لابن منظور، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم لمحمد علي النجار.

فهذه المراجع مجتمعة كانت لي معينا للوصول إلى فهم الآيات القرآنية التي تحتاج إلى هذه الدراسة لإيضاح المعنى وتبيانه.

إضافة إلى هذه المصادر والمراجع هناك مراجع كثيرة ومتنوعة تناولت موضوع المرأة قديما وحديثا.

كما يجب أن أشير إلى الصعوبات التي تعرض إليها البحث وفي مقدمتها قلة الدراسات الجمالية الفنية التي تهتم بالجانب الجمالي للقرآن الكريم، مما جعلني أصرف وقتا طويلا في البحث عنها، كما أن حرصي على الدقة في تحليل الآيات القرآنية وتوخي الحذر؛ لأن النص الذي أتعامل معه نصا مقدسا لا يمكن التساهل معه، كما أن تعديل عنوان الأطروحة من قبل الأستاذ المشرف جعل الموضوع طويلاً وشائكاً، صرفت فيه الكثير من الوقت والجهد لضبط فصوله حتى لا ينفلت الموضوع مني وخاصة أن كثرة الآراء وتناقضها أحيانا حول المرأة نتيجة لتعدد وجهات النظر اختلافها، فحاولت جاهدة أن أجمع ما يلائم موضوع بحثي.

وقد اشتملت الدراسة على تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

أما التمهيد فقد خصصته للحديث عن واقع المرأة المسلمة التي وقعت ضحية فكرين متناقضين كلاهما يظهر للمرأة دونيتها، وعدم إنصاف الإسلام لها؛ لأنه لم يساوها بالرجل وبالتالي فهي مهمشة ومغيبة، ولا تقوم إلا بدور التابع، ثم تطرقت لتعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحا؛ لأنه المصدر الأساسي الذي استقيت منه الآيات القرآنية لدراسة هذا الموضوع، والمرجعية التي أعود إليها لتبيان الحقيقية، ثم عرجت على تحديد مفهوم الحضور وأهم الصيغ التي جاء بها القرآن الكريم لهذا اللفظ، وأن الحضور هو الشهود وهو وجود أثر، لأبين حضور المرأة في القرآن الكريم، وبيان ما لها من أثر ذكره الله سبحانه وتعالى إيجابا أو سلبا.

أما الفصل الأول: فقد تناولت فيه نظرة الجاهلي للمرأة قبل الإسلام وما نتج عنها من نظرة سلبية أساءت إلى المرأة، وقد مهدت لهذا الفصل بنظرة الإسلام لثنائية الرجل والمرأة وهي نظرة تكاملية حيث تزول فوارق الذكورة والأنوثة لتتحد في كلمة إنسان، وختمت الفصل بالبدائل التي أعطاها الإسلام لتلك المعاملات السيئة للمرأة في الجاهلية.

وفي الفصل الثاني: تناولت المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم، وبينت فيه نظرة الإسلام إلى المساواة بين الرجل والمرأة بأنها نظرة عادلة، تقوم على مبدأ الاختلاف بين الذكورة والأنوثة، وما ينتج عنها من اختلاف في القدرات والإمكانات، وبالتالي الاختلاف في الوظائف، فليس المقصود منها الندية والمماثلة التامة، إنما هي مساواة في الإنسانية مصداقا لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ سورة النساء الآية1. كما أنها مساواة في التكاليف الشرعية المتعلقة بالعبادات.

أما المساواة التي يريدها الغرب بين النساء والرجال فلن تتحقق حتى بين الرجال أنفسهم؛ لأنها تسقط أحيانا نتيجة الاختلاف في القدرات والإمكانات، وقد ذكرت أنواع المساواة التي ذكرها القرآن الكريم، كالمساواة في الجزاء على الأعمال، وفي الأمر والنهي، وفي الوعد والوعيد، وفي الأخلاق، وفي الوصية بالوالدين.

أما الفصل الثالث: فقد خصصته للمفاضلة بين الرجل والمرأة، فعرفت المفاصلة وبينت أنها سنة كونية في جميع الموجودات، ثم عرجت على التفاضل بين البشر وبينت معنى فضل الذكر على الأنثى، وقوامة الرجل، وبيان المقصود من فضل الرجل على المرأة بدرجة، وأنهيت الفصل بنهي القرآن عن التمني الذي يفضي إلى الحسد بين الناس.

أما الفصل الرابع: فقد خصصته للحديث عن حضور المرأة في القصص القرآني، فبدأته بتعريف القصة وأهدافها في القرآن الكريم، ثم بينت الحضور القوي والمكثف للمرأة في القصص القرآني، فاخترت نموذجين أحدهما إيجابي والآخر سلبي، بعدها شرعت في دراسة النموذج الإيجابي وهي (مريم العذراء)، فأعطيت ملخصا للقصة، وبنائها الفني، ثم تناولت فيها دراسة الحدث وعلاقته برسم الشخصيات، ثم دراسة الفضاء المكاني والزماني للقصة، وختمته بالحوار، لأنتقل إلى النموذج السلبي الذي تناولت فيه (امرأة العزيز في مشهد الغواية)، فأعطيت ملخصا لهذا المشهد ثم درسته من حيث الأحداث ورسم الشخصيات، والمكان والزمان والحوار الذي كان له الدور الفعال في تحديد نوع الشخصيات، وتركيباتها الفكرية والنفسية من خلال إدارتها للحوار، وصولا إلى الهدف الذي من أجله سيقت القصة.

وأخيرا أنهيت البحث بخاتمة تناولت فيها ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

وفي الختام أوجه شكري الجزيل أولا إلى الله العلي القدير الذي هداني إلى البحث عن الحقيقة في كتابه الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

كما أوجه شكري الجزيل إلى أستاذي المشرف الدكتور **(عبد القادر دامخي)** الذي رعى هذه الدراسة منذ اختيار الموضوع، وكان له الدور الأول والأخير في خروج هذه الأطروحة إلى الوجود، لأنه تعهدها بملاحظاته الدقيقة، وتوجيهاته السديدة، حتى خرجت في صورتها النهائية.

كما أوجه شكري إلى أمين المكتبة الجامعية الذي كان يزودني بكل جديد في مجال الدراسات القرآنية، وأوجه شكري إلى كل من أسهم من قريب أو من بعيد في هذا العمل المتواضع ولو بكلمة طيبة شجعتني على مواصلة العمل، وأرجو أن ينفع به الله كل قارئ، وأن يجعله في ميزان الحسنات، وجزى الله الجميع عني كل خير. وبالله التوفيق

التمهيد

التمهيد

لا شك أن الناظر إلى واقع المرأة المسلمة اليوم يجد أنها وقعت فريسة للأقلام المغرضة، وبعض وسائل الإعلام المشبوهة التي تقوم كل يوم بضجة إعلامية حول "المرأة" حتى صنعت منها قضية تقام لها المحافل الدولية للدفاع عنها، فانهمرت التساؤلات عن المرأة "المثالية"، وما هي "صورتها" وما هي "مكانتها" وما دورها... وهكذا، وكأن المرأة في الإسلام ليس لها وجود.[1]

ونتيجة لهذا نشأت حركات نسائية تدعو إلى التحرر والمساواة، فوجدت من يؤدها على ذلك لتتحرر من العفة والطهر، ويدفعها إلى الترجل بدعوى المساواة مع الرجل، ؛ وهذه الحركات النسائية كثيرا ما يتسرب إليها الخطأ حينما تنشأ على أنها حركات مطالبة أو بالأحرى مرافعة ضد المجتمع ثم يأتي من يأتي ليؤيدها في ذلك، وكثيرا ما يكون التأييد مغرضا.[2]

وهذه الدعوات وجدت من يرد عليها بكل قوة لدرجت التشدد والانغلاق محاولة الإتيان بكل الأدلة لجعل المرأة أسيرة البيت وتابعا للرجل مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.[3]

وهكذا انبرت الأقلام متنافسة للحديث عن المرأة كل حسب اتجاهه وميوله، فوقعت المرأة نهبا بين فكرين متناقضين؛ فكر تحرري، يدعو إلى تحرير المرأة من كل القيود والضوابط إلى درجة التفسخ والانسلاخ عن كل القيم والمعتقدات بدعوى التقدم والتحرر والتخلص من التأخر، والرجعية، والتبعية؛ وبينوا لها أن الإسلام لم

---

[1]– عابدة المؤيد العظم، سنة التفاضل، دار بن حزم، بيروت، لبنان، 2000، ص 13.

[2]– مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الراعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ص 65.

[3]– سورة الأحزاب، الآية 53.

ينصفها في كثير من الأمور، كالميراث، والقوامة، والطلاق، وتعدد الزوجات، والشهادة.

وفكر انكفائي منغلق يدعو إلى التضييق على المرأة بدعوى المحافظة على شرفها وعفتها وطهارتها، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهذه الفكرة في الحقيقة تكرس دونية المرأة.[1]

ونتيجة لهذين الفكرين نشأ عندنا نوعان من النساء:

أ- نساء متحررات إلى درجة الانحلال والتمرد على كل شيء حتى على الدين وعلى أولياء أمورهن آباءً كانوا أم أزواجا أو إخوة، اعتقادا منهن أن الدين قد ظلمهن حين جعل القوامة بيد الرجل، والعصمة بيده، ونصيبها من الميراث نصف نصيب الرجل، فظنت أن الإسلام لم ينصفها وخاصة أنها وجدت من يجعل هذا دليلا على دونيتها ونقصها، فهذا الكاتب يقول في شرحه لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[2] "لماذا لم يقل الله للأنثيين مثل حظ الرجل، أو للأنثى مثل نصف الرجل؟ والجواب أنه لما كان الذكر أفضل من الأنثى قدم ذكره على ذكر الأنثى، كما جعل نصيبه ضعف نصيب الأنثى، وهذا يدل على فضل الذكر بالمطابقة على نقص الأنثى بالالتزام".[3]

فهذا التحليل في نظري تحليل سلبي، ونظرة ضمن التوجه التقليدي الذي يركز على دونية (المرأة) دون المراعاة للمقاصد والغايات من وراء هذا التقسيم، فالله

---

[1]- الصادق المهدي، الحقوق الإسلامية والإنسانية للمرأة، ط 2006، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص 150.

[2]- سورة النساء، الآية 11.

[3]- عمار ساسي، المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 2007، ص 376- 377.

سبحانه وتعالى عندما بدأ بذكر الذكر ثم أعطاه ضعف نصيب الأنثى فقد حمله مسؤولية وعبئا أكثر من المرأة، لأنه هو الذي يقوم بالخطبة، ويدفع المهر، ويؤمن السكن، ويقوم بالإنفاق، فهذه تكلف الرجل حملا ماليا أكثر من المرأة؛ لأن المرأة عندما تأخذ نصف ما يأخذه الرجل فهي تحتفظ بنصيبها لنفسها فقط، ولا يشاركها فيه أحد إلا إذا أرادت أن تتصدق به أو تهديه، فهي المستفيدة الوحيدة منه.[1]

فهذا التقسيم الإلهي للميراث فيه عدل ورحمة، إن لم أقل فيه إحسان وإكرام للمرأة، نتيجة لما فيه من مراعاة للخصوصية الاجتماعية في الإنفاق والبذل حفاظا على كرامة المرأة.

أما قول الدكتور (عمار ساسي) أن ذكر الذكر قبل الأنثى في الآية الكريمة دليل على فضل الذكر ونقص الأنثى، فهذا ليس دليلا صحيحا؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما قدم الله ذكر الكفار على المؤمنين في سورة التحريم، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[2]

---

[1]– محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 2005، ص105.

[2]– سورة التحريم، الآية 10–12.

فتقديم ذكر الذكر على الأنثى في الآية الكريمة لا يجعل المرأة محط النقص أو النقيصة بقدر ما يدل على التنبيه للمسؤولية الملقاة على الذكر والإلحاح على البعد الاجتماعي الذي يقوم به، وما يرتبط به من تبعات.

فالتقديم والتأخير ليس دائما دليل المفاضلة والتميز، لأننا لو تتبعنا الكثير من الآيات القرآنية نجد الله سبحانه وتعالى يبدأ فيها بذكر الكفار أولا ثم يعقبه بذكر المؤمنين، ففي هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1]، فهل ذكر الكفار أولا في هذه الآية الكريمة قبل المؤمنين دليل على فضل الكفار على المؤمنين؟!

فالتقديم والتأخير ليس الغرض منه التفضيل أو النقص، إنما الهدف منه التنبيه والخصوصية حسب كل حال وموقف.

والحقيقة أن مثل هذا التحليل لبعض الآيات القرآنية التي لا يراعي فيها أصحابها المقاصد والغايات التي أرادها الله سبحانه وتعالى فيحكمون بالظاهر حتى شككوا الكثير من النساء الغافلات في عدالة الحق سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك.

ونتيجة لهذه الأفكار المسمومة التي أطلقها دعاة التحرر التي دفعت المرأة إلى الثورة على دينها وقيمها وأخلاقها بدعوى التحرر والمساواة.

[1]– سورة محمد، الآية 1–2.

وفي الجانب الآخر نشأ دعاة المحافظة إلى درجة التشدد والانغلاق، فصادروا حقوق المرأة حتى عدوا صوتها عورة وهي ناقصة عقل ودين، ولابد أن تبقى حبيسة البيت بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.[1]

ونتيجة لهذه الأفكار نشأ النوع الثاني من النساء المستسلمات على مضض وعلى غير رضاهن، وهن:

ب- نساء منغلقات على أنفسهن يعشن ظلامية العصر الجاهلي وظلمه اعتقاداً منهن أن الدين قد أمرهن بذلك وعليهن الاستسلام لبعض المفاهيم المغلوطة عن الدين، والدين منها براء، معتقدات أنهن يطبقن شرع الله ولكن يشعرن في تطبيقهن لتلك المفاهيم المغلوطة عن الدين مذلة واحتقارا وظلما حتى دخلهن الشك في عدالة الشريعة السمحاء التي ضيقت عليهن الخناق وأمرتهن بالطاعة العمياء للرجل دون إبداء حتى رأيهن؛ لأن صوتهن عورة، وهن ناقصات عقل ودين.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن كلا الفريقين من أصحاب الفكر التحرري والمنغلق قد حجم من حضور المرأة في القرآن الكريم، وكلاهما قد ركز على ما يخدم فكره بحيث نجد أن كلاهما أوهم المرأة بأنها مهمشة ومغيبة ومظلومة في الإسلام بل ومحتقرة.

ولهذا ارتأيت أن أعود إلى القرآن الكريم الذي يعد المصدر الأعظم، والبرهان الأقوم في استخلاص البراهين والحجج لرد الشبهات والأوهام، وأنه أشرف مصدر للعلوم والمعارف وأعظمها قدرا[2] ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

[1]-سورة الأحزاب، الآية 33.

[2]- فاضل صالح السمرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، عمان، الأردن، ط5، 2009، ص08.

حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] وقد أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[2] وقد ضمن لمن آمن به وعمل بما جاء فيه السعادة في الدارين قائلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾[3].

وقبل البدء في الحديث عن حضور المرأة في القرآن الكريم ابتداء من النظرة الدونية لها في جاهلية ما قبل الإسلام، إلى نظرة الإسلام لها من حيث المساواة والمفاضلة بينها وبين الرجل، وصولا إلى حضورها في (قصص القرآن) بجانبيه الإيجابي والسلبي، كان لزاما علي أن أعرف هذا الكتاب لمعرفة مدى اهتمامه بالمرأة حتى تتضح الصورة وتتجلي الحقيقة ويزول الوهم.

تعريف القرآن الكريم: للقرآن الكريم معنيان: معنى لغوي، ومعنى اصطلاحي.

أ- **المعنى اللغوي:** كما جاء في لسان العرب: "معنى القرآن، الجمع، ويسمى قرآنا؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي جمعه قراءة، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، أي قراءته".[4]

وقول شيخ بكري أمين "أما معنى لفظ قرآن فهو مرادف لمعنى القراءة، ذلك أن "قرأ" تأتي بمعنى "جمع"، والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في

---

[1]- سورة فصلت، الآية 92.

[2]- سورة البقرة، الآية 985.

[3]- سورة طه، الآية 123-124.

[4]- أبن منطور، لسان العرب، مج1، دار صادر بيروت، ط1، ص 128.

الترتيل، والقرآن في الأصل كالقراءة، مصدر قرأ، قراءة وقرآنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي قراءته."[1]

إن المتأمل في هذين التعريفين للقرآن الكريم يلاحظ أنهما متفقان في أن القرآن يعني القراءة والجمع، إلا أن "أبن منظور" يرى أن المقصود بالجمع جمع السور وضم بعضها إلى بعض، أما "بكري شيخ أمين"، فيرى أن المقصود بالجمع جمع الحروف والكلمات عند الترتيل.

فالتعريفان في الحقيقة وإن اختلفا شكلا فهما متفقان مضمونا، لأنهما يصلان إلى هدف واحد أو نتيجة واحدة، لأن السور المجموعة في الأصل ماهي إلا حروف وكلمات جمع بعضها إلى بعض حتى صارت سورا.

ب- المعنى الاصطلاحي: فالقرآن الكريم، "هو كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، والمتعبد بتلاوته والمبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس".[2]

ويعرفه الدكتور (يوسف القرضاوي) بقوله: "القرآن هو كلام الله تعالى الموحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، المحفوظ في الصدور الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد".[3]

---

[1]- د. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق بيروت، ط4، 1980، ص 11.

[2]- محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، دار الجيل لبنان، ط جديدة 2010، ص 08.

[3]- د/ يوسف القرضاوي، المرجعية العليا للقرآن والسنة – ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، ص22.

من خلال التعريفين يتبين لنا أن هناك اتفاقا بينهما في أن القرآن كلام الله المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أن تعريف (الصابوني) كان أكثر اتساعا وشمولا من تعريف (القرضاوي) غير أن المتعمق في التعريفين يلاحظ أن (الصابوني) يرى أن القرآن محفوظ في المصاحف، بينما يرى "القرضاوي" أن القرآن محفوظ في الصدور.

والحقيقة أن القرآن الكريم محفوظ من قبل الله سبحانه وتعالى سواء كتب في المصاحف أو حفظ في الصدور، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.[1]

وقد عرف الدكتور (بكري شيخ أمين) القرآن تعريفا جامعا، متفق عليه بين العلماء والأصوليين فقال: "القرآن هو كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس" [2].

إلا أن الدكتور (فاضل صالح السمرائي) قد أضاف إلى هذه التعاريف بعدا آخر وهو بعد جمالي فقال: "القرآن كلام فني مقصود، وضع وضعا دقيقا، ونسج

[1]– سورة الحجر، الآية 9.

[2]– د. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 11.

نسجا محكما فريدا، لا يشابهه كلام ولا يرقى إليه حديث"[1] ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[2].

وبعد أن عرفت القرآن الكريم أولا لأنه المصدر العلوي الذي نستحضره عندما تشتد الحاجة، وتتأزم المواقف، وتعجز قوانين البشر عن حلها، فيصبح هو الملاذ والملجأ الذي نعود إليه لحل مشاكلنا المعقدة والمستعصية عن الحل، خارج إطار هذا الدستور الرباني.

والآن لابد من أن أعرف معنى "الحضور" وما المقصود من حضور المرأة في القرآن الكريم، إن معظم المعاجم اللغوية تعرف "الحضور" بأنه ضد الغياب، والحضور في اللغة مأخوذ من الفعل "حضر، حضورا" شهد ضد غاب، حضرت الصلاة، جاء وقتها، وحضره الهم، نزل به، وأحضره جعله حاضرا، وأياه كان بحضرته جعله حاضرا عنده"[3].

ويعرفه صاحب اللسان بقوله: "حضر: الحضور نقيض الغياب والغيبة، حضر، يحضر، حضورا، حضارة، ويعدى فيقال: حضَره، وحضِره، ويحضره"[4].

كما جاء تعريفه في معجم ألفاظ القرآن الكريم وهو لا يختلف عن التعريفين السابقين فيقول: "حضر، يحضر، حضورا، ضد غاب، فهو حاضر وهي حاضرة"[1].

---

[1]– فاضل صالح السمرائي، لمسات بيانية في نصوص التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط5، 2009، ص 8.

[2]– سورة النور، الآية 34.

[3]– الشيخ محمد رضا، معجم متن اللغة، مج 2، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1958، ص109.

[4]– أبن منطور، لسان العرب، مرجع سابق، ص128.

وقد ورد لفظ الحضور في القرآن الكريم بصيغ متعددة، فقد جاء بصيغة الماضي "حَضَر"، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[2]

كما جاء بصيغة المضارع "يحضُر" في قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[3]، كما جاء بصيغة اسم الفاعل "حاضر" في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[4]، وجاء بصيغة المؤنث "حاضرة" في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[5] وقوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[6].

فهذه الصيغ المختلفة التي وردت في القرآن الكريم للفظ "الحضور" كلها تحمل معنى الشهود أو الوجود وهو ضد الغياب.

وحضور المرآة في القرآن الكريم هو حضور متوازن لا يقل كثيرا عن حضور الرجل، وأن للمرأة فيه حظا وافرا، فهي ليست مهمشة ولا مغيبة ولا مهضومة الحقوق كما يدعي البعض، فهي حاضرة في كل مجالات الحياة، والقرآن الكريم أعطى لها منزلة رفيعة حيث جعلها شقيقة الرجل، ولا تتم الحياة بدونها، "لأن عملية تواصل البشر لا تتم إلا في إطار ثنائية الرجل والمرأة معا لتتكامل الحياة، فالمرأة

---

(1)– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج2، مادة حضر، ص92.

(2)– سورة النساء، الآية 8.

(3)– سورة المؤمنون، الآية 98.

(4)– سورة الكهف، الآية 29.

(5)– سورة البقرة، الآية 282.

(6)– سورة الأعراف، الآية 63.

تعد عنصرا فعالا في عملية التناسل والتكاثر حتى يتم مراد الله من استخلافه للإنسان في الأرض، ولو فقدت المرأة أو غيبت لانتهى الإنسان أو لخلا الكون من البشر"، لأنه لو حدث ذلك لانقطع حبل الحياة، وبدأ شبح الفناء يلوح على الإنسانية، والإسلام يدعو إلى المحافظة على الحياة ويطلب امتدادها إلى قيام الساعة[1].

والدارس للقرآن الكريم يجد أنه قد أعطى للمرأة فيه حيزا واسعا ومتميزا ولم يغفل الدور الذي قامت به في الحياة أما، كأم موسى وأم عيسى وأم اسماعيل. وقد خصهن الله بعناية فائقة، حيث ذكر تضحياتهن من أجل أبنائهن حتى جعل بعض أعمالهن شعيرة يتعبد بها إلى اليوم في الحج والعمرة، كما في سعي أم إسماعيل بين جبلي الصفى والمروة لتأمين الماء لابنها الرضيع، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[2]، كما ذكرها بنتا، وأختا، وخالة، وعمة، وذكرها حاكمة كملكة سبأ، وبين موقفها الحكيم في التأني في أخذ القرار ومشاورة أعوانها في الحكم، وعدم الاستبداد بالرأي، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

[1]– محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الهناء، الجزائر، ط1، 2001، ص102.

[2]– سورة البقرة، الآية 158.

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[1]. فالقرآن الكريم لم يغفل حضور المرآة حاكمة وذكر مالها من أثر في الحكم، فهي ذكية، حكيمة، متأنية في أخذ القرار، حيث أخذت بمبدأ المشورة ولم تستبد برأيها، فهي دمقراطية في الحكم، وفي الأخير علمت الحق بذكائها وفطنتها فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.[2]

كما ذكرها الله زوجة في خطابه لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم، حيث خاطب فيهن العقل والشعور معاً مقدما الحجج والبراهين المقنعة قائلا: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.[3]

كما نجد الله سبحانه وتعالى استمع إلى رأي المرأة وقرره مبدأ يسير عليه التشريع العام الخالد، وبذلك كانت آيات الظهار التي بدأت بها سورة المجادلة أثرا من آثار الفكر النسائي وصفحة إلهية خالدة تلمع فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام للمرأة، وأن الإسلام ليس كما يظن أعداؤه، يراها مخلوقا يقاد بفكر الرجل، وإنما هي مخلوقة له إبداء رأيه، وللرأي قيمته ووزنه.[4]

---

[1]– سورة النمل، الآية 29 – 35.

[2]– سورة النمل، الآية 44.

[3]– سور النور، الآية 32.

[4]– محمد شلتوت، تفسير القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط10، ص 144.

من هذا يتبين لنا أن المرأة في القرآن الكريم ليست مهمشة ولا مغيبة ولا مظلومة، بل لها وجود ولها أثر ولم يغفل القرآن الكريم أثرها، وبين أنه لا تمايز بين الذكر والأنثى إلا بالتقوى، وأن هذه الثنائية تكاملية، لا ثنائية ضدية، وأن المساواة التي يدعو إليها دعاة التحرر هي دعوة إلى خروج المرأة عما خلقت له؛ لأن المساواة في الإسلام ليست الندية التي تجعل من المرأة رجلا، وهذا لا يمكن حصوله؛ لأن الله عندما خلق الذكر والأنثى مختلفين في الجنس جعلهما مختلفين في الوظائف.

والقرآن الكريم لم يغفل المرأة حتى قبل الإسلام حيث أشار إلى الممارسات الخاطئة والمجحفة في حقها وأعطى لذلك بدائل، ثم بين مواطن المساواة، ومواطن المفاضلة التي اتخذها أعداء الإسلام دريعة لضرب الإسلام واتهامه بعدم إنصاف المرأة، بل بظلمها، وفي ذلك يقول الصادق المهدي: "لقد استنتج البعض من فوارق الأنوثة والرجولة، أن الرجل أفضل من المرأة، وهذا استنتاج خاطئ لأنها فوارق وظيفية، وإذا وجد تفاضل فهو تفاضل تكاملي"[1]، وأن القرآن قد فسح لها المجال واسعا في القصص القرآني، وأعطى لذلك نماذج حية واقعية منها نماذج إيجابية يتخذها الإنسان قدوة في الحياة، ونماذج سلبية يستقي منها الإنسان العظة والعبرة.

من هذا نصل إلى أن المرأة في الإسلام بصفة عامة وفي القرآن بصفة خاصة لم ينظر إليها باحتقار، أو باستصغار، أو باستبعاد عن الحياة، أو بأنها تابع للرجل، بل ينظر إليها نظرة تقدير واحترام وتكريم، وجعلها حاضرة في كل مجالات الحياة؛ لأن خالق هذا الكون يعلم تمام العلم أن الحياة لا تتم إلا في إطار هذه الثنائية التكاملية بين الرجل والمرأة، وأن حضور المرأة في القرآن الكريم ليس حضورا موضوعيا فحسب، بل هو حضور جمالي أيضا، فالقرآن يخاطب العقل

[1]– الصادق المهدي، الحقوق الإسلامية والإنسانية للمرأة، مرجع سابق، ص 105.

والوجـــدان بأســـلوب بيـــاني معتمـــداً علـــى المقومـــات البلاغيـــة والتعبيريـــة فـــي صـــور ومشـــاهد حيـــة شاخصـــة نتفاعـــل معهـــا فنراهـــا ونســـمعها، بحيـــث لا نمـــل ولا نســـأم مـــن قراءة القرآن لما يحتويه من عناصر التشويق.

الفصل الأول

المرأة بين عدالة الرحمن وظلم الإنسان في القرآن الكريم

نظرة الإسلام لثنائية الرجل والمرأة في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو ذلك النص الإلهي الذي نزل به الأمين جبريل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد حفظه الله سبحانه وتعالى من التحريف والتغيير قائلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]

وهو لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ابتداءً من خلق آدم وحواء وانتهاءً بالبعث والنشور والحساب والجزاء والخلود في الجنة أو النار.

والقرآن الكريم هو المرجعية العليا للمسلم ي حياته وسلوكه وعلاقته بالآخرين، فهو منهج متكامل، ونظام شامل، جاء لينظم العلاقة بين الناس عامة، وبين الرجل والمرأة خاصة، مبينا أن العلاقة بينهما تعاونية تكاملية، مبنية على المودة والرحمة، خلقها الله على نسق يكمل بعضه البعض، إلا أن بعض الناس قد انحرفوا عن هذا المنهج وأسسوا لأنفسهم دستورا جديدا مغايرا لدستور الله سبحانه وتعالى يقوم على التمييز ضد المرأة فنظروا إليها نظرة دونية لا تختلف عن نظرة الجاهلي لها قبل الإسلام.

وسوف أتناول بالدراسة في هذا الفصل مجموعة من المعاملات السيئة الناتجة عن النظرة الدونية للمرأة قبل الإسلام، وقد عالجها القرآن الكريم بأسلوب تصويري فأخرج المعاني الذهنية، والحالات النفسية في مشاهد حية شاخصة متجددة محذرا تارة ومهددا أخرى، منبها إلى خطورة هذه المعاملة الآسنة التي لا تزال بعض مخلفاتها باقية إلى اليوم نتيجة لسوء فهم معنى الاختلاف في الجنس الذي أدى إلى سوء المعاملة، لأن الاختلاف لا يعني الضدية والتمايز بقدر ما يعني التعاون

[1]– سورة الحجر، الآية 09.

والتكامل، وهذا ما بينه القرآن الكريم في نظرته إلى المرأة تلك النظرة العادلة القائمة على التكامل لا على العداوة والبغضاء.

تكامل الرجل والمرأة:

إن أول ما خلق الله من البشر بعد خلق السماوات والأرض "آدم" عليه السلام من تراب ثم نفخ فيه من روحه فكان بشرا سويا مصداقا لقوله عز وجل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1] ففي هده الآية الكريمة تتجلى عظمة الخالق في خلقه إذ يخلق بشرا سويا من غير أب ولا أم وقد يخلق من أم دون أب كما في خلق عيسى عليه السلام إذ يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[2] أي لا تكن من المتشككين في عظمة الله وقدرته في خلق عيسى من غير أب.

هنا تظهر طلاقة قدرة الله في شأن الخلق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو الحق الذي لا مجال للشك فيه، ولا حدود لقدرته.

وبعد أن خلق الله آدم عليه السلام من تراب، وأسكنه الجنة، وعاش فيها وحيدا فاستوحش وأحس بالوحدة كما يقول المفسرون، خلق الله له من نفسه امرأة هي حواء، لتؤنسه وتبدد وحشته ووحدته، خلقها من ضلعه الأيسر ليألفها ويأنس بها

[1]– سورة ص، الآية 71– 72.

[2]– سورة آل عمران، الآية 59.

لكونها من جنسه[1]، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]

فالآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى "هو الله العظيم الشأن الذي خلقكم جميعا وحده من غير معين، من نفس واحدة هي آدم عليه السلام وخلق منها حواء ليطمئن إليها وليأنس بها"[3].

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلحظ فيها دقة متناهية في التعبير أدت إلى دقة بالغة في المدلول حيث بين الله سبحانه وتعالى أن الخلق له وحده فقال "هو الذي خلقكم" وأن جميع البشر مخلوقين من آدم عليه السلام فقال "من نفس واحدة "واستعمل "من" التي تفيد التبعيض أي أنها بعضا أو جزءا من آدم عليه السلام ومن آدم كانت حواء. فهي جزء منه، ثم قال الحق تبارك وتعالى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولم يقل وخلق، لأن الخلق من العدم وحواء لم تكن من العدم ولكنها كانت من نفس آدم عليه السلام، وعلى هذا تكون "من" في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تبعيضية إذا كان المقصود أنها مخلوقة من جسد آدم، من ضلع من أضلاعه، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون "من" بيانية أي من جنس آدم عليه السلام، أي من جنس البشر لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آمن، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ[4]، ثم قال ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فلفظة (سكن،

---

[1]– أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، دار النشر. دمنهور، مصر، ط1، ص434.

[2]– سورة الأعراف، الآية 189.

[3]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، دار الصابوني، القاهرة، ط9، 1976، ص486.

[4]– الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، ج1، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977، ص150.

يسكن سكونا بمعنى قر وثبت وهدأ بعد حركة فهو ساكن وسكن إليه، اطمأن ومال إليه)[1]

وفي المعنى نفسه يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن النساء خلقن من جنس الرجال، لأن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال من شكل أنفسهم ومن جنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون وجعل بينهم التواد والتراحم".[3]

والمقصود بالجنس ليس جنس الذكورة إنما جنس الإنسان وأصله؛ لأن أصلهما واحد وهو التراب.

ولهذا يرى الطاهر بن عاشور أن المقصود من قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من نفس المادة التي خلق منها آدم وليس المقصد من جسم آدم [4]، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع وأن أعوج ما في الضلع أعلاه﴾[5]، وبهذا فيكون المقصود من جسم آدم.

إن المتمعن في ألفاظ هذه الآية الكريمة يدرك أنها لا تقل جودة ولا دقة ولا فصاحة عن ألفاظ الآية السابقة فكل لفظة تحمل من المعنى ما لا يمكن للفظة

---

[1]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج3، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996، ص151.

[2]– سورة الروم، الآية 21.

[3]– محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، مج 3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1987، ص 432–437.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج21، ص72.

[5]– البخاري، صحيح البخاري، ج2، مكتبة الصفاء، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، 2003، ص133.

أخرى أن تؤديه فخلق حواء من آدم آية من آيات الله وعلامة بارزة من علامات طلاقة قدرة الله في مخلوقاته وقال ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ولم يقل مثلا "خلق لكم من أجسامكم" لأن النفس تدل على "ذات الشيء وحقيقته وجملته"[1]

كما تعني الروح، فهذه الكلمة أشمل وأعم ثم استعمل لفظ (أزواجا) في قوله ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ والزوج المقصود به هنا هو المرأة قرينة الرجل وشريكة حياته[2]، والله تعالى لم يقل (خلق لكم من أنفسكم نساءً)؛ لأن لفظة الزوج أعمق وأدق لما بين الاثنين من المماثلة والتكامل فكل واحد منهما زوج للآخر أي يكمله، كما استعمل حرف الجر (من) في قوله ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لأن من تفيد التبعيض، والمرأة بعض أو جزء من الرجل، وقد تكون لبيان الجنس، أي من جنسكم ونوعكم[3]، ثم استعمل لفظ السكون: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فالسكون الذي هو ضد الحركة يمنح الإنسان السكينة التي تمده بالثبات والقوة لأداء مهامه في الحياة دينية أو دنيوية، مصداقا لقوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[4] وبدون الهدوء والسكينة يعيش الإنسان حالة من الاضطراب والقلق الذي لا يوصل إلا إلى الفوضى والتذبذب في الحياة.

من خلال الآيتين الكريمتين السابق ذكرهما، نلاحظ أن هناك قاسما مشتركا في مدلول ألفاظهما، فكلاهما تؤكد مما لا يترك مجالا للشك أن المرأة خلقت من

---

[1]– مختار فوزي النعال، موسوعة الألفاظ القرآنية، مكتبة دار التراث، حلب، لبنان، ط1، 2003، ص789.

[2]– مختار فوزي النعال، موسوعة الألفاظ القرآنية، المرجع السابق، ص370.

[3]– بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج3، مكتبة دار التراث، القاهرة، 2005، ص370.

[4]– سورة الفتح، الآية 4.

نفس الرجل فهي جزء منه، وأنها خلقت من أجله لتمنحه الراحة والهدوء والسكينة، وأنها هي منتهى التثبيت والاطمئنان له، لذا جعل بينهما المودة والرحمة.

وخلق المرأة من الرجل أكده القرآن الكريم في كثير من الآيات القرآنية منها قوله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]

وقوله تبارك وتعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2] وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[3] وقوله ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[4]

من خلال هذه الآيات القرآنية يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق حواء من آدم عليه السلام، ثم جعلها زوجا له وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا بقوله: "استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع وأن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج"[5]، ولهذا لا نستغرب أن تكون المرأة شريكة الرجل في جميع مجالات الحياة، ولا يمكنه الاستغناء عنها ؛ لأنها جزء منه، لذا لها ما للرجل وعليها ما عليه من حقوق وواجبات حددها الله تبارك وتعالى لكل واحد منهما حسب الخصائص

---

[1]– سورة لنساء، الآية 1.

[2]– سورة الزمر لآية 6.

[3]– سورة الأنعام، الآية 98.

[4]– سورة الشورى، الآية 11.

[5]– البخاري، صحيح البخاري، ج2، مكتبة الصفاء، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، 2003، ص133.

والقدرات التي وضعها الله تبارك وتعالى فيه، لتتكامل الحياة بينهما وفي ذلك يقول الدكتور فؤاد حيدر "إن الإسلام نظر إلى الرجل والمرأة نظرة تكاملية أي أن لكل منهما سمات وخصائص متمايزة ويكمل أحدهما الآخر، إن الرجل يمتاز بالقوة الفكرية والنشاط الجسدي، في حين تمتاز المرأة بالعاطفة والحساسية والحدس والتضحية"[1]

صحيح أن هناك خصائص خص الله بها الرجل دون المرأة، وخصائص خص الله بها المرأة دون الرجل، إلا أن هذه الخصائص لا تصنع التمييز أو التفاضل بين الاثنين؛ لأن هذه من طبيعة الخلق والتكوين، ولكن التمايز الحقيقي في نظري يعود إلى العمل الصالح المثمر، وإلى التقوى بمعناها الشامل، أي مراعاة الله في كل صغيرة وكبيرة في السر وفي العلن مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]

فمقياس التفاضل بين الرجل والمرأة ليست في الذكورة أو الأنوثة ولكن التفاضل الحقيقي يكمن في تقوى الله، والعمل الصالح، ومراعاته في كل الأحوال دون النظر إلى كون هذا رجلا أو امرأة؛ لأن الجزاء من جنس العمل لا من جنس البشر، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا

[1]– فؤاد حيدر، المرأة في الإسلام وفي الفكر الغربي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ص125.

[2]– سورة الحجرات، الآية 13

مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى لم يميز في الجزاء بين الذكر والأنثى حسب القوة الفكرية أو النشاط الجسدي أو قوة العاطفة والحدس أو غيرها من الفوارق التي ذكرها (د/فؤاد حيدر) سابقا وإنما كان الله عادلا في الجزاء، فكلاهما يحاسب على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر وهذا هو العدل الذي لا جدال فيه، والحق الذي لا شك فيه، وشريعة الله في خلقه أجمعين إلا أن شريعة البشر قد عزفت عن ميزان العدل والحق فنظرت إلى المرأة نظرة دونية، حتى أن هناك من يرى أن المرأة لا ترقى إلى مستوى البشر بل هي أدنى من ذلك بكثير حتى وصل الأمر ببعضهم إلى إباحة قتلها ووأدها وهي حية خشية العار أو الفقر، وهذا أبشع ما يتصوره عاقل في أي مخلوق حي، وخاصة إذا كان هذا المخلوق هو فلذة من فلذات أكبادهم ونعمة من نعم الله عليهم، فأين العقل والفكر الذي يتميز به الرجل على المرأة على حد قول الدكتور فؤاد حيدر السابق ذكره.

نظرة الجاهلي للمرأة في القرآن الكريم

إذا كانت نظرة الإسلام لثنائية الرجل والمرأة في القرآن الكريم نظرة عادلة مبنية على التعاون والتكامل ولا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر؛ لأن المرأة مخلوقة من جنس الرجل، أي أنها مخلوق بشري مثله، وهي في الوقت نفسه مخلوقة من جسمه، ولا تتم الحياة إلا بوجودهما معا، لأن عمارة الأرض قائمة على هذه الزوجية بين الذكر والأنثى لاستمرار الحياة.

[1]– سورة غافر، الآية 40

إلا أن نظرة الجاهلي لها نظرة مغايرة تماما فهي نظرة سلبية تحقيرية دونية.

1- النظرة الدونية للمرأة:

إن نظرة الرجل للمرأة قبل الإسلام كانت نظرة دونية، بل هي نظرة مادية لم يفرق بينها وبين متاع الحياة الدنيا، ووظيفتها إشباع رغباته المادية والحسية دون مراعاة للجانب الإنساني فيها، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1]

إن هذه النظرة المادية للمرأة لم تأت من فراغ؛ إنما لها ما يؤسس لها من مفاهيم خاطئة موروثة عن الثقافات والحضارات القديمة بل حتى عند أصحاب بعض الديانات.[2]

وعلى رأس هذه العوامل المؤسسة لدونية المرأة الاعتقاد السائد عند معظم الناس، وما زال عند بعض الناس إلى اليوم، أنها سبب الخطيئة الأولى التي وقع فيها الرجل، فهي التي أغرته ليأكل من الشجرة المحرمة ليُطرد من الجنة فيشقى على هذه الأرض[3]، فهي سبب شقائه في هذه الحياة، رغم أن القرآن الكريم قد فصل في هذه القضية وقطع الشك باليقين فقال ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ

---

[1]- سورة آل عمران، الآية 14

[2]- الصادق المهدي "الحقوق الإسلامية والإنسانية للمرأة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2006، ص136.

[3]- المرجع نفسه، ص198.

أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]

إلا أن الدكتور (فؤاد حيدر) يرى أن هذه النظرة الاحتقارية للمرأة مردها إلى عدم وضوح مفهوم كلمة "الأنثى" في اللغة العربية "لأن الأسباب التي جعلت الجاهلي يحتقر الأنثى ويجعلها في مستوى يحط من قيمتها الإنسانية والاجتماعية، مرده إلى أن العربي في الجاهلية أساء استعمال المفهوم اللغوي لكلمة (أنثى) حيث تدل الكلمة على معان مختلفة تتفاوت في القيمة الإنسانية، والاجتماعية، والدينية ؛ ونراه أحيانا يطلق الكلمة للدلالة على الانحطاط والدونية للمرأة وأحيانا أخرى تطلق للتعبير عن آلهتهم"[2]

إن هذا الخلط في التقدير للتسمية نجده في كثير من الآيات القرآنية من ذلك قوله تعالى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾[3]، أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثانا سموها بأسماء الإناث (اللات والعزى ومناة) وما يعبدون إلا شيطانا متمردا بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه[4]، وقوله ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[5]

---

[1]– سورة طه، الآية 117– 121.

[2]– فؤاد حيدر، المرأة في الإسلام وفي الفكر الغربي، المرجع السابق، ص115.

[3]– سورة النساء، الآية 117.

[4]– محمد علي الصابري، صفوة التفاسير، مج1، ص305.

[5]– سورة الإسراء، الآية 40.

فهذا خطاب على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، والمعنى أخصكم الله بالذكور واختار لنفسه الإناث على حد زعمهم، كيف يجعل لكم الأفضل ويختار لنفسه الأدنى إنكم لتقولون قولا عظيما في شناعته وبشاعته حيث تنسبون لله البنات وتجعلون له ما تكرهون [1]، فالاستفهام في هذه الآية الكريمة كما يرى ابن هشام يفيد الإنكار الإبطالي، وأن ما بعدها غير واقع، وأن ادعاءهم كاذب.[2]

وقوله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾[3] فالاستفهام هنا يفيد نفي هذا الفعل ويتضمن معنى التوبيخ والتبكيت أي أن هذا ليس صحيحا، وقوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[4]

فهذا القول افتراء على الله سبحانه وتعالى لأنه منزه عن ذلك وفي نفس المعنى يقول الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.[5]

---

[1]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير مج1، ص160

[2]– ابن هشام الأنصاري المصري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع القاهرة، 2009، ص39.

[3]– سورة النجم، الآية 21.

[4]– سورة النحل، الآية 57.

[5]– سورة الصافات الآيات 144– 154.

فهذه الآيات كلها توبيخ وإنكار وتقريع للمشركين، وإبطال دعاويهم من نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى حيث زعموا أن الملائكة بنات الله فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور، هل كانوا حاضرين حين خلق الله الملائكة فشهدوا أنوثتهم، وهذا غير حاصل، وقولهم هذا إفك وكذب على الله سبحانه وتعالى حيث نسبوا له الولد من غير دليل قاطع، وقالوا اختار البنات وفضلهن على الذكور، وهذا دليل على سفاهة عقولهم وجهلهم لأنهم يرون الذكور أفضل من الإناث فكيف يختار الله ما يكرهون وهن الإناث.[1]

وقد ختمت الآيات بقوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالآية تحوي استفهامين "ما" و"كيف" أي مالكم كيف تحكمون هذا الحكم وكيف تحكمونه فكلا الاستفهامين انكار وتعجب[2].

لأن ما حكموا به منكراً يحق التعجب منه فعجبا كيف رضوا لربهم البنات ولم يرضوها لأنفسهم، فهذه القسمة جائرة وقد أشار القرآن الكريم إليها فقال جل شأنه ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[3]

ففي هذه الآية الكريمة ينكر الله على المشركين هذه القسمة الجائرة ويتهكم عليهم مستنكرا فظاعة هذا القول وغرابته، "فجاءت كلمة (ضيزى) وهي من أغرب ما جاء من ألفاظ القرآن الكريم ومعناها ناقصة، أو جائرة، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج25، المرجع السابق، ص180– 182.

[2]– المرجع نفسه، ص183.

[3]– سورة النجم، الآية، 21.

الموضع غيرها"[1] وقد جاءت غرابة هذه اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها الله، وكانت الجملة كأنها تصور في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولى والتهكم في الثانية وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة[2]

كما نجد في الآية الكريمة اسم الإشارة (تلك) التي تستعمل للبعيد فقد جاءت تماما في محلها وملائمة للمعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى حيث استبعد تلك القسمة الجائرة التي تنسب لله البنات ولهم الذكور، ولو قال "هذه إذا قسمة ضيزى" لما استقام المقصود، ولكن استعمل "تلك" لأن تلك القسمة بعيدة كل البعد عن الحق والعدل فكان لكل لفظة من الدقة والإتقان والعمق والتلاؤم بين اللفظ والمعنى ما يدل على إعجاز القرآن وسر جماله.

ومما هاجمه القرآن الكريم بشدة نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى، "وهنا نرى أن القرآن الكريم يصور "في أقوى صور التعبير" موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى حتى لتكاد أن تتفجر غيظا، وتتشق ثورة، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء وضخامة هذا الكذب"[3] وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا

[1]– مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص173.

[2]– صلاح عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية للتوزيع، لونجمان، مصر، 1992، ص83–84.

[3]–المرجع نفسه، ص184.

﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[1]

فالآية الكريمة رد على المشركين الذين نسبوا الولد لله تعالى حيث جعلوا الملائكة بنات الله كما رد على النصارى الذين قالوا أن المسيح ابن الله وكان الرد عنيفا في اللفظ وفي المعنى فاستعمل الله الكلمات التي تدل على الشدة والقوة كـ "الإد، يتفطرن، وتنشق، وتخر، وهدا"، والله تعالى قد تنزه عن الولد والصاحبة مصداقا لقوله ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾.[2]

أي تعالت عظمة ربنا جل جلاله عن الزوجة والولد لأن الزوجة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس والله منزه عن هذه النقائص.[3]

إن عدم وضوح مفهوم "الأنثى" في ذهن المشركين جعلهم يقعون في هذه الأخطاء من نسبة الولد لله سبحانه وتعالى وتسمية الملائكة تسمية الأنثى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾.[4] وجعلها بنات لله سبحانه وتعالى وأنه اختار البنات على الذكور، وهذا كله ليس مبنيا على يقين، إنما هو نتيجة ظنونهم التي لا تغني عن الحق شيئا، لأن الظن قد يصل بصاحبه إلى الإثم، لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.[5]

---

[1]– سورة مريم، الآية 88–93.

[2]– سورة الجن، الآية 3.

[3]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج3، مرجع سابق، ص458.

[4]– سورة النجم، الآية 27.

[5]– سورة الحجرات، الآية 12

وفي الوقت نفسه كان المشركون ينظرون إلى الأنثى أحيانا نظرة تقديس وإجلال حتى لتبدو صنما يعبد كاللات والعزى ومناة، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.[1] فعدم وضوح النظرة للأنثى جعلت المشركين يقعون في هذه الازدواجية بين قداسة الأنثى من جهة ودونيتها من جهة أخرى، ورغم هذه الازدواجية في النظرة للأنثى فإن كرههم لولادة الأنثى بين لا يخف على أحد، وقد صور القرآن الكريم حالة الجاهلي عندما يبشر بالأنثى كيف يتذمر ويقلق وتتغير ملامح وجهه ويظهر ذلك من خلال انفعالاته وتصرفاته حتى يكاد لا يطيق نفسه ولا الآخرين يتوارى ويختبئ من الآخرين حتى لا يرى عليه أثر ذلك الشعور المقيت.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن نظرة الرجل للمرأة قبل الإسلام كانت نظرة سوداوية تشاؤمية سواء أكان ذلك خلطا في المفاهيم أم خوفا عليها على حد زعمهم من الفقر أو العار فتجرؤا على قتل بناتهم فلذات أكبادهم وهذا يدل على سفاهة عقولهم وتبلد حواسهم.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء القوم بالسفه والضلال لأنهم حرموا أنفسهم من نعمة الله عليهم فقال جل شأنه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.[2]

فالآية الكريمة تبين خسران الذين قتلوا أولادهم بجاهلة وحرموا أنفسهم مما رزقهم الله من النعم كذبا واختلاقا على الله سبحانه وتعالى، وقد ضلوا السبيل المستقيم وما كانوا في الأصل مهتدين لسوء عملهم[1]

---

[1]– سورة الزبر، الآية 3

[2]– سورة النعام، الآية، 140.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن قتل الأولاد من فقر حاصل فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[2]

فالآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن قتل الأولاد بسبب الفقر وبين أن أعظم الإساءة إلى الأولاد هو إعدام حياتهم بالقتل خوفا من الفقر لأن الله هو الذي يرزق الآباء والأبناء معا.[3]

ثم تأتي الآية الكريمة من سورة الإسراء تنهي الآباء عن قتل أبنائهم خوف الفقر فقال تباركم وتعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.[4]

فالآية الكريمة تنهي عن قتل الأولاد خوفا من الفقر لأن الله هو الذي يرزقهم ويرزق آباءهم فالرزق مكفول من الله للأبناء والآباء معا "فالآية تقطع على هؤلاء وهمهم وتزيل خوفهم وتلفت نظرهم إلى أن الرزق بيد الله وهو الرزاق ذو القوة المتين".[5]

وإذا تأملنا الآيتين الكريمتين نلاحظ احتراز القرآن الكريم ودقة تعبيره، ففي الحالة الأولى عندما كان الفقر حاصلا بدأ بقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ حيث بدأ برزق الآباء لأنهم فقراء ثم رزق الأبناء بعدهم.

---

(1)– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير مج1، مرجع سابق، ص422

(2)– سورة الأنعام، الآية 151.

(3)– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص768.

(4)– سورة الإسراء، الآية 140.

(5)– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن الكريم تقديم وتخريج ناصر اسماعيل دار عين مليلة، الجزائر ص66– 68.

وأما في الحالة الثانية فالفقر ليس حاصلا وإنما كان الخوف من وقوعه إذا جاء الأولاد فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزق الأولاد ثم بعد ذلك رزق الآباء.[1]

كما نلاحظ استخدام العطف بالواو في الآيتين ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وفي الثانية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ والواو تفيد الجمع كما يقول ابن عقيل: "فالواو لمطلق الجمع عند البصريين، فيعطف بها اللاحق، والسابق، والمصاحب، والقرينة تبين ذلك"[2]، أي أن الرزق كله من عند الله للآباء والأبناء معا، فلا ينتقص الأبناء من رزق آبائهم شيئا، وهذه دقة التعبير في القرآن الكريم الذي لا ينقضي جمال الإعجاز البياني فيه لفظا ودلالة.

وفي الأخير يجب أن أشير إلى أن هذه النظرة الاحتقارية للمرأة في الجاهلية أفرزت مجموعة من السلوكيات الخاطئة، والمعاملات المجحفة في حق المرأة وعلى رأسها التذمر من ولادة الأنثى.

2- التذمر من ولادة الأنثى

إن نظرة الجاهلي السلبية للمرأة جعلته لا يرى منها إلا الضعف الذي يجعلها غير قادرة على العمل والكسب فتصبح عرضة للجوع، أو الجانب الغريزي الحيواني الذي يجعلها عرضة للعار وكلاهما منقصة في حقه، لذا كان الرجل في الجاهلية يخشى من ولادة البنات ويخجل إذا رزق بأنثى ولذا إذا بشر بمولود أنثى حزن لذلك حزنا شديدا، وتألم ألما موجعا، ووقع في صراع نفسي، وتردد في ذلك بين إبقاء هذه المولودة على قيد الحياة، وهو في ذلك يشعر بالمهانة والمذلة، أو يدفنها حية

---

[1]- نفس المرجع، ص66- 68.

[2]- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج2، دار التراث، القاهرة، 2005، ص175.

فينتهي ألمه وحزنه، وقد عبر القرآن الكريم عن موقفه هذا بقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1]

فالآية الكريمة تشير إلى الشعور الداخلي للرجل الجاهلي الذي يظهر على وجهه حين يبشر بمولود أنثى، حيث تتغير ملامح وجهة، ويظهر عليه الغم، والحزن والغيظ، محاولا الاختفاء عن قومه خوفا من العار الذي يلحقه بسبب هذه لأنثى كأنها بلية وليست هبة إلهية، ثم تظهر عليه ملامح التردد مفكرا فيما يصنع بهذه البنت، أيبقيها على قيد الحياة متحملا الذل الهوان، أم يدفنها حية فتنتهي أحزانه ؟ فساء صنيعهم وساء حكمهم.[2]

إن هذه الآية الكريمة نقلت إلينا مشهدا حيا فيه صوت، ولون، وحركة، لون وجه متجهم يعلوه السواد من سوء سماع صوت البشارة بالأنثى، وحركة رجل يتخفى من القوم من سوء ما بشر به.

فالآية الكريمة جعلتنا نعايش المشهد بما فيه من صوت ولون وحركة بألفاظ قليلة مشحونة بمعاني كثيرة وهذا من جمال التعبير القرآني، الذي يعتمد أسلوب التصوير لتقريب المعاني الذهنية والنفسية للمتلقي.

وفي نفس لمعنى يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾"[3]. فاستعمال كلمة (البشارة) في هذه الآية والتي قبلها

---

[1]– سورة النحل، الآية 58– 59.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ص131.

[3]– سورة الزحزف، الآية 17.

ضرب من التهكم بهؤلاء القوم، واستخفاف بعقولهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة في الأصل هي إعلام بحصول أم مسر[1] لكن هؤلاء القوم لا تفرحهم البشارة بالأنثى بل تسيئهم وتحزنهم.

فالآية الكريمة تبين سفاهة عقل الجاهلي لعدم قدرته على التمييز بين الأشياء، إذ كان يغضب ويحزن لولادة الأنثى، وفي الوقت نفسه يجعل لله نصيبا من البنات، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾[2] فالله سبحانه وتعالى يشير إلى فساد معتقد المشركين حيث جعلوا لله بناتا لقولهم إن الملائكة بنات الله والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ موجه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به.[3]

كما اعتبروا الملائكة الذين هم عباد الله، وخلق من خلقه إناثا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[4]

فالآية الكريمة تشير إلى فساد تفكير الجاهلي، بل إلى فساد معتقده، حيث جعل الملائكة وهم عباد الرحمن المكرمون إناثا، فالإضافة إلى اسم الرحمن تفيد تشريفهم، والعبودية هي عبودية القرب، ثم جاء الاستفهام في الآية الكريمة

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج25، مرجع سابق، ص 180.

[2]– سورة الزحف، الآية 15– 16

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج25، مرجع سابق، ص 177– 179.

[4]– سورة الزحف، الآية 19

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ فالإنكار والتوبيخ، بمعنى أأشهدهم الله خلق الملائكة، ثم يختم الله تعالى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي ادعاؤهم أن الملائكة إناثا، وأطلق عليه لفظ شهادة تهكما بهم ثم بعد ذلك يسألون والسؤال تهديد وإنذار بالعقاب[1].

فالآية الكريمة تؤكد التشويش والاضطراب في تفكير الجاهلي حيث يعتبر الملائكة إناثا يتقرب بها إلى الله، وفي الوقت نفسه يحتقر الأنثى ويسيئ إليها إلى حد القتل.

وهذا يدل على عدم قدرة الجاهليين على التمييز بين الأشياء وخاصة في مفهوم الأنوثة فوقعوا في هذا الخلط، فأحيانا يقدسون الأنثى ويجعلونها معبودهم كاللات والعزى، وأحيانا يحطون من قيمتها، فيعتبرونها عبئا ثقيلا عليهم لما تسببه لهم من العار والمذلة ولذا حاولوا التخلص منها بقتلها شر قتلة وهو الوأد.

نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن كل لفظة فيها وضعت في موضعها بدقة متناهية بحيث لا يمكن للفظة أخرى أن تحل محلها أو أن تؤدي وظيفتها أو توصل معناها وهذا سر جمال التعبير القرآني وسر اعجازه.

ونتيجة لفساد فكر الجاهلي وفساد معتقده لم يتوقف عند حد التذمر من ولادة الأنثى، بل تجاوز الأمر ذلك حتى وصل به الحد إلى القتل الذي يعد أبشع جريمة على وجه الأرض وقد تفنن الجاهلي في قتل ابنته فلذة كبده فاختار أشدها قسوة ووحشية وأكثرها إيلاما وهو الوأد فما هو الوأد ؟ ولماذا تؤد البنت ؟

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج 25، ص185.

3- وأد البنات:

إن من مظاهر الانحلال الخلقي والاجتماعي قبل الإسلام ظاهرة وأد البنات عند بعض الجاهليين.

والوأد من وأد البنت يئدها وأداً أي دفنها حية[1]. وقد كان يفعل هذا بعض العرب في الجاهلية حيث يعمد الرجل إلى ابنته فيئدها في صغرها خشية أن تلحق به عار أو خوفا من سبيها إذا كبرت، أو خشية الفقر عليها على حد زعمهم[2].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجريمة النكراء، مهددا أصحابها ومتوعدا من يقوم بها قائلا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[3].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: " وكان من أفظع الاعتداء على إزهاق الأرواح من أجسادها اعتداء الآباء على نفوس أطفالهم بالوأد، فإن الله جعل في الفطرة حرص الآباء على حياة أبنائهم وجعل الأبوين سبب إيجاد الأبناء، فالوأد، أفظع أعمال أهل الشرك، وسؤال الموءودة سؤال تعريضي مراد منه تهديد وائدها ورعبه بالعذاب[4].

والسبب الذي كان يدفعهم إلى هذا الفعل الشنيع على حد زعمهم الخوف من الفقر، لأن المرأة في نظرهم عاجزة وغير قادرة على الكسب، على عكس الرجل

---

[1]- محمد علي النجار، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج30، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1969، ص217،

[2]- محمد علي النجار، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج30، مرجع سابق، ص217.

[3]- سورة التكوير، الآية 8- 9.

[4]- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30، ص144.

الذي يحتال للكسب بالغارة أو بغيرها، أما الأنثى فهي عالة على أهلها، كما كانوا يخشون من غارة العدو عليهم فتسبى نساؤهم[1].

فالمرأة في كلتا الحالتين تعد عبئا ثقيلا على كاهل أهلها، وتسبب لهم إزعاجا فيتخلصون منها بالوأد.

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف نلاحظ أن السؤال فيها موجه للمجني عليها (الموءودة) دون الجاني (الأب) فقد تجاهله الله ولم يذكره، كما تجاهل حرمة النفس التي حرمها الله إلا بالحق، ثم جاء الاستفهام عن نوع الذنب الذي قتلت به ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ فتكون إجابتها شهادة على إقامة الحجة على الجاني لأنه لا ذنب لها، إلا أنها خلقت أنثى كما أن إجابتها تعتبر توبيخا وإهانة لمن فعل ذلك الفعل الشائن وهو في الأخير تهديد ووعيد بالعذاب.

فالآية الكريمة رغم قصرها قد حملت معاني كثيرة، ملؤها التهديد والوعيد فهي موجزة معبرة عن هذا الفعل البشع، وهذه الجريمة النكراء، بألفاظ قليلة مشحونة بمعاني الاستنكار والتوبيخ، وهذا من جمال التعبير في القرآن الكريم.

فالآية تصور مشهدا مريعا، فتاة صغيرة تدفن وهي حية تنظر إلى وائدها وهو يهيل عليها التراب دون رحمة أو شفقة، وفي المقابل مشهد الفتاة تبعث وتسأل عن الذنب الذي اقترفته فقتلت به شر قتلة وكأني بها واقفة بين يدي الله تنتظر الإجابة ممن فعل بها ذلك، لأن ذنبها الوحيد أنها خلقت أنثى، وهذا جرم كبير ؛ لأنه تعدي على إرادة الله وحكمته.

[1]– المرجع نفسه، ص145

والقرآن الكريم قد أشار إلى ظاهرة قتل الأولاد التي كان يقوم بها بعض العرب في الجاهلية سواء أكان ذلك خوفا من الفقر أو خوفا من العار فتجرؤا على قتل أبنائهم حيث زين لهم شركاؤهم من الإنس والجن هذا الفعل القبيح فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1].

فالآية الكريمة توضح إن قتل الأولاد افتراء على الله سبحانه وتعالى سواء بوأدهم أو بنحرهم للآلهة حيث كان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما فعل عبد المطلب[2].

وهذا تجاوز لحدود الله جل شأنه حيث حرموا أنفسهم من نعمة الله عليهم فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا وقد ساعدهم أعوانهم وشركاؤهم من الإنس والجن على قتل أولادهم ليفسدوا عليهم دينهم الحق أي ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، وليهلكوهم بفعلهم هذا.. [3]

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أن المفعول به تقدم على الفاعل وذلك لفظاعة وفداحة هذا العمل "القتل" فتصدرت به الآية الكريمة، وتأخر الفاعل "شركاؤهم" لأنهم قاموا بإغراء هؤلاء السفهاء، وزينوا لهم هذا الفعل القبيح وهو القتل.

كما نلاحظ أن لفظة "زين" التي هي فعل ماض مضعف ليدل على الكثرة والتزيين أو التجميل لا يكون إلا للقبيح؛ لأن الجميل أو الحسن في الأصل لا يحتاج للتجميل أو التحسين، وهذا يعد من الجمال الفني في القرآن الكريم وقد

---

[1]– سورة الأنعام، الآية 137.

[2]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص 752.

[3]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج 1، مرجع سابق، ص421.

وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء القوم بالسفه والضلال؛ لأنهم حرموا أنفسهم من نعمة الله ورزقه فقال جل شأنه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1].

فالآية الكريمة توضح أن قتل الأولاد عامة ووأد البنات خاصة خسارة لهم سواء أكان ذلك خوفا عليهن من السبي أو أنفة من تزويجهن أو هربا من نفقتهن[2].

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد استنكر هذا الفعل الوحشي، "الوأد"، سواء أكان الدافع إليه الخوف من الفقر، أو الخوف على الحرمات والأعراض، أو العزة والأنفة من تزويجهن، فهذه كلها أسباب واهية لا تبيح لإنسان كائن من كان أن يقدم على ازهاق أرواح بناته أو إعدامها من الوجود.

4- عضل المرأة:

والأذى للمرأة في الجاهلية لم يكن بالواد والقتل فقط بل كانت له أوجه متعددة وقد ذكرها القرآن الكريم مفصلة حيث كانوا يرثون النساء كما يورث المتاع، ويأخذون حقوقهن الشرعية بلا رادع ولا خوف، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3].

---

[1]- سورة الانغام، الآية 140.

[2]- محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1990، ص 186.

[3]- سورة النساء، الآية 19.

ففي هذه الآية الكريمة ينهى الله أن تورث المرأة كرها، وهذه كانت عادة جاهلية حيث كان الرجل إذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه القى ثوبه على المرأة وقال ورثت امرأته كما ورثت ماله، فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها فإن شاء تزوجها من غير صداق، وإن شاء زوجها من انسان آخر واخذ صداقها ولم يعطها شيئا[1]. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾[2].

ومن أنواع الأذى الذي كان يلحقه الرجل بالمرأة في الجاهلية منعها من الزواج ليأخذ بعض ما كان لها من حق المال فجاءت هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[3*] لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. فمن المخاطب في هذه الآية الكريمة، يقول الفخر الرازي أن المخاطب فيه أقوال:

الأول: أن الرجل منهم كان يكره زوجته ويريد مفارقتها، فكان يسئ العشرة معها ويضيق عليها حتى تفتدي منه نفسها بمهرها.

الثاني: أنه خطاب للوارث بأن يترك منعها من التزوج بمن شاءت وأرادت.

الثالث: أنه خطاب للأولياء ونهي لهم عن عضل المرأة ومنعها من الزواج.

---

[1]– الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مج 5، ج10، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص170.

[2]– سورة النساء، الآية 19.

[*]– تعضلوهن: مأخوذة من العضلة وهو كل لحم صلب في عصب، وعضلته: شددته بالعضلة، ويستعمل في كل منع شديد وورد لمنع المرأة من الزواج، أنظر: أمين الخولي، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج4، ص229.

الرابـــع: أنــه خطــاب لــلأزواج فــإنهم فــي الجاهليــة كــانوا لا يطلقــون المــرأة ويضيقون عليها لكي لا تتزوج حتى تفتدي نفسها ؟[1]

مـن خـلال مـا سـبق يتبـين لنـا أن الله سـبحانه وتعـالى قـد نهـى الرجـال سـواء أكـانوا أبـاءً أم أزواجـاً أم ممـن تـربطهم صـلة بـالمرأة أن يرثـوا النسـاء كمـا يـورث المتـاع، أو أن يرثـوا أمـوالهن بـأي وجـه كـان كمـا نهـى عـن حـبس النسـاء فـي البيـوت ومـنعهن مـن الـزواج لكـي يـذهبوا بـبعض مـا فـرض الله لهـن مـن مـال مـن صـداق أو ميـراث إلا فـي حالـة واحـدة يسـمح فيهـا بعضـل المـرأة إذا أتـت بفاحشـة مبينـة كالنشـوز والزنـى بشـهود أربعة كما يرى الفخر الرازي[2]

ثــم أمــر الله ســبحانه وتعــالى فيمــا عــدا ذلــك بالمعاشــرة بــالمعروف حتــى إن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.

والمـتمعن فـي الآيـة الكريمـة يجـد أنهـا عبـرت بأسـلوب فيـه مـن الدقـة والحـرص علـى المـرأة مـا لا يمكـن لأي أسـلوب أخـر أن يفـي بهـذا الغـرض حيـث بـدأت الآيـة الكريمـة، بنـداء المـؤمنين وأداة النـداء هـي (اليـاء) وهـي تسـتعمل لنـداء البعيـد، رغـم أن المـؤمنين هـم أقـرب النـاس إلـى الله، فأنزلـت هـذه الأداة منزلـة القريـب لعلـو شـأن المـؤمنين عنـد الله سـبحانه وتعـالى، كمـا أنهـا جـاءت لتنبيـه المـؤمنين لخطـورة هـذا العمل.

بعد النداء جاء النهي ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي كفوا عن هذا الفعل وامتنعوا عنه، وفي هذا النهي استعمل الله تارك وتعالى " لا يحل " بدل يحرم عليكم" وفيه من اللطف والتدرج في النهي لأنه راعى مقام المخاطبين وهم المؤمنون

[1]– الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مج1، ج10، ص12.

[2]–الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مج1، مرجع سابق، ص12.

الذين يستجيبون لنداء الله، ثم جاء بقوله ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾، وهو تعبير مجازي حيث شبه النساء بالمتاع أو المال ثم حذف المتاع ورمز له بشيء من لوازمه وهو الميراث على سبيل الاستعارة المكنية ثم استعمل لفظة (كرها) أي بغير رضاهن والإكراه فيه مشقة وتعب على النفس، ثم عطف بالواو التي تفيد مطلق الجمع من غير ترتيب[1]، أي لا ترثوهن ولا تعضلوهن، والكلمة فيها نوع من الغرابة نظرا لغرابة هذا السلوك وهو منع المرأة بشدة من الزواج وفيها أيضا استعارة حيث شبه المنع بشدة الإمساك بالعضلات أو من العضلات[2]. وحذف المشبه وأبقى على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، والكلمة بما فيها من الغرابة فيها من الشدة والعنف والمضرة ما ليس في غيرها فجاءت ملائمة تماما لهذا الضرر اللاحق بالمرأة حين منعها من الزواج وكل ذلك من اجل المال وهو حق من حقوقها.

ثم استثنى بـ (إلا) الحالات التي يجوز فيها عضل المرأة كعقاب لها على تجاوز حدود الله بقوله ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ والفاحشة المبينة كما يرى المفسرون هي النشوز والزنا ثم ختم الآية بالأمر وطلب المعاشرة بإحسان، ولفظة المعروف هي قمة في المعاملة الحسنة ومراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة حتى وإن كنتم كارهين لها فإن الله سوف يجعل في صبركم عليهن خيرا كثيرا، ووصف الله جزاء الصابرين ليس بالخير فقط بل بالخير الكثير.

---

[1]– ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، دار رحاب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص328.

[2]– أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج2، مكتبة السنة، دمنهور، مصر، ص216.

5- حرمان المرأة من المهر:

ومن أنواع الأذى الذي كان يلحقه الرجل بالمرأة في الجاهلية ليأخذ منها مهرها الذي أمهرها عند زواجه منها أن يرميها بالفاحشة فتفتدي نفسها منه بذلك المهر، ثم يتزوج بذلك المهر امرأة أخرى[1].

وقد حرم الله سبحانه وتعالى هذا النوع من المعاملة الظالمة للمرأة فقال ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2]،

فالآية الكريمة بينت بوضوح فساد هذا السلوك الجائر الذي يؤذي به الرجل المرأة حيث يبدلها بزوجة أخرى، ثم يأخذ منها مهرها، فالظلم مضاعف على المرأة، فهو ظلم مادي ومعنوي، ثم أمرهم بعدم الأخذ منه (الصداق)، ثم أنكر عليهم هذا الفعل لأن أخذه يعد بهتانا وإثما مبينا، وخاصة بعد أن افضى بعضهم إلى بعض.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم أسلوب الزجر الرادع لمن تخطى ما رسمه الله سبحانه وتعالى من حدود في معاملة الرجل للمرأة، في حال كان راغبا في استبدالها بامرأة أخرى، نهاه عن أخذ شيء مما أعطى لها من المهر فقال ﴿فَلَا تَأْخُذُوا﴾، فهي تحمل معنى الأمر بعدم لأخذ من المهر، واستعمل حرف الجر (من) التي تفيد التبعيض أي ولو بعضا منه، ولو كان كثيرا حيث استعمل لفظة (قنطار) التي تدل على الكثرة، ليبين ان

---

[1]- الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق، ج10، ص12

[2]- سورة النساء، الآية 20- 21

المهر مهما كثر لا يجوز الأخذ منه ولو شيئا يسيرا، ثم جاء باستفهام ابتكاري بواسطة الهمزة ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فالله ينكر عليهم هذا الفعل الذي هو باطل وإثم مبين، ثم يعقبه باستفهام انكاري آخر بواسطة أداة أخرى هي (كيف) وذلك بقوله ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ فالله سبحانه وتعالى يستفهم مستنكرا حالة الأخذ وقد تم الاتصال بين الزوجين، وقد انتقى الله سبحانه وتعالى لفظه ﴿أَفْضَىٰ﴾ وهي كناية عن الاتصال بين الزوجين[1]. فقد عبر الله عز وجل عن هذه العلاقة بين الزوجين بلفظة غاية في السمو والجمال بعيدا عن التعابير والألفاظ التي تخدش الحياء، كما عبر عن العقد بين الزوجين بالميثاق الغليظ.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الآية الكريمة قد عبرت بأسلوب متناسق بين اللفظ والمعنى فكل لفظة فيه تعطي دلالة لا يمكن لأي لفظة أخرى أن تؤديها ولو حملت معناها، فهي وضعت في موضعها بدقة واتقان متناهيين.

كما نجد الأسلوب المعبر به في الآية الكريمة يغلب عليه الطابع الإنشائي من نهي يحمل معنى الأمر إلى استفهامين، وهذا الأسلوب جاء مطابقا لمقتضى حال المخاطبين الذين يريدون أخذ حق المرأة بالباطل وهذا سر من أسرار الجمال في أسلوب القرآن الكريم.

6- الظهار

ومن أنواع الأذى الذي كان يلحقه الرجل بالمرأة في الجاهلية واستمر بعد الإسلام "الظهار" فما هو الظواهر ؟ وما حكمه ؟

[1]- أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، ج1، مرجع سابق، ص444.

الظهار في اللغة: هو لفظ مأخوذ من الظهر، والظهر من كل شيء خلاف البطن، والجمع أظهُرٌ وظُهورٌ وظَهران[1].

"والظهار بكسر الظاء هو أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي، أي يحرم زوجه عليه كحرمة أمه"[2]، حيث كان الرجل إذا غضب من زوجته أو أراد النيل منها، يظاهر منها فتحرم عليه، فأبطل الله سبحانه وتعالى هذا الحكم الجائر بقوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[3].

هذه الآيات نزلت في حق "خولة بنت ثعلبة" التي ظاهر منها زوجها "أوس ابن الصامت" وكانت قد تقدم بها وبزوجها السن، فجاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ضعفها وضعف زوجها وأبنائها وما سيئول إليه حالهم بعد الفراق، وظلت تراجعه في أمر زوجها وتحاوره وتشتكي إلى الله[4]. فسمع الله شكواها واستجاب لها، وانزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يدرك جمال الرد القرآني على هذا الحيف في حق المرأة، فبدأت الآية الكريمة بحرف (قد) الذي يفيد التحقيق ثم جاء بالفعل الماضي (سمع) الذي يحمل معنى الحال، أي أن الله سمع في الحال الجدال

---

[1]– ابن منظور، لسان لعرب، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، 1955، ص2764.

[2]– مختار فوزي النعال، موسوعة الألفاظ القرآنية، مكتبة دار التراث، حلب، سوريا، ط1، ص507.

[3]– سورة المجادلة، الآية 1– 2.

[4]– أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج1، مرجع سابق، ص 1371.

والحوار الذي جرى بين المرأة والرسول صلى الله عليه وسلم، ثم استعمل صيغتين للحديث القائم بين المرأة والرسول صلى الله عليه وسلم ﴿تُجَادِلُكَ﴾ و﴿تُحَاوِرُكُمَا﴾ لما بين الصيغتين من اختلاف (فالجدال)، يدل على المنازعة في الرأي ويطلق على شدة الخصومة واللدد فيها[1]. لأن المرأة كانت في قمة غضبها وتحاول بيان حالها لرسول الله صلى عليه وسلم، ثم تلتها صيغة الحوار، الذي يدل على المخاطبة والمكالمة بهدوء؛ أي بعد أن نزلت شدة غضبها.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أنها ركزت على صفة (السمع) التي وردت ثلاث مرات في الآية بصيغ مختلفة، في الأولى جاءت بصيغة الماضي (سمع) أي ان الله تبارك و تعالى قد علم المحاورة قبل أن تبدأ، لأن الله يعلم السر وما أخفى، وقد يكون بمعنى الحال أي أن الله سمع حوارها مع الرسول صلى الله عليه وسلم حال حدوثه و(السماع) كما يقول ابن عاشور: "معناه الاستجابة للمطلوب وقبوله بقرينة دخول (قد) التي هي في الأصل حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر، لكن الخطاب هنا لنبي صلى الله عليه وسلم، وهو لا يخامره تردد في أن الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها فتعين أن حرف (قد) هنا استعمل في التوقع، فإن المتوقع هو استجابة شكواها"[2].

ثم جاءت الصيغة الثانية بالمضارع (يسمع) وهي تفيد الحال والاستقبال "فالفعل استعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله سبحانه وتعالى"[3].

---

[1]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج2، مرجع سابق، ص6.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج28، مرجع سابق، ص8.

[3]– المرجع نفسه، ص9.

أي أن سماع الله ليس قاصرا على الحاضر بل ممتد إلى ما لا نهاية في المستقبل ويقول بن عاشور "وجيء بصيغة المضارع لاستحضار حالة مقارنة علم الله لتحاورهما زيادة في التنويه بشأن ذلك التحاور"[1].

وفي الأخير ختم الآية الكريمة بصيغة المبالغة (سميع) وأردفها بصفة (البصير) بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، لأن عملية التواصل تقوم أساسا على السمع والبصر وحاسة البصر تساهم مساهمة فعالة في عملية السمع، وهذه الصيغة تدل على أن الله لا يغيب عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو عالم بكل سمعي وبكل مرئي"[2].

من هذا نخلص إلى أن للسمع أهمية كبرى قد تفوق حاسة البصر وأن الله يسمع في جميع الحالات وفي كل الأوقات وأنه بصير بكل مخلوقاته ولا يعيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

والمتأمل في هذه الصيغ الثلاث (سمع، يسمع، سميع) يلاحظ أنها تشترك في معنى السماع إلا أن لكل لفظة أو صياغة معنى دقيقا لا يمكن أن تؤديه صيغة أخرى، وكل واحدة منها تشعرنا بمعية الله لنا في الماضي والحاضر والمستقبل وفي كل حين وآن.

كما نلاحظ جمال التعبير القرآني في هذا التجانس والتناسق بين هذه التراكيب التي تحتوي جناس اشتقاق بين (سمع ويسمع وسميع) وهذا التجانس أعطى للآية الكريمة إيقاعا نغمياً خاصا أضفى على الآية جمالا كما زاد القارئ والمستمع شوقا للتلقي والاستماع دون كلل أو ملل.

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص9.

[2]–محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير و التنوير، مرجع السابق، ص9.

كما نلاحظ في نفس الآية تكرار لفظ الجلالة (الله) أربع مرات (سمع الله) و(تشتكي إلى الله)، (والله يسمع)، (إن الله سميع بصير). لما في لفظ الجلالة (الله) من قيمة عظمى وقدر عال، وربما يكون هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، فكرره الله ليعلم به خلقه ويقول وابن عاشور: "إن تكرار اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرات لتربية المهابة وإثارة تعظيم سنته تعالى ودواعي شكره"[1].

وفي الآية دليل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ولم يبق له أحد سوى ربه وصدق في دعائه وشكواه كفاه الله ذلك ومن كان أضعف فالرب به ألطف.[2].

وبعد أن سمع الله شكوى المرأة المتضررة من قول زوجها؛ لأن الشكوى لا تكون إلا من ضرر؛ فقد استجاب لها مبطلا حكم التحريم بالظهار فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[3].

وقد ورد لفظ "الظهر" في الآية الكريمة بمعنى الجارحة حقيقةً أو تشبيهاً للثقل المعنوي بالثقل المادي؛ لأن كلمة الظهر تطلق على الركاب التي تحمل الاثقال[4].

وإذا لاحظنا لفظة ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة المأخوذة من لفظة (الظهر) التي تحمل مجموعة من الدلالات اللغوية، فالظهر خلاف البطن فهي تعني البروز والظهور كما تحمل الإبانة والإبعاد والإهمال والثقل؛ لأن كل ما يكون

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص9.

[2]– اسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج9، دار الفكر للنشر والتوبع، بيروت، لبنان، ص389.

[3]– سورة المجادلة، الآية02.

[4]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج4، ص176.

خلف الإنسان فهو مغيب، وهذه الدلالات تنطبق تماما على المراد من الظهار فهو إبعاد الزوجة وإهمالها والإبانة منها وتحميلها ثقلا معنويا بهذا التصرف، فهذه الدلالات كلها تنطوي على معنى الأذية للمرأة.

والخطاب في قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ "يجوز ان يكون للمسلمين فيكون ذكر هذا الوصف للتعميم بيانا لمدلول الصلة في قوله ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ لئلا يتوهم إرادة معين بالصلة"[1]. أي أن الحكم ليس خاصا بخولة بنت ثعلبة وزوجها، فهو عام للمسلمين ثم جاءت أداة النفي ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ لتنفي الأمومة عن الزوجة، فالزوجات لسن أمهات، ثم فصل بعد ذلك بقوله: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فبين الله أن لا أم إلا الوالدة وما عدا ذلك فباطل، "فالأمومة حقيقة ثابتة لا تصنع بالقول، إذ القول لا يبدل حقائق الأشياء"[2]. ثم جاء بعد ذلك التفصيل بأداتين من أدوات التوكيد (النون و(اللام) في قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ ليؤكد ويثبت أن قولهم "أنت عليّ كظهر أمي" قول منكر قبيح وفيه كذب وزور، لأن الزوجة ليست أماً في أي حال من الأحوال، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "والتوكيد بالنون واللام للاهتمام وإيقاظ الناس لشناعة الظهار"[3]. والزوجة لم يحرمها الله كما حرم الأم بدليل قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾[4]. ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ مؤكدا بأن عفو الله

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج28، ص11.

[2]– المرجع نفسه، ص12.

[3]– المرجع نفسه، ص13.

[4]– سورة الأحزاب، الآية 13.

وغفرانه عن عباده التائبين عن ذنوبهم وأخطائهم، ويرى ابن عاشور أن الله يعفو ويغفر على الذين صدر منهم الظهار قبل نزول هذه الآية الكريمة "[1].

فهذه الآية الكريمة قد صورت هذا السلوك الجائر ضد المرأة بتعبير دقيق كل لفظة فيه تبين عظمة الله وعفوه وسماعه لشكوى الضعفاء والمحتاجين إلى عونه ونصرته والى كل من تاب وأناب عن ظلمه مهما كان كبيرا.

فالمقابلة في الآية الكريمة بين قوله تعالى: ﴿مُنْكَرًا ، وَزُورًا ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿عَفُوٌّغَفُورٌ﴾ تعطينا صورة لمتناقضين القبح والجمال، قبح الظهار وبشاعته لما فيه من المنكر والزور وذم الذين يلفظون بهذا القول، وجمال العفو والغفران، كما فيها جمال نظرة الله سبحانه وتعالى للمرأة بإبطال حكم الظهار فهذه الصورة البلاغية قد أضفت على المعنى وضوحا وجمالا حيث بينت ظلم الإنسان وتسامح الرحمن مع عباده التائبين فجاء بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿عَفُوٌّغَفُورٌ﴾ التي تدل على الكثرة أي أن الله كثير العفو والغفران، وهذا الفعل لا يصدر إلا من عظيم كريم رحيم.

كما نلاحظ "تأكيد الخبر في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّغَفُورٌ﴾ لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله تعالى ﴿وَلَدْنُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾"[2].

من خلال ما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم قد رسم صورة دقيقة للمرأة في الجاهلية حيث كانت تعامل معاملة دون معاملة الرجل نتيجة لتفنن الجاهلي في إلحاق الأذى بها متناسيا كل الروابط الدموية والانسانية والعلاقات الأسرية التي

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج28، ص18

[2]– المرجع نفسه، ص14.

تربطه بالمرأة التي كانت السبب المباشر في وجوده وربما يعود هذا السلوك العنيف ضد المرأة إلى قسوة الحياة التي عاشوها آنذاك، فانعكس ذلك على انفسهم فقست قلوبهم وتجاهلوا كل علاقة تربطهم بالمرأة وتصرفوا بمنطق القوة والضعف، فالمرأة في نظرهم ضعيفة لا تقوى على تحمل أعباء الحياة، وهي عرضة للسبي والفقر، وهذا يعد سبة في حقهم فتخلصوا منها، إما بالوأد أو بأخذ حقها بوسائل أخرى قد سبق وان ذكرتها.

فالقرآن الكريم صور ذلك السلوك الجائر الممارس على المرأة في الجاهلية، فجعل المرأة مسلوبة الإرادة منهكة الحقوق مجبرة على الطاعة والخضوع للرجل، إلا أن القرآن الكريم قد صحح هذه النظرة السيئة والسلوكات المنحرفة، والعادات الفاسدة منصفا المرأة مبينا أنها شقيقة الرجل لها ما له وعليها ما عليه بما ميز الله به أحدهما عن الأخر، بأسلوب فيه من القوة والدقة والوضوح مما لا يترك مجالا للشك، إلا أن الأدهى والأمر أن تستمر هذه الهوة بين الرجل والمرأة بعد الإسلام عند بعض المسلمين نتيجة لسوء فهم بعض آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة يتخذها معظم الناس دليلا قاطعا على أفضلية الذكر على الأنثى "فهي القول الفصل والحكم الذي لا يقبل المداولة والقضاء الذي لا يقبل الاستئناف على تميز الذكر وارتفاعه على الأنثى"[2].

[1]– سورة آل عمران، الآية 36.

[2]– عابدة المؤيد العظم، سنة التفاضل، مرجع سابق، ص43.

البدائل التي أرساها القرآن الكريم للتعامل مع المرأة وفق المنظور الاسلامي:

إن القرآن الكريم لم يقتصر على ذكر مساوئ التعامل السيئ للمرأة قبل الاسلام بل أعطى لذلك بدائل تقوم على العدل، والإخاء، والمودة، والرحمة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.[1]

فالآية الكريمة فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام القائم على الازدواج، وكينونة العائلة، حيث جعل أزواج الانسان من صنفه لا من صنف آخر، وجعل بينهما المودة والرحمة، وبذلك تطمئن نفس الانسان وتهدأ، والخطاب في الآية الكريمة موجه للرجال والنساء على حد سواء دون مفاضلة أو تمييز وذلك في قوله تعالى: " أن خلق لكم" أي لجميع نوع الانسان الذكور والاناث.[2]

هذه الآية الكريمة تبين عظمة الخالق وبديع صنعه في خلق الناس جميعا رجالا ونساءً من صنف واحد وهو صنف البشر، وهذه آية من آيات الله في خلقه، ثم جعل بينهما المودة والرحمة، لتتكامل الحياة بينهما، ولا يعلو أحدهما عن الآخر؛ لأنه يدرك بحكمته اللامتناهية ضعف الإنسان وغرور الشيطان الذي يزين لأحدهما أفضليته عن الآخر، فبين أنهما من نوع واحد وأصل واحد، وهذا منتهى الحكمة البالغة.

كما نجد الله سبحانه وتعالى أبدل تلك النظرة الدونية للمرأة قبل الاسلام بنظرة تقدير واحترام على حد سواء مع الرجل فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

---

[1]– سورة الروم، الآية 21.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج20، مرجع سابق، ص 71.

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.[1]

فالآية الكريمة تبين تكريم الله لبني آدم ذكورا وإناثا دون تميز بينهما، وذلك بأن أعد لهم مقومات حياتهم، حيث رتب لهم الكون، وخلق من أجلهم الأشياء، فكل ما في الوجود مسخر لهم، وهذه قمة التكريم[2]، كما نجد الآية الكريمة ختمت بقوله تعالى: "وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"، أي فضلناهم وميزناهم على سائر المخلوقات والله سبحانه وتعالى قد استعمل لفظين غاية في السمو والدقة وهما "التكريم" و"التفضيل" في التعبير عن قيمة الانسان بأن كرمه، وأحسن معاملته، عندما هيأ له ما في الكون برا وبحرا لخدمته، ثم فضله بأن أعطاه درجة رفيعة حيث ميزه عن سائر مخلوقاته[3]، وقمة الفضل والتكريم أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة "كن" إلا آدم فقد خلقه بيده ونفخ فيه من روحه[4]" حيث قال: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[5] وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[6]

والحقيقة أن تكريم الله للإنسان وتفضيله على سائر الموجودات لا يمكن أن تعد أوتحصى؛ لأن لها أوجه متعددة لا يمكن حصرها وهذا كله من فضل الله ورحمته بخلقه.

---

[1]– سورة الإسراء، الآية 70.

[2]– محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج14، أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، مصر، ص 8679.

[3]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ج4، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، ص 163.

[4]– محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج14، المرجع السابق، ص 8681.

[5]– سورة ص، الآية 70.

[6]– سورة الحجر، الآية 29.

والله سبحانه وتعالى قد ألغى تلك الثنائية الضدية بين المذكر والمؤنث وجعلها تنصهر في بوتقة واحدة هي الانسان فقال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[1]، فالله سبحانه وتعالى بين أنه يستجيب لدعاء عباده ولا يضيع عمل عامل منهم ذكورا أو اناثا، لأن نساءهم ورجالهم يجمعهم أصل واحد، وشأنهم شأن واحد.[2]

كما أعطى الإسلام للمرأة في القرآن الكريم حق الحياة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[3]، فالقتل هو اعتداء على الانسان بإزهاق روحه، وهو منهي عنه سواء أكان الولد ذكرا أو أنثى، لأن النهي عن قتل الأولاد والمقصود به البنون والبنات معا.[4]

وقد اعتبر الله سبحانه وتعالى قتل الأولاد خطئا كبيرا، لأن "الخطأ هو ما تُعمد من الذنب"[5] والخطأ هو الإثم والذنب العظيم، لأن صاحبه يقوم به عمدا.

نلاحظ دقة التعبير القرآني في انتقاء الألفاظ المعبرة عن هذا الجرم واختيار مواضعها وضعا فنيا مقصودا بحيث لا يمكن للفظة أخرى أن تؤديها، فنجد كلمة "خطئا" أو "خطأ" مأخوذة من خطا يخطو، خطوة، وتعني الانتقال بالحركة، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استقر عليه الناس وتعارفوا عليه، ثم تجاوزته

---

(1)– سورة آل عمران، الآية 195.

(2)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص 203.

(3)– سورة الإسراء، الآية 31.

(4)– محمد متولي الشعراوي، ج14، مرجع سابق، ص8496.

(5)– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج2، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ص 168.

وانتقلت عنه إلى غيره، فهذا هو الخطأ، أي الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب.[1]

فعلا إن قتل الآباء لأبنائهم وخاصة البنات هو خطوة تجاوزت الصواب؛ لأن المفروض في الآباء الحفاظ على حياة أبنائهم بكل الوسائل، إلا أن بعض العرب في الجاهلية خرجوا عن دائرة الصواب حين ساورتهم فكرة الخوف من الفقر ثم تلتها الخطوة الأخرى بإنهاء حياة أبنائهم، وكلها خطوات خاطئة، تدل على سفاهة عقولهم وقسوة قلوبهم التي خرجت عن المنطق والعقل، فتجاوزت الصواب وأوصلتهم إلى الخطأ. وفي ذلك يقول محمد متولي الشعراوي "والعرب في الجاهلية قد خرجوا عن دائرة الصواب عندما هدموا بنيان الله بالقتل وقطعوا سلسلة التناسل في الأرض، وقضوا على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض، وتعدوا على غريزة العطف والحنان المفروضة في الآباء".[2]

والقتل من أبشع الجرائم على الأرض، وقد حرمه الإسلام وتوعد فاعله بعذاب شديد قائلا ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3]

ونهى عن القتل فقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[4] والنفس كلمة عامة تطلق على كل انسان ذكرا كان أو أنثى، بحيث لا يشك أحد أن قتل الأنثى

[1]– محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج14، مرجع سابق، ص 8494.

[2]– المرجع نفسه، ص 8495.

[3]– سورة النساء، الآية 93.

[4]– سورة الأنعام، الآية 151.

مباح، وقوله ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]

فقتل النفس يعد كبيرة من الكبائر حتى ان الحق تبارك وتعالى اعتبر من قتل نفسا واحدة بغير نفس كأنما قتل الناس جميعا.

كما حرم الله العضل وأعطى المرأة حق الزواج فقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2]

ومنع المرأة من الزواج فيه مضرة للمرأة وفساد للمجتمع؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد"[3]

والاسلام قد أعطى للمرأة حق الزواج، وحق اختيار الزوج، دون إكراه أو إرغام "فلا يحق لأحد أن يمنع المرأة من الزواج إذا طلبت ذلك فإن لها وحدها أن توافق أو ترفض"[4]

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يدرك أن الله سبحانه وتعالى عبر عن منع المرأة من الزواج بالعضلة المشدودة في جسم الانسان لما بينهما من الشدة، والألم، والقهر؛ لأن معنى لا تعضلوهن، لا تقهروهن[5]، فاللفظة مصورة، وموحية، ومعبرة،

---

[1]– سورة المائدة، الآية 32.

[2]– سورة البقرة، الآية 232.

[3]– الترميذي، مختصر سنن الترميذي، اختصره الدكتور مصطفى ديب البغا، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، ص 142.

[4]– محمد فريحة، حقوق المرأة المسلمة في القرآن والسنة، المكتب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص6.

[5]– جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1997، ص8.

وهذا منتهى الإعجاز والجمال، والقصد في اللفظة القرآنية، هكذا نجد أن "اللفظ القرآني منتقى بعناية فائقة ليؤدي وظيفة دلالية لا يمكن أن يؤديها غيره"[1]

كما جعل الله المهر من حق المرأة وحدها لا يحق لأحد الأخذ منه، وذلك ابطالا لعادة جاهلية تعمل على منع الزوجة من المهر، حيث "كان الزوج يعطي مالا لولي المرأة ويسمونه حلوان" بضم الحاء، ولا تأخذ المرأة شيئا، فأُبطل ذلك بالإسلام بأن جعل المال للمرأة"[2] بقوله تعالى ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[3]

والخطاب في الآية الكريمة موجه لعموم الأمة، وكل من له يد كالأزواج والأولياء وولاة الأمور، فهؤلاء مأمورون بالحرص على أن تدفع المهور إلى النساء بصدق وأمانة والإيتاء حقيقته الدفع والإعطاء[4]، ولكن الله سبحانه وتعالى قال ﴿آتوا﴾ ولم يقل "أعطوا" لأن الإيتاء أقوى من الإعطاء في اثبات مفعوله؛ لأن فعل الإعطاء له فعل مطاوع نقول أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني فآتيت، وإنما آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إتيان مفعوله من الذي لا مطاوع له.[5]

كما نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل "أعطوهن مهورهن" بل عبر عنها بالصدقات و(الصدقات) جمع صدقة بضم الدال، وهي مشتقة من الصدق لأنها

---

(1)– وليد قصاب ابراهيم، من أسرار لغة القرآن "اللفظ المفرد"، مجلة احوال المعرفة، العدد 42، سنة الحادي عشر، 2006، تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، ص49.

(2)– محمد بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص 230.

(3)– سورة النساء، الآية 04.

(4)– محمد بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص 230.

(5)– عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، 1983، ص70.

عطية يسبقها الوعد بها فيصدقه المعطي[1]، حيث يفي بوعده بتقديم المهر للمرأة التي يتزوجها، ثم ختم الحق تبارك وتعالى هذه الآية بقوله: ﴿نِحْلَةً﴾ بكسر النون والنحلة هي العطية بدون عوض.[2]

وسميت الصدقات نحلة إبعادا لها عن أنواع الأعواض، وتقريبها إلى الهدية إذ ليس الصداق عوضا عن منافع المرأة عند التحقيق.[3]

وإذا كان الله سبحانه وتعالى جعل المهر حقا من حقوق المرأة عند الزواج، وذلك للتفرقة بين النكاح، والمخادنة*، إلا أنه قد فتح باب الفضل بين الزوجين بحيث إذا تنازلت الزوجة عن بعض حقها في المهر عن طيب نفس منها فلا حرج في ذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾[4]، أي حلالا مباحا، وإنما قال ﴿عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ "فجيء بحرف التبعيض إشارة إلى أن الشأن أن لا يتم العقد بلا صداق، فلا تسقطه المرأة كله، لأن الآية قررت دفع المهور إلى الزوجات، وجعلته ركنا من أركان النكاح"[5]، فقد تقرر في

---

(1)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص 230.

(2)– محمد علي النجار، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج6، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص 90.

(3)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المرجع السابق، ج3، ص 230

(*)– المخادنة: هي زنا مستمر وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ...﴾ أنظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص233.

(4)– سورة النساء، الآية 04.

(5)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص 230– 233.

عدة آيات لقوله تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[1] وقوله ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾[2].

نجد في الآية الكريمة أن الله قال ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ والمقصود من الأكل الانتفاع بلا رجعة، وهنيئا أي مستساغا، ومريئا أي لا يخلف عواقب صحية غير مرضية فهو لذيذ الطعم ويورث صحة وعافية.

من خلال هذا نلاحظ أن القرآن الكريم جعل كل كلمة من كلمات هذه الآية تؤدي غرضها بدقة حيث لا يمكن لكلمة أخرى أن تؤدي وظيفتها، وهذا سر من أسرار بلاغة الكلمة في القرآن الكريم حيث جعل الكلمة المناسبة في المكان المناسب بدقة، ووضوح، وتناسق، وهذا ما جعل التعبير القرآني تعبيرا فنيا مقصودا. مما جعل الدكتور (ابراهيم قصاب) يقول: "إن كل كلمة في كتاب الله تعالى متمكنة في موضعها، ولا يمكن أن تنوب منابها كلمة أخرى، لأن كل كلمة أخرى هي من اختيار البشر، وهذه من اختيار العزيز الحكيم".[3]

من هذا نصل إلى القول أن الله جعل المهر حقا خالصا للمرأة لا يجوز لأحد الأخذ منه قل أو كثر إلا بطيب نفس منها، دون إكراه، أو إجبار، أو تعسف، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[4]

---

[1]– سورة النساء، الآية 24.

[2]– سورة النساء، الآية 25.

[3]– وليد قصاب ابراهيم، من أسرار لغة القرآن "اللفظ المفرد"، مرجع سابق، ص49.

[4]– سورة النساء، الآية 20.

فأخذه أو حتى أخذ شيء منه دون رضى المرأة يعد بهتانا وإثما مبينا كما وصفه الحق سبحانه وتعالى.

كما نجد الله سبحانه وتعالى قد حرم التعسف في حق المرأة (بالظهار) الذي كان يؤذي به الرجل المرأة في الجاهلية لما فيه من ظلم للزوجة وقبح في تشبيه الزوج لها بأمه، وفي اعتباره طلاقا بائنا بينونة كبرى، فهو مفض للتحريم الأبدي، فأبطل الله تلك العادة الجاهلية الضارة بالمرأة وبيّن أن الزوجة ليست أماَ وأن لا أم إلا الوالدة وأن القول منكر وزور لما فيه من فحش في القول وقبح في التشبيه والتصور، فهو (يعرض حرمة الأم لتخيلات شنيعة)[1]، فأبطل الله هذه العادة الجاهلية الضارة بالمرأة لما فيها من قهر للزوجة وكسر لنفسها، وجعل باب الأمل موصدا في وجهها، فأعطى حلا فيه عدل ورحمة للمفارقة بين الزوجين إذا استحالت العشرة بينهما، وتعذرت وسائل الصلح التي ذكرت في القرآن الكريم، فجعل لذلك حلا ميسرا للانفصال بينهما وهو الطلاق فقال جل شأنه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحسَانٍ ﴾[2]، والطلاق مأخوذ من الانطلاق وهو التحرر، فكأنه حل عقدة النكاح التي جعلها الله عقدا مغلظا وهي الميثاق الغليظ[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[4]

فالله سبحانه وتعالى قد جعل الطلاق مخرجا للزوجين عندما تتأزم الأمور بينهما ويستحيل العيش بينهما تحت سقف واحد، وجعل فيه فسحة للزوجين لمراجعة نفسيهما، حيث لا تحرم المرأة من الطلقة الأولى بل جعلها طلقتين يحق فيه للزوج

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسر التحرير والتنوير، ج27، مرجع سابق، ص13.

[2]– سورة البقرة، الآية 229.

[3]– محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج2، مرجع سابق، ص 989.

[4]– سورة النساء، الآية 21.

أن يراجع زوجته، بحيث لا تحرم إلا في الطلقة الثالثة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحسَانٍ﴾ فالتسريح بإحسان هي الطلقة الثالثة كما يقول صاحب روح المعاني (فقد أخرج أبو داود والترميذي عن أبي رزين الأسدي أن رجلا قال يا رسول الله إني أسمع أن الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ فقال التسريح بإحسان هي الثالثة)[1]

من خلال ما سبق تتبين لنا سماحة الإسلام، ورحمة الله بخلقه، إذ جعل الطلاق حلا اذا استحالت الحياة بين الزوجين وبلغ الخلاف بينهما مبلغه، ولكن لم يجعل حرمته مؤبدة من الطلقة الأولى كالظهار، بل جعل باب الأمل مفتوحا أمام الزوجين لمراجعة نفسيهما حفاظا على الأسرة من تفكك روابطها وضياع الأطفال الذين هم ثمرة ذلك الزواج، ورغم ذلك فالله سبحانه وتعالى كانت رحمته اوسع فلم يقنط الزوجين من العودة إلى الحياة الزوجية حيث أبقى على باب الأمل مفتوحا، بحيث إذا تزوجت المرأة غيره بعد الطلقة الثالثة ثم طلقت يحق لزوجها الأول إعادتها إلى عصمته، وذلك تأديبا لهما معا، بحيث لا يتسرع الزوج بالتلفظ بالطلاقّ، ولا تحاول المرأة اغضاب زوجها حتى توصله إلى هذا المأزق الحرج، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾[2]

وإذا تأملنا آية الطلاق يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لم يأمر الزوج أو يضغط عليه بعدم تطليق زوجته؛ لأنه يعلم خبايا النفس الإنسانية وما قد ينجر حين يحتدم الصراع بين الزوجين، ولا يطيق أحدهما الآخر،

---

[1]– الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص135.

[2]– سورة البقرة، الآية 230.

فالانفصال هو الحل الأمثل لكليهما، ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى قد خير صاحب العصمة وهو الزوج، إما بالإمساك أو بالتسريح، ولذلك استخدم القرآن الكريم في التعبير عن ذلك حرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير بين أمرين لا يمكن الجمع بينهما[1].

فأسلوب القرآن قد عبر بهذه الأداة (أو) لتبيان امتناع الجمع بين الإمساك والتسريح في آن واحد، تحذيرا للزوج من أن يجعل المرأة معلقة لا مزوجة ولا مطلقة، فيمسكها في الظاهر، ويضر بها فلا يؤدي حقوقها فتصبح شبه المسرحة في الحقيقة.

كما نجد القرآن الكريم قد عبر عن عدم الطلاق بـ (الإمساك) الذي يدل في الحقيقة على قبض اليد على الشيء مخافة أن يسقط أو يتفلت، واستعيرت في هذا المقام لدوام المعاشرة بين الزوجين، وفي المقابل استخدمت لفظة (التسريح) التي هي ضد الإمساك واستعيرت اللفظة للمفارقة بين الزوجين وهو الطلاق[2].

كما نجد الله سبحانه وتعالى قد قيد الإمساك بالمعروف خشية أن يكون القصد بالإمساك الإضرار بالزوجة، كما قيد التسريح بالإحسان الذي هو مراقبة الله في إعطاء حقوق المطلقة.

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم ألفاظا فيها الكثير من اللطف والإكرام للمرأة سواء في حال الإبقاء عليها أو حال تسريحها، فاستعمل حال الإبقاء عليها كلمة (المعروف) التي هي ضد المنكر، وهي كل ما

---

[1]– ابن هشام الأنصاري المصري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ص84.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسر التحرير والتنوير، مج1، ص407.

يستحسن من الأفعال وما تعرفه النفس من الخير، وهي بمعنى آخر حسن الصحبة مع الأهل ومع غيرهم من الناس[1]

أما (الإحسان) فهو ضد الإساءة، (والإحسان كما فسره الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام قائلا: ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).[2]

فالإحسان إذا هو المراقبة وحسن الطاعة، فمن راقب الله أحسن عمله[3]، ومن حسن عمله مع الله سبحانه وتعالى لا شك أنه سيحسن إلى جميع الخلق بإعطاء كل ذي حق حقه وبذل جميع المنافع للناس، وخاصة إذا كان هؤلاء الناس من أصحاب الحقوق كالمطلقة.

من خلال ما سبق، نلاحظ أن القرآن الكريم قد عبر عن فك الميثاق الغليظ الرابط بين الزوجين بأسلوب خبري ليعلم الناس كيف يمكنهم فك ذلك الميثاق الذي يربط بين الزوجين، واستعمل ألفاظا فيها من الدقة واللطف والرحمة، ووضع كل كلمة في مكانها المناسب لها، الذي لا يمكن لكلمة أخرى أن تقوم مقامها أو أن تؤدي معناها، حيث بدأ بالإمساك لأنه الأفضل في نظر الشريعة حفاظا على الترابط الأسري، ثم أعقبه بالتسريح حال عدم القدرة على مواصلة العيش بين الزوجين تحت سقف واحد، فالقرآن الكريم راعى شعور المرأة وإحساسها سواء حال الإمساك حيث قيده بالمعروف، فقال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي أن تكون الرجعة مرفوقة بحسن المعاشرة، وفي حال التسريح الذي قيده بالإحسان فقال ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحسَانٍ﴾ أي أن يكون الطلاق مصاحب بجبر الخاطر وأداء الحقوق.

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، ج9، مرجع سابق، ص155– 200.

[2]– البخاري، صحيح البخاري، ج1، طبعة جديدة منقحة، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، 2003، ص23.

[3]– ابن منظور، لسان العرب، ج13، مرجع سابق، ص117.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل العصمة بيد الرجل وأعطى له حق إنهاء الزوجية، فإنه لم يهمل حق الزوجة في طلب الانفصال عن الزوج إذا رغبت في ذلك وضاقت ذرعا بالعيش معه، ولم تعد تطيقه، رافضة البقاء معه تحت سقف واحد، فأعطاها حق (الخلع) وذلك بأن ترد على زوجها المهر الذي دفعه لها ويحكم لها القضاء بالفرقة[1]، خوفا من أن لا يقيما حدود الله التي هي أوامره ونواهيه مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[2].

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجا إن أريد بها الضرر، وهي لا تقبله ما داما قد خافا ألا يقيما حدود الله، فقد أذن لها أن تفتدي نفسها بشيء من مال[3].

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أنها نسيج منفرد في جماله، متكامل في بيانه، متناسق في ألفاظه، مؤد للمعنى المراد بدقة وإتقان، حيث بدأت الآية بقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، فالخوف هو توقع ما تكرهه النفس وهو ضد الأمن، وفي الحقيقة معناه الخشية، والمقصود به هنا الظن كما يقول ابن عاشور: "إن الخوف هنا بمعنى الظن... إذ الخوف لا يطلق إلا على حصول ظن المكروه"[4]، لأن الخلاف إذا بلغ مبلغه بين الزوجين ولم يتم الانفصال بينهما قد يحدث ما لا تحمد عقباه، ثم أعقبه الله بقوله: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

---

[1]– محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط4، 2005، ص121.

[2]– سور البقرة، الآية 229.

[3]– محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2006، ص151.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج1، مرجع سابق، ص409.

فالإقامة في الحقيقة هي الإظهار والإيجاد، فيقال أقام حدا للأرض، وهي هنا للعمل بالشرع تبعا لاستعارة الحدود للأحكام الشرعية، لأن الحدود في الأصل هي الفواصل بين الأراضي، ونقلت إلى معناها المجازي حتى لا يتعد أحد الزوجين هذه الحدود، ثم أعقبها بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، حيث رفع عنهما الإثم معا، لأن باذل الحرام وآخذه سواء في الإثم، وقوله ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أنه يجوز حينئذ (الخلع) بمقابل من المال، وهو المهر بدليل ما جاء في حادثة جميلة بنت أُبَي ابن سلول(*)، والفداء في الأصل هو تقديم مال مقابل تحرير الإنسان من الأسر، واستعمل هنا لفك رباط الزوجية والتحرر منها على سبيل الاستعارة، [1] حيث كان هذا أول خلع في الإسلام.

من هذا نصل إلى أن الأسلوب القرآني فيه من حسن التعبير، وجمال التركيب، ودقة الترتيب، وبلاغة البيان، ما لا يمكن أن نجده في أسلوب آخر، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني شكلا ومضمونا.

وهكذا نجد الاسلام قد رسم أقوم السبل لعلاج مشاكل العلاقة بين الرجل والمرأة وصحح تلك النظرة الدونية الخاطئة لها في جاهلية ما قبل الاسلام، والتي ما زالت بعض مخلفاتها سارية إلى وقتنا الراهن، إما جهلا بالدين أو لتمكن تلك العادات في نفوس بعض المسلمين، إضافة إلى ذلك هناك جاهليات مستحدثة في عصرنا تمارس على المرأة وأصبحت سلوكا يوميا يمارس ضدها دون أن تشعر به، بل ربما وافقت عليه دون أن تدرك كنهه وفي ذلك يقول محمد مرهف حسين: "فكم

(*)– جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، كانت عند ثابت بن قيس فنشزت عليه، فأرسل إليها النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها يا جميلة ما كرهت من ثابت؟ قالت والله ما كرهت منه دينا ولا خلقا، إلا أني كرهت دمامته، فقال لها: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فردت الحديقة وفرق بينهما. – أنظر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، مرجع سابق، ص462.

(1)– نفس المرجع، ص413–416.

من جاهليات حديثة اخترقت صفوفنا رجالا ونساء كبارا وصغارا وغدت عادات وأخلاقا نتحلى بها دون أن نحاول الابتعاد عنها".[1]

فعلا إن المتأمل في بعض السلوكات الممارسة على المرأة اليوم من بعض الرجال يجد أنها لا تختلف عن تلك العادات المجحفة في حق المرأة في الجاهلية إلا في شكلها، أم مضمونها فهو نفسه، فقد عادت بشكل مقنع بحيث تظهر الإحسان للمرأة وهي في حقيقتها تضمر الإساءة إليها دون أن تدرك المرأة ذلك.

من هذا نصل إلى أن القرآن الكريم هو التشريع الرباني الوحيد الذي أعطى للمرأة حقوقا لم تكد تحلم بها امرأة في الوجود، ورفع من شأنها وقيمتها، وسوى بينها وبين الرجل في الانسانية، ولم يميز بينهما إلا بالتقوى، والقرآن الكريم لم يغفل عنها حتى في جاهلية ما قبل الإسلام بل كان حضورها مكثفا وبارزا إذ ذكر الأذى الذي يلحقه بها الرجل وحرمه وأظهر فساده، لذلك أعطى بدائل لمعاملة المرأة معاملة إنسانية عادلة.

[1]– محمد مرهف حسين، تأملات في المرأة بين الأصالة والمعاصرة، دار وحي العلم، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 131.

الفصل الثاني

المساواة بين الرجل والمرأة

في القرآن الكريم

نظرة الإسلام للمساواة في القرآن الكريم

إن الدارس للقرآن الكريم سوف يلاحظ شموليته في ذكر جميع مخلوقاته من أصغر ذرة في الوجود إلى أعظم شيء فيه، والمرأة واحدة من هذه المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، وقد منحها الله سبحانه وتعالى حيزا كبيرا، وخصها بحديث مستفيض في كتابه الكريم في جميع مجالات الحياة، ولم يفرق بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين، فكانت نظرة الإسلام من خلال القرآن الكريم للمرأة نظرة عادلة؛ لأن رب العزة الذي خلق الرجل والمرأة ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾[1]

يعلم أنهما جنسان مختلفان من حيث الذكورة والأنوثة، فهما مختلفان في الوظائف متفقان في التكاليف، وعلى هذا الأساس عامل كل واحد منها، فعدل بينهما في الوظائف المنوطة بكل واحد منهما، وساوى بينهما في التكاليف وفي الجزاء على ما كلفوا به من أعمال.

و لهذا نجد الله سبحانه وتعالى قد ساوى بينهما في كثير من الأحكام التي تستوجب ذلك، كالجزاء على الأعمال الصالحة أو الأعمال الفاسدة، فيجازي كل على قدر عمله دون تمييز بين ذكر أو أنثى، وأهم أنواع المساواة التي ذكرها القرآن الكريم هي:

[1]– سورة النجم، الآية 45.

1- المساواة في الجزاء على الأعمال:

إن المتدبر في الآية الكريمة من قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

فالآية الكريمة توضح أن الأعمال لا تقاس بالذكورة أو الأنوثة ولكن تقاس بنوعيتها، إن كانت سيئة فالله جل شأنه يجازي بمثلها دون نقص أو زيادة، وإن كانت صالحة سواء أكانت صادرة من ذكر أو من أنثى وكان صاحبها مؤمنا: أي يشترط في قبول الأعمال الصالحة الإيمان بالله، فالله يكرمه ويضاعف له الجزاء ويمنحه على ذلك الجنة بغير حساب. وهذا الجزاء الأوفر لا يقوم به إلا رب كريم رحيم جواد.

و في تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن عاشور، "من" في قوله ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ شرطية ومعنى إلا مثلها؛ المماثلة في الوصف الذي دل عليه اسم السيئة وهو الجزاء السيء؛ أي لا يجزى عن عمل السوء بجزاء الخير، أي أنهم لا يطمعون أن يعملوا السيئات وأنهم يجازون عنها جزاء خير، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

فالإيمان هو أس هيكل النجاة ولذلك كان الكفر أس الشقاء الأبدي، ثم يرى أن دخوله الجنة لا يكون إلا لمن عمل الصالحات ولم يعمل السيئات بقرينة تقابلية

[1]- سورة غافر، الآية 40.

لقوله ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾، أما إن خلط المؤمن بين العمل الصالح والسيئ فالمقاصاة.[1]

صحيح أن دخول الجنة لا يكون مجانا ولكن رحمة الله هي أكبر من عمل الصالحات ومن عمل السيئات؛ لأن أكثر الناس يخلطون العمل الصالح بالعمل السيئ فيعاقب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2] ثم يقول ابن عاشور أن المراد بقوله تعالى ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ بيان لما في (مَنْ) من الإبهام من جانب احتمال التعميم فلفظ " ذكر وأنثى" عموم الناس بذكر صنفيهم على إرادة العموم، وليس المقصود به مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال "إذ لا مناسبة له في هذا المقام".[3]

إذا كان ابن عاشور يرى أن المقصود هنا ليس المساواة في الجزاء على الأعمال بين الذكور والإناث، أليس هذا إجحاف بحق المرأة وظلم لها والله جل شأنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولا يجوز ذلك في حقه تبارك وتعالى العادل الحق.

وإذا تدبرنا الآية الكريمة ندرك دقة التعبير القرآني، فهو حين ذكر الأعمال السيئة استعمل اسم الشرط "مَنْ" التي تدل على مبهم، أي كل من عمل السوء ذكرا كان أو أنثى فلم يفرق بينهما في الجزاء يكون من جنس العمل وبمقداره دون تفصيل في العقوبة ونوعها وشكلها، لكن عندما ذكر الأعمال الصالحة، ذكر الذكور والإناث تنصيصا دون تمييز بينهما ثم جاء بحرف الجر (مِنْ) ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج24، مرجع سابق، ص151.

[2]– سورة الزمر، الآية 53.

[3]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج14، المرجع السابق، ص151.

أُنثَى﴾ التي تفيد بيان الجنس [1]، ليبين أن من يأتي بالأعمال الصالحة من جنس الذكور أو من جنس الإناث، وليس العمل الصالح مقتصرا على الذكور فحسب دون الإناث، ثم فصل بعد ذلك في نوع الجزاء الذي ينتظر أصحاب الأعمال الصالحة ذكورا أو إناثا، فهي الجنة يدخلونها يرزقون فيها بغير حساب، وهي كناية عن سعة الرزق، لأن الله وحده من يملك مفاتيح الأرزاق، فيرزق من يشاء بغير حساب، وخزائنه لا تنقص بالعطاء، ولا تنفد على مر الزمان.

كما نلاحظ أنه جاء باسم الإشارة "أولئك" للتنبيه على أن المشار إليه يستحق ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من الأوصاف وهي عمل الصالحات مع الإيمان.[2]

وفي نفس المعنى يبين الله تبارك وتعالى أن الجزاء على الأعمال الصالحة يكون من جنس العمل للذكور والإناث على حد سواء وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.[3]

في هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى أنه يدخل الجنة وينعم بها من يعمل من الصالحات من ذكور عبادي وإناثهم وهو مؤمن بي وبرسولي محمد صلى الله عليه وسلم مصدق بوحدانيتي وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عندي ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، والله لا يظلم هؤلاء الذين يعملون الصالحات من ثواب عملهم مقدار النقرة التي تكون في ظهر النواة في القلة، فكيف بما هو أعظم

---

[1]– بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، 2005، ص12.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج14، مرجع سابق، ص151.

[3]– سورة النساء، الآية 124.

من ذلك وأكثر، وإنما يخبر بذلك جل ثناؤه عباده أنه لا يبخسهم من جزاء أعمالهم قليلا ولا كثيرا، ولكن يوفيهم ذلك كما وعدهم[1].

فالآية الكريمة تبين بوضوح أن لا فرق في الجزاء على الأعمال الصالحة المقرونة بالإيمان بين الذكر والأنثى، وأن الله سبحانه وتعالى لا يبخس أحدا حقه في الجزاء على عمله الصالح، ذكرا كان أم أنثى وفي ذلك يقول محمود شلتوت "إن هذه الآية الكريمة قررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة، وأن مسئوليتهن عن أعمالهن مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، فهي إنسان مكلف مسئول، والرجل إنسان مكلف مسئول"[2] فالله سبحانه وتعالى قد ساوى بين الذكر والأنثى في الجزاء على العمل الصالح.

و المتأمل في هذه الآية الكريمة يدرك بيان التعبير القرآني ودقته، حيث استعمل فعل المضارع "يفعل" وهو فعل الشرط الذي يدل على الحال والاستقبال فهو يفيد الاستمرار والدوام إلى يوم القيامة. ففعل الخير لا يتوقف عند زمن معين، فكل من يفعل الخير يكون جزاءه الجنة، ثم قال ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل ومن يعمل الصالحات" ذلك لأن الله تبارك وتعالى يعلم أن عباده المؤمنين لن يطيقوا أن يعملوا جميع الأعمال الصالحة، فأوجب وعده لمن عمل ما أطاق منها، أو يكون الله تعالى أوجب لمن أجتنب الكبائر وأدى الفرائض وإن قصر في بعض الواجبات تفضلا منه على عباده المؤمنين[3]، ثم قال ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ليفصل ويبين أن الأعمال الصالحة سواء أصدرت من ذكر أو من أنثى مقترنة بالإيمان فجزاؤها واحد وهو الجنة دون تمييز بين الجنسين ثم جاء بلفظه (نقيرا) وهي أصغر شيء لا يكاد

---

[1]– أبو جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج5، مرجع سابق، ص297.

[2]– محمود شلتوت، تفسير القرآن العظيم، ج1– ج10، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط10، ص 170.

[3]– ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عند تأويل القرآن، ج5، ص397.

يرى ورغم ذلك فالله جل شأنه لا ينقص صاحب العمل الصالح حقه مهما بلغ من القلة والصغر، وهذا من رحمة الله بخلقه جميعا ذكورا وإناثا، وفي هذا التعبير دقة التصوير وقوة التأثير، مما يدل على قوة الذي صدر منه وعلى عدله.

وفي المعنى نفسه يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1]

في هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى أن الجزاء يكون من جنس العمل دون مفاضلة بين ذكر أو أنثى، فالمفاضلة أساسها الأعمال الصالحة المقرونة بالإيمان بالله وبرسوله وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء يجزون حياة طيبة هنيئة في الدنيا، وفي الآخرة يجزون الجزاء الأوفر أحسن مما كانوا يعملون في الدنيا، كما قيل أن الحياة الطيبة هي الرزق الحلال في الدنيا والقناعة والرضى بما قسم للإنسان ولنجزينهم أجرهم في الآخرة[2].

وإذا تديرنا هذه الآية الكريمة سندرك مطابقة جمال الشكل مع جمال المضمون. فجاء بلفظه "صالحا" في قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ نكرة، والنكرة تفيد العموم، مهما كان نوع العمل الصالح أو شكله أو كثرته أو قلته، ثم بعد ذلك فصّل وبين أن هذا العمل سواء أكان صادرا من ذكر أو أنثى حتى لا يظن البعض أن هذا مقتصر على الذكور فحسب، وهذا من بلاغة القرآن وعدل الرحمان، ثم أعقبه بقوله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهي جملة اسمية جاءت في موقع الحال[3] ليبين أن قبول الأعمال يشترط فيها الإيمان، والجمل الاسمية تفيد الثبات والاستمرار، أي أن

---

[1]– سورة النحل، الآية 96.

[2]– أبو يحيى بن صمادح التجيني، مختصر تفسير الطبري، دار الفجر الإسلامي، دمشق، ط6، 1991، ص278.

[3]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص270.

صاحب الأعمال الصالحة ثابت على الإيمان. وبعد العمل الصالح المقرون بالإيمان يأتي الجزاء الأوفر، فقال ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالجزاء ليس بالمثل بل بأحسن من ذلك وهي صيغة تفضيل تفيد بأن رب العزة كريم جواد.

و بهذا نجد جمال هذا اللفظ لا يقل عن جمال المعنى الذي لا يصدر إلا عن عليم بليغ يضع كل كلمة في مكانها اللائق بها بدقة وإتقان.

ومن مظاهر المساواة بين الذكور والإناث في الأجر على العمل الصالح دخول الجنة وذلك مصدقا لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى أنه استجاب لعباده الداعين له، بأنه لن يضيع عمل أي عامل منهم، ذكورا كانوا أم إناثا على حد سواء، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي من أصله أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم[2]، وما دمتم متحدين فلا يمكن الفصل بينكم في الجزاء والثواب، بل يوفى كل عامل بقسط عمله فبعضكم

[1]– سورة آل عمران، الآية 195.

[2]– الزمخشري، تفسير الكشاف، ج1، مرجع سابق، ص222.

من بعض؛ أي جميعكم في ثوابي سواء [1]، فالرجال والنساء شركاء فيما وعد الله به عباده الذين يعملون الصالحات بحسن الأجر والثواب.

و إذا عرفنا سبب نزول هذه الآية الكريمة كما رواها (ابن كثير) في تفسيره، فلا نعجب في أمر المساواة في ذكر الرجال والنساء معا دون مفاضلة حيث يقول: "أن أم سلمة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله هذه الآية وبين أن الذين هاجروا وتركوا دار الشرك وجاءوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب، والإخوان، والخلان، والجيران، وأُخرجوا من ديارهم بمضايقات المشركين لهم وأوذوا في سبيل الله لأنهم آمنوا بالله وحده، والذين قاتلوا وقتلوا في سبيل الله فجزاؤهم أن يُكفِّر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار وذلك ثوابا من عند الله[2].

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد عبر بأسلوب جمع فيه بين الجمال اللفظي، والجمال المعنوي، حيث نجد أن الله تبارك وتعالى عندما استجاب لعباده قائلا ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ فبدأ بأداة التوكيد (أنَّ) ليزيل أي شك في مفاضلة الله لبعاده في الجزاء على الأعمال الصالحة بين الذكور والإناث، ثم فصّل الأمر أكثر لتتضح الصورة للقارئ بأن لا مفاضلة بينهما، فقال ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ثم أوضح الفكرة أكثر فقال ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي الرجال من النساء والنساء من الرجال فلا يمكن التفريق بينهما[3] في مجال الجزاء على الأعمال.

---

[1]– أبو الفداء إسماعيل بن كثير القريشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي بيروت، ط2، المجلد2، ص171.

[2]– أبو الفداء إسماعيل بن كثير القريشي، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ص172.

[3]– أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير من كلام العلي القدير، مكتبة لينا، دمنهور، مصر، ط1، 2002، ص204.

فهذا النص صريح في ذكر مساواة الرجل والمرأة عند الله، بحيث لا يزهو الرجل بقوته ورئاسته، فيضن أنه أقرب إلى الله من المرأة، أو تتوهم هي أن الرجل أرفع منها فتشعر بالدونية والهوان؛ لأن بعضهم من بعض، لا فرق بينهما في الخصائص الإنسانية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال[1].

كما نجد الآية الكريمة تحتوي على مجموعة من الصيغ التعبيرية البديعية التي أعطت للآية نغما جميلا محببا للنفس ومشوقا للقراءة كالطباق في قوله ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ والجناس في قوله ﴿عَمَلَ عَامِلٍ﴾ وقوله ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ وفي قوله ﴿قَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وفي قوله ﴿ثَوَابًا﴾ و﴿الثَّوَابِ﴾.

فهذه الأساليب البديعة زادت التعبير إيضاحا مضافا إليه الإيقاع النغمي الجميل لهذه المحسنات البديعية الجميلة،

و إذا دققنا النظر أكثر وأمعنا الفكر في هذه الآية نجد الله سبحانه وتعالى عندما ذكر (الذكر والأنثى) وهما جنسان مختلفان استعمل حرف العطف (أو) التي تفيد الجمع بينهما في الأعمال الصالحة المقرونة بالإيمان، فاستعملت (أو) بمعنى الواو (و) [2]، ثم وضح هذا المعنى الذي يجمع الطرفين وهو أكثر من الأعمال، وهو الأفضل فقال ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ فالمرأة من الرجل، والرجل من المرأة، والكل يعود إلى أصل واحد وهو آدم وأدم من تراب إذاً فالمساواة تامة بين الاثنين.

وفي المساواة بين الذكور والإناث نجد الله سبحانه وتعالى لم يفرق بين المؤمنين والمؤمنات في الوعد بالجنة وذلك في قوله تعالى:

---

[1]– حميدة النيفر، النص الديني والتراث الإسلامي، قراءة نقدية، دار الهادي، بغداد، ط1، 2004، ص296.

[2]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، تحقيق عمر الأسعد، مج1، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995، ص195.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]

في هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى صفات المؤمنين ذكورا أو إناث فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، يعملون هذا طاعة لله ورسوله وهؤلاء المذكورون سيرحمهم الله، ثم يبين أن جزاء أهل الإيمان ذكورا أو إناثا في الدار الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار وفيها مساكن طيبة وذلك هو النجاح والفوز العظيم.[2]

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يدرك أن القرآن الكريم عبر عن هذه المساواة بين المؤمنين والمؤمنات بصيغ بلاغية متنوعة تحتوي على مجموعة من الثنائيات التقابلية التي تعطي المعنى جمالا ووضوحا كما في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ففيها مقابلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم جاء بالأفعال المضارعة يقيمون الصلاة ويؤتون زكاة ويطيعون الله ورسوله، مرتبة حسب أهميتها، كما تفيد الاستمرارية في أداء هذه الأعمال، ثم جاء باسم الإشارة "أولئك" لأن هؤلاء المؤمنين والمؤمنات يستحقون أن يشار إليهم لما لهم من قيمة عند الله سبحانه وتعالى ثم ختم هذه الآية بصيغتي مبالغة (عزيز حكيم) أي عظيم العزة والحكمة؛ لأنه لو لم يعدهم لما حكم بالرحمة، بل وعدهم

[1]– سورة التوبة، الآية 72.

[2]– أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير من كلام العلي القدير، مرجع سابق، ص491.

بجنات تجري من تحتها الأنهار، فجاءت لفظة "الجنات" جمعاً لأن الجنات مختلفة ومتعددة، وفي ذلك يقول عبد الفتاح لاشين "إن لفظة (الجنة) في القرآن جاءت مفردة ومجموعة، بينما النار لم تأت إلا مفردة، وهذا يعود إلى أن الجنات مختلفة حسن جمعها وإفرادها أما النار فهي مادة واحدة أفردت باعتبار الجنس، ولما كانت النار تعذيبا، والجنة رحمةً ناسب جمع الرحمة وإفراد العذاب"[1]

و عطف ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ على جنات للدلالة على أن لهم في الجنات قصورا ومساكن طيبة، أي ليس فيها شيء من خبث المساكن، كما نجد الحق تبارك وتعالى ذكر جنات عدن[*] بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنن في التعبير للتنويه بالجنات، ولذلك لم يقل ومساكن طيبة فيها.[2]

و ختمها بقوله ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فجاءت "رضوان" نكرة للإشعار بالتعظيم، فإن رضوان الله تعالى عظيم، وهذا الرضوان ليس كبير فقط، بل أكبر فهو تفضيل لم يذكر معه المفَضّل عليه لظهوره من المقام أي أكبر من الجنات، وذلك هو الفوز العظيم.

و بعد هذا التحليل يتبين لنا أن هاتين الآيتين عبارة عن شحنة من الصور والتعابير الفنية الراقية، التي عبرت عن المساواة بين المؤمنين والمؤمنات وأن بعضهم أولياء بعض "للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم

---

[1]– عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير القرآني، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر والتوزيع، الرياض ص147.

[*]- العدن الخلد والاستقرار المستمر، وجنات عدن أي جنات استقرار واطمئنان، أنظر: أمين الخولي، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج4، 1996، ص200.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج10، مرجع سابق، ص264–265.

فيها على السواء ليس واحد منهم مقلدا للآخر أو تابعا له على غير بصيرة، لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر"[1]

وفي سياق المساواة بين المؤمنين والمؤمنات بدخول الجنة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

إن هذه الآية الكريمة توضح أن لا فرق بين المؤمنين والمؤمنات في الجزاء حيث يدخلهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويذهب عنهم سيئاتهم وذلك هو الفوز العظيم، أي الظفر بالخير والنجاح.

"وذكر الله المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختص بالرجال"[3]

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجدها كما يقول: ابن عاشور جاءت بصيغة الجمع المذكر مع ما قد يؤكد هذا التوهم من وقوعه علة للفتح وللنصر وللخلود وكلها من ملابسات الذكور، وإنما كان للمؤمنات حظ في ذلك لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممن يقمن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال، ومن صبر بعضهن على الثكل أو التأيم، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذي القرابة[4]

و إذا أمعنا النظر في الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى جمع في إدخال الجنة المؤمنين والمؤمنات، بواو العطف التي تفيد الجمع، ثم جاء بلفظتي المؤمنين

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج10، مرجع سابق، ص262.

[2]– سورة الفتح، الآية 5.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج26، المرجع السابق، ص152.

[4]– المرجع نفسه، ص152.

والمؤمنات" معرفتان باللام الجنسية لتدل على الماهية والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان[1]، فالتعريف قد حصر وخصص هذين النوعين من الذكور والإناث بدخول الجنة دون تميز بينها

كما نجد بعد هذه المفردات المعرفة بـ (ال) الجنسية جاءت لفظة "جنات" نكرة والنكرة تفيد التعميم والشمول: أي أن هذه الجنات تشمل المؤمنين والمؤمنات، كما أنها جاءت بصيغة الجمع، والجمع في الأصل يفيد الكثرة فهي ليست جنة واحدة بل جنات كثيرة ومتعددة، تعم المؤمنين والمؤمنات، كما أن التنكير قد رسم جواً روحيا رحيبا فهي جنات كثيرة لا تتصور، ثم جاء باسم الإشارة "ذلك" للبعيد وذلك لعلو المنزلة التي أنزلهم الله إياها وهي الجنة؛ لأن المشار إليه وهو المذكور من إدخال الله لهم الجنة والمراد بإدخالهم الجنة، إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين وليس هو الإدخال الذي استحقوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخرى ولذلك عطف عليه ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

كما أن الله تبارك وتعالى ختم هذه الآية بقوله ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ حيث قدم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ على متعلقه ﴿فَوْزًا﴾ أي فازوا عند الله، بمعنى لقوا النجاح والظفر في معاملة الله لهم بالكرامة وتقديمه على متعلقه للاهتمام بهذه المعاملة ذات الكرامة.[2]

من هذا نخلص إلى أن أسلوب الآية الكريمة قد جمع بين التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والإشارة للتنبيه إلى ما ينتظر المؤمنين والمؤمنات من نعيم مقيم لا ينفد ولا يبلى، فكان هذا التعبير المتنوع عبارة عن لوحة فنية متنوعة تسترعي

[1]– بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص292.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج26، مرجع سابق، ص152.

انتباه القارئ والسامع على السواء لما اشتملت عليه من تعابير بالغة الدقة والإتقان والتي لا تصدر إلا من رب عليم عظيم حكيم.

فالآية الكريمة قد رسمت لنا مشهد الجنة ولها أبواب وفيها أنهار تجري حيث نرى المياه متحركة في جريانها ونسمع صوت خريرها ولون صفائها، كما نرى لون الجنات الخضر التي تكون مستقرا للمؤمنين والمؤمنات بعد أن كفر الله عنهم سيئاتهم في الآخرة، كما نرى مشهد المؤمنين والمؤمنات وهم في حركة دخولهم الجنة.

فالمشهد رسم صورة باللون والحركة والصوت، لأن راسمها هو مبدع الكون حيث جمعت بين كل عناصر الصورة.

و في نفس سياق المساواة في البشرى بالجنة للمؤمنين والمؤمنات قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[1]

إن هذه الآية الكريمة تبين أن الثواب بجزيل العطاء وإعطاء الأجر يكون يوم الجزاء، والخطاب في قوله ﴿تَرَى﴾ لغير معين... أي يوم يرى الرائي والرؤية بصرية، ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي حظوظ النساء مساوية لحظوظ الرجال إلا فيما خصصن به من أحكام قليلة لها أدلتها الخاصة وذلك لإبطال ما عند اليهود من وضع النساء في حالة ملعونات ومحرومات من معظم الطاعات.[2]

---

[1]– سورة الحديد، الآية 12.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج27، مرجع سابق، ص379.

و يقول ابن عاشور "أن النور المذكور هنا نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين في سيرهم من مكان الحشر إكراما لهم وتنويها بهم في ذلك المحشر"[1] وأن الله سبحانه وتعالى يخلق لهم نوراً يمشي بين أيدهم وبأيمانهم وتبشرهم الملائكة بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو النجاح العظيم لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات، فالإيمان أس النجاح للإنسان في الآخرة.

و المتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن الآية السابقة إذ كلا منهما تشتمل على جزاء المؤمنين والمؤمنات بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم، إلا أن المتمعن يدرك أن لكل آية خصوصيتها، فالأولى يكون دخول الجنة فيها بصحبة تكفير السيئات أما هذه فدخول الجنة سبقته البشرى مع إعطائهم نورا يمشي بين أيديهم وبإيمانهم.

كما نلاحظ أن القرآن الكريم عبر عن هذه المساواة بين المؤمنين والمؤمنات ذكورا وإناثا بهذا التفصيل حتى لا يتوهم واهم أن هذا الجزاء للذكور فقط وعطف المؤمنات على المؤمنين بحرف " الواو" التي تفيد الجمع بينهما في البشرى بالجنة والخلود فيها، ثم جاء بعد هذا بلفتة جمالية في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ حيث شبه النور الذي يهتدي به المؤمنين والمؤمنات بإنسان وحذف الإنسان ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو السعي أي المشي على سبيل الاستعارة المكنية لأن النور كما يقول ابن عاشور " يسعى نورهم حين يسعون: فحذف ذلك لأن النور يسعى إذا سعى صاحبه وإلا انفصل عنه وتركه[2] بل يسير مع سيرهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وذكر الأيمان لأن المؤمنين يحملون كتبهم يوم القيامة

[1]– المرجع نفسه، ص380.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج27، مرجع سابق، ص280.

بأيمانهم وقد ذكرهم الله سبحانه وتعالى قائلا: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[1].

كما أن الله تبارك وتعالى خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين؛ لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، والباء في قوله ﴿بِأَيْمَانِهِمْ﴾ إما للملابسة فيكون النور الملابس لليمين هو نور كتاب الحسنات أو تكون الباء بمعنى (عن) أي عن أيمانهم واقتصر على ذكر الأيمان تشريفا لها[2]، ثم نجد القرآن الكريم عبر بإخبار هؤلاء المؤمنين والمؤمنات بما ينتظرهم وهي الجنة، فاستعمل لفظه البشرى لأن البشرى تدل على الإخبار بأمر فيه مسرة، فلفظة البشرى تحمل شحنة من المعاني الدالة على الفرحة والسرور والبهجة وكل معاني الغبطة.

و لم يقتصر الله سبحانه وتعالى بتبشيرهم بالجنة فقط بل أضاف إليها شيئا آخر زاد التعبير جمالاً ورونقا كما زاد المؤمنين فرحة وسرورا فقال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فقد أضفت للتعبير القرآني جمالا من نوع آخر، لأنهم لو دخلوا الجنة وخرجوا منها لكان سرورهم أقل ولما اكتملت فرحتهم ولكن لفظة (الخلود) أتمت البشرى وأحسنت المقام، وبعدها جاء باسم الإشارة "ذلك" للبعيد وهي تفيد التنبيه والتعظيم[3]، أليس دخول الجنة والخلود فيها فوزا عظيما؟.

و هذا الأسلوب القرآني المتنوع الذي لا نجد فيه حرفا ولا كلمة ولا جملة ولا صورة إلا نطقت بنفسها عن هذا الإعجاز البلاغي وهذا الجمال الفني الذي لا

---

[1]– سورة الواقعة، الآية 27.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج27، المرجع السابق، ص380.

[3]– ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ج27، مرجع سابق، ص181.

يصدر إلا من رب عليم حكيم بليغ، لا يضع حرفا ولا لفظا ولا جملة إلا حيث ينبغي أن يكون بكل دقة وإتقان.

2-المساواة بين الرجل والمرأة في الأمر والنهي

وفي المساواة بين الرجال والنساء في الأمر والنهي دون مفاضلة أو تميز يقول عز من قائل مخاطبا سيدنا آدم وأمنا حواء: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]

إن هذه الآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى لم يفرق بين خلقه ذكورا أو إناثا فالأوامر والنواهي، كانا على حد سواء بين سيدنا (آدم) أبو البشر وأول خلقه، وأمنا (حواء) حيث نجد الله سبحانه وتعالى أمرهما معا بسكنى الجنة، والأكل منها أي الأكل من خيراتها، والجنة التي أُمرا بسكناها والأكل منها رغدا هي دار الثواب وهي في العالم العلوي عالم الغيب وقد أعدها الله لأهل الخير بعد القيامة[2]، إلا أن صاحب النهر المادي يقول: "قد تكون هذه الجنة على الأرض"[3] ولكن يبدو لي أنها لو كانت على الأرض لما أمرا بالهبوط منها بعد أن أزلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي نهاهم الله عن الأكل منها بعد أن حددها لهما، وأشار إليها فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، مبالغة في النهي عن الأكل، لأن النهي عن قرب الشيء أأكد من النهي عن الشيء[4]، لكن الشيطان عدو الإنسان الأول قد أزلهما

---

[1]- سورة البقرة، الآية 35-36.

[2]- ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ج1، مرجع سابق، ص430.

[3]- أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، ج1، مرجع سابق، ص62.

[4]- أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، ج1، مرجع سابق ، ص61.

بواسطة الوسوسة فعصيا أمر الله فأكلا من الشجرة وظلما نفسيهما بمخالفة أمر الله، فأبعدهما الشيطان وأذهبهم عن الجنة وما كان فيها من النعيم[1] وقد يكون المقصود أنه أزلهما عن الشجرة لأنها أقرب فيكون الضمير في قوله عنها عائدا على الشجرة[2]

و بعد مخالفتهما لأمر الله كان جزاؤهما أن يخرجا من النعيم الدائم وطيب العيش فأمرهما الله عز وجل بالهبوط إلى الأرض حيث شظف العيش وعداوة البعض للبعض، فيها مستقر إلى وقت حدده الله سبحانه وتعالى، والأمر بالهبوط كان بصيغة الجمع لأن الأمر كان يشمل كلا من آدم وحواء والشيطان وقيل والحية أيضا (و الصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما لأنهما أصل الإنس فجعلا كأنهما الإنس كلهم)[3]

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أنها خاطبت آدم وحواء فجاءت في مجملها بصيغة المثنى في الأمر وفي النهي فقد بدأت بقوله تعالى ﴿وَقُلْنَا﴾ بصيغة الجمع للتعظيم، والتعظيم أدعى لامتثال الأمر والنهي من غير تراخ، والله المعظم نفسه يستحق هذا التعظيم لأنه الخالق الرزاق، ومن يفعل هذا له الحق في الأمر والنهي، ثم خاطب آدم وعطف على ذلك بحواء مناديا إياهما بحرف النداء "يا" التي ينادى بها البعيد، وذلك لتنبيههما بما سيؤمران به من سكنا الجنة والأكل منها أكلا رغدا هنيا دون تحديد ما يأكلون أو حيث يأكلون فجعل لهما متسعا في ذلك، إلا أن الله تبارك وتعالى قد استثنى من الجنة شجرة واحدة وقد حددها لهما فقال ناهيا عن قربها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فكان النهي بصيغة المثنى أي

---

[1]– الزمخشري، تفسير الكشاف، ج1، مرجع سابق، ص273.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، مرجع سابق، ص433.

[3]– أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1977، ص274.

لآدم وحواء وزيادة في النهي والمبالغة فيه قال ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ ولم يقل "لا تأكلا" لأن النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ[1]

كما نلاحظ أن لفظتي "الجنة" و"الشجرة" كليهما جاءت معرفة؛ لأن الجنة عرفها الله لآدم وحواء، والشجرة عينها لهما وخصصها بالإشارة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ثم أنظر لهذه الدقة في تصوير الخطيئة تصويرا بديعا فقال ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ والزلل جاء بصيغة المثنى أي لآدم وحواء وأصل الكلمة أن تزل القدم أي أن تنزلق[2] وتخرج عن مسارها ثم استعمل في كل ما هو خاطئ، والكلمة مطابقة تماما لهذا المعنى لما فيها من الخروج عن المسار الذي رسمه لهما رب العزة فأكلا من الشجرة الممنوعة، فهو تعبير مجازي بليغ صور تلك اللحظة السريعة من الأبعاد والإخراج من الجنة، بحيث لا يمكن أن نجد لفظة تعبر بهذه الدقة عن هذه الصورة المرسومة أمامنا بالكلمة، ثم جاء بتعبير ابلغ في الدلالة على عظم الخيرات التي اخرجوا منها فقال ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فجاء بتعبير مبهم في قوله "مما كانا فيه"، ولم يقل من النعيم أو الخيرات، حيث نجد أن "من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم لتذهب نفس السامع من تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكن أن تذهب إليه"[3] ثم جاءت خاتمة الآية بأمر فيه وقع قاس على النفوس؛ لأنه يحمل معنى المهانة لبني آدم وذلك لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، فالهبوط يعني النزول من الأعلى إلى الأسفل، كما أن اختيار لفظة الهبوط بدل النزول؛ لأن فيها غلطة وحدة

(1)– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط2، 2004، ص22.

(2)– ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ج1، مرجع سابق، ص433.

(3)– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص22.

وخاصة أنها جاءت بصيغة الأمر، وهذا جزاء من يتخذ الشيطان ناصحا ويستمع إلى نصحه فيتعب ويشقى، مصداقا لقوله تعالى ﴿فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[1]

و في نفس المعنى الذي ساوى فيه الله بين المؤمنين والمؤمنات في الأمر والنهي قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]

إن هذه الآية الكريمة توضح أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يأمر المؤمنين والمؤمنات على السواء بغض البصر عما حرم الله عليهم دون تميز بين الذكور والإناث من المؤمنين والمؤمنات، فكلاهما مأمور بكف بصره عن المحرمات، لأن البصر هو البوابة إلى كل الشرور المحرمة، إذ قدم الله غض البصر على حفظ الفرج، لأن النظر هو رائد الزنى كما يقول ابن عاشور

[1]- سورة طه، الآية 117.

[2]- سورة النور، الآية 30- 31.

"فالأمر بغض البصر أدب شرعي عظيم لمباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبرا شديدا عليها"[1]

و بعد أن أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج، فصّل بعد ذلك في تكليف المرأة بأمور ليحفظها حتى لا تكون فريسة لكل من هب ودب، وجمعها القرآن الكريم في لفظة " الزينة" بقوله ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ واستثنى منها ما كان ظاهرا ويصعب إخفاؤه، مما كان موضعه مباح إظهاره كالوجه واليدين والقدمين حيث تجد المرأة في ستره المشقة والحرج كما يقول بن عاشور: "واستثنى ما ظهر من الزينة وهو ما في ستره مشقة على المرأة أو تركه حرج على النساء وهو ما كان من الزينة في مواضع العمل التي لا يجب سترها مثل الكحل والخضاب والخواتم"[2]، إضافة إلى رفع المشقة والحرج في إخفاء الزينة الظاهرة فيها أيضا مراعاة الله سبحانه وتعالى لرغبة المرأة في التزين بفطرتها الطبيعية فسمح لها بذلك في حدود المباح الذي يجعل المرأة تشعر بعدم التضييق عليها فيما فطرت عليه من حيث التجمل دون الإخلال بما حرم الله.

و بعد ذلك أمر الله سبحانه وتعالى النساء بضرب خمورهن على جيوبهن زيادة في الحفاظ عليهن بالتستر وإخفاء مواطن الزينة المحرمة ثم استثنى مجموعة من المحارم أو من كان في حكم المحارم، الذين يجوز للمرأة إظهار الزينة لهم، وقد ذكرتهم الآية الكريمة بالتفصيل.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الآيتين قد أمرت النساء بما أمرت به الرجال من غض البصر، والتحلي بالعفاف، والبعد عن كل ريبة أو شبهة.[3]

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص204.

[2]– المرجع نفسه، ص206.

[3]– محمد الغزالي وآخرون، المرأة في الإسلام، مكتبة أخبار اليوم الإسلامية، القاهرة، ص53.

فغض البصر وستر العورة وعدم إظهار الزينة ما هي إلا دعوة للأخلاق العامة لحفظ النفس من الوقوع في المحرمات، فالدعوة لحفظ النفس والتعفف مطالب بها الذكور والإناث على السواء.[1]

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف نلاحظ أنها عبرت عن المساواة في التكليف بغض الصبر، وحفظ الفرج، بين المؤمنين والمؤمنات، بأسلوب موجز مفيد إذ نجد فيه إيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لأن المراد غض البصر عما حرم الله لا عن كل شيء "فحُذف ذلك اكتفاء بفهم المخاطبين"[2] ولهذا نجد القرآن الكريم استعمل حرف الجر (من) التي تفيد التبعيض أي أن يكفوا أبصارهم عما حرم الله عليهم فقط، لا عن كل شيء، وهذا الحكم يتساوى فيه الرجال والنساء بدليل حديث أم مكتوم عن أم سلمة رصي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فدخل علينا فقال احتجبن فقلن يا رسول الله ألَيس أعمى لا يبصر؟ قال أفعميوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟[3]، كما نجد الله سبحانه وتعالى قدم (غض البصر) على (حفظ الفروج) "لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد".[4]

فالآية الكريمة كما نلاحظ تحمل من البلاغة المتعلقة بالأمر في أولها كثيرا من الدلالات فيها دخول (من) على الغض دون الفروج لسعة النظر وضيق

---

[1]– المرجع نفسه ، ص136.

[2]– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص204.

[3]– محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج3، ص230.

[4]– المرجع نفسه، ص230.

الخروج، ومنها تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج؛ لأن النظر بريد الزنى ورائده الذي لا يخطئ.[1]

كما نلاحظ بلاغة القرآن الكريم في استخدام الأفعال حيث نجد هذه الآية استخدمت الفعل المضارع في قوله (يغضوا ويحفظوا) (ويغضضن ويحفظن) الذي يدل على الحاضر والمستقبل، ليدل على أن هذا الأمر الثنائي ليس مقتصرا على زمن بعينه، بل يدل على الدوام والاستمرار، أي ليس مقتصرا على زمن النزول أو على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل الأمر بغض البصر وحفظ الفرج يظل مستمرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

وإذا أمعنا النظر في هذه الآية نلاحظ أن الألفاظ فيها منتقاة بشكل دقيق بحيث نجد كل لفظة فيها تصور المقصد منها، وليست عبارة عن وعاء لمعنى دقيق فحسب، وإنما هي مصدر صورة لها أبعاد وظلال وحياة"[3] فنجد لفظي " الغض" والحفظ" كلاهما تحمل مجموعة من المعاني التي ترسم صورة للحياء الذي يدفع إلى صون النفس ومنعها عن كل محرم. فالغض يحمل معنى الانكسار والمنع والقصر، وعدم التحديق فيما حُرم على المؤمن، و(الحفظ) تفيد معنى الرعاية والصيانة[4]، وفيها إشعار بالتستر والصون والمنع والتعفف، فهذه الألفاظ وما تحمله من دلالات متنوعة تعطينا صورة جميلة تدل على حياء صاحبها وإيمانه الذي يدفعه إلى صون نفسه وعرضه من الوقوع في المحظور لأن الحياء من الإيمان.

---

[1]– مختار عطية، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم دراسة بلاغية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ص247.

[2]– مختار عطية، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص203.

[3]– بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، ص185.

[4]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج2، مرجع سابق، ص96.

فهذه الآية تعطينا أحكاما خاصة مما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمنين والمؤمنات في الحياة إلا أنها في الوقت نفسه كانت لوحة فنية جميلة معبرة بدقة وإتقان عن العفة بأسلوب إنشائي بتراوح بين الأمر والنهي والإيجاز والإطناب مراعيا حال المؤمنين والمؤمنات حتى يستقيم حالهم ومآلهم.

3- المساواة في الوعيد بين الذكور والإناث " المنافقين والمنافقات"

ومن مظاهر المساواة بين الذكور والإناث التي ذكرها القرآن الكريم، صورة (النفاق) الذي يعتبر من السلوكيات الخاطئة المذمومة التي توعد الله أصحابها عذابا شديدا، لأنها تجعل أصحابها يعيشون بشخصيتين متناقضتين، حيث يظهرون، خلاف ما يضمرون، فينخدع فيهم الناس، وهم يخدعون أنفسهم وهم لا يشعرون؛ لأن المنافقين كما يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[1]، فالنفاق من مرض القلوب الذي ابتلي به كثير من البشر رجالا ونساء على حد سواء، وقد ذكرهم الله تبارك وتعالى في حكم تنزيله فقال:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[2]

[1]- سورة النساء، الآية 145.

[2]- سورة التوبة، الآية 68.

يوضح الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة صفات المنافقين والمنافقات فهم متشابهون في أخلاقهم حيث ربطت بينهما برباط السوء والمنكر، وعزلتهم بهذا الرباط عن جماعة المسلمين والمؤمنين[1].

فالمنافقون والمنفقات بعضهم من بعض أي كأنهم أجزاء من شيء واحد، فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق، اغفلوا ذكر الله فأغفل ذكرهم، إن المنافقين هم هم الخارجون عن حدود الشريعة، ولهذا وعدهم الله نار جهنم خالدين فيها فهي كافيتهم، ولعنهم الله، فأبعدهم عن رحمته ولهم عذاب دائم.

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف نلاحظ أنها عبرت بطريقة بالغة الدقة في تصوير حال المنافقين والمنافقات إذ عطف المنافقات على المنافقين بحرف العطف(الواو) التي تفيد الجمع بين الشيئين في الصفات، فالنفاق هي الصفة المشتركة بين الاثنين ثم أعطى صورة أكثر وضوحا لاتحادهم في هذه الصفة كأنهم الشيء الواحد دون تمييز بين الذكور والإناث ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ثم صور سلوكهم حتى لا ينخدع فيهم أحد فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن البذل والعطاء فجاء بصورتين مجازيتين غاية في الجمال الفني في الأولى جاءت المقابلة لتوضح صورتهم وتكشف أمرهم، وفي الثانية جاءت الكناية في قوله ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ لتصور حالة البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله، فالقبض معناه الامساك عن العطاء وهو "وصف ذم لدلالته على القسوة، لأن المراد الشح على الفقراء".[2]

---

[1]– محمد شلتوت، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص653.

[2]– ابن عاشور تفسير والتحرير والتنوير، ج10، مرجع سابق، ص254.

وبعد ذكر هذه الصفات جاء بالصفة الأسوأ وهي نسيانهم لذكر الله، والنسيان منهم مستعار للإشراك بالله أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته، وامتثال ما أمر به؛ لأن الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرض عنه"[1]، ثم جاء هذا النسيان والإعراض عن ذكر الله وبالا عليهم إذا نسيهم الله، أي (حرمهم مما أعد للمؤمنين)[2] ثم جاءت الآية الكريمة بأداة توكيد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ تأكيدا لخروجهم عن حدود الشريعة وضوابطها، كما أن صيغة القصر في هذه الآية تبين المبالغة في الفسوق حتى النهاية حتى جعل غيرهم كمن ليس بفاسق.[3]

وفي الأخير توعد الله المنافقين والمنفقات على السواء بالخلود في جهنم ولهم فيها عذاب مقيم، واستعمل لفظة (مقيم) وهو اسم مفعول الذي يفيد الثبات والدوام، فكان هذا المعنى اللغوي ملائم تماما لمعنى الخلود في النار الذي أراده الله لهؤلاء المنافقين والمنافقات.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هذه الآية الكريمة، عبرت بصورة فنية جميلة عن حال المنافقين والمنافقات ومآلهم، فكل حرف وكل كلمة وكل تركيب منها جاء مناسبا تماما لسلوك هؤلاء المنافقين ذكورا وإناثا، وما ينتظرهم من الوعيد والعذاب الدائم جزاءً على ما فعلوه من أعمال خارجة عن حدود الشريعة وضوابطها، كل ذلك بصورة تعبيرية مؤثرة تجعل المؤمن يحذر من كل تصرف يصدر عنه، خشية الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء المذكورون في الآية الكريمة.

---

[1]– المرجع نفسه، ص255.

[2]– المرجع نفسه، ص255.

[3]– المرجع نفسه، ص255.

4- المساواة في الأخلاق

ومن مظاهر المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم المساواة في الأخلاق حتى يتم التوافق والانسجام بينهما في الحياة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة النور بقوله:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]

هذه الآية الكريمة جاءت تعقيبا على آية الإفك التي أظهر الله فيها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها مبينة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم طاهرات عفيفات طيبات، ولا يمكن أن يوصفن بما قالته جماعة الافك، فمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلهن، وهذا من الاستدلال على حال الشيء بحال مقارنة ومماثلة "فالطيبون للطيبات" وفي هذا كما يقول ابن عاشور: "تعريض بالذين اختلقوا الافك بأن ما أفكوه لا يليق مثله إلا بأزواجهم، فقوله "الخبيثات للخبيثين" تعريض بالمنافقين المختلقين للافك"[2].

و لهذا يعتبر الدكتور فؤاد حيدر أن من شروط نجاح الزواج في الإسلام الانسجام والتوافق في الإيمان والأخلاق بين الزوجين[3].

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد اهتم بالجانب الأخلاقي في الزواج بحيث لا يتم التوافق بينهما إلا إذا اشتركا في هذه الصفات من الطيبة أو الخبث.

---

[1]- سورة النور، الآية 26.

[2]- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص194.

[3]- فؤاد حيدر، المرأة في الإسلام وفي الفكر الغربي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1992، ص134.

كما نجد أن هذه الآية الكريمة بدأت بالخبيثات ثم عقبت بالخبثين؛ لأن غرض الكلام الاستدلال على براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، وبقية أمهات المؤمنين، واللام في قوله للخبيثين للاستحقاق"[1]، أي أن هؤلاء لا يستحقون إلا أمثالهم الموصوفين بالخبث، كما نجد العطف بالواو التي تفيد الجمع حيث لم يجمع بين هؤلاء الذكور والإناث من الرجال والنساء إلا صفة الخبث، ولفظة (الخبث) تحمل مجموعة من المعاني السيئة، والأخلاق الذميمة، فهي تحمل معنى الكذب، والنفاق، والخداع، والغش، والخيانة، والفحش، فمجرد سماعنا لهذه اللفظة يتبادر إلى أذهاننا كل قبح فهي بمثابة فخ منصوب، على الإنسان أن يحذر منه، كما نلاحظ هذا الإطناب في ذكر هؤلاء الرجال والنساء الموصوفين بهذه الصفات السيئة التي تدل على سوء طويتهم وخبث أقوالهم وأفعالهم، وقد جاءت الآية "بهذا الإطناب لمزيد العناية بهذا الحكم وتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلة بدلالتها على الحكم، ويكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلا من أي جانب ابتدأه السامع".[2]

و كذلك الحال بالنسبة للطبيين والطيبات فاللام للاستحقاق فكل واحد منهما يستحق الآخر ويتلاءم معه لاشتراكهما في صفة الطيبة، كما أن الإطناب جاء لتأكيد المعنى في ذهن السامع، لأن لفظة (الطيبة) في حد ذاتها تحمل شحنة من المعاني النبيلة والصفات الحسنة من مثل الأمانة، الصدق، والإحسان، والتسامح، والإخلاص، والإخاء، فهي عبارة عن جمع من الفضائل الإنسانية المعروفة بين البشر من حسن الأخلاق وجمال الصفات.

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص194.

[2]–ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص195.

كما نلاحظ جمال التعبير القرآني في المقابلة بين قوله تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾، وقوله ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ حيث أعطت صورة واضحة للتضاد والاختلاف بين الموصوفين من الرجال والنساء بهاتين الصفتين (الخبث، والطيبة)، والفرق بينهما " وهذا الجمال اللفظي في التعبير القرآني أضاف جمالا معنويا عميقا للقارئ حتى لا يتصور الإنسان أنه يمكن للخبيث أن يطمع في الطيب أو العكس، فكل يقترن بما يلائمه من الأخلاق والصفات وهذا من عدل الله وحسن تدبيره في خلقه ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ فاستعمل اسم الإشارة (أولئك) وهي تستعمل للمذكر والمؤنث أي أولئك الطيبون والطيبات على السواء، كما أن اسم الإشارة (أولئك)، تستعمل للبعيد وهذا ليدل على بعد منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين عما وصفوا به من الإفك والرذائل، كما أنه لم يقل مبرؤون من الإفك ولكن قال ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي أنه مجرد قول لا دليل عليه ولا إثبات فهو مجرد قول لا يرقى إلى الحقيقة ولهذا عبر عنه بالقول".[1]

وفي الأخير وعد الله هؤلاء الطيبون والطيبات بعد أن برأهم مما قيل فيهم بالمغفرة والأجر الكريم، فكانت صيغة المبالغة في قوله ﴿كَرِيمٌ﴾ "فهذه الصيغة قد بلغت بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته"[2] في الكرم لتدل على سخاء العطاء وجزيل الثواب وهو نعيم الجنة فالآية الكريمة لوحة فنية معبرة عن صورة الائتلاف والاختلاف بين نموذجين من الرجال والنساء الموصوفين بهاتين الصفتين الخبث

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص195.

[2]– عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004، ص71.

والطيبة، ومدى التمايز الواضح بينهما لقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[1]

5- المساواة بين الرجل والمرأة في العقوبة:

ومن مظاهر المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم مساواتهما في العقوبة على الأفعال المحرمة عليهما كـ(الزنى) الذي يعد فاحشة ومقتا وساء سبيلا، حيث لا يجني الإنسان منه إلا ضياع الأسر وفساد المجتمع، ولهذا شرع له حدا لا يمكن تجاوزه سواء للرجل أو المرأة فقال عز من قائل:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[2]

إن هذه الآية الكريمة بينت حد الزنى، فأمرت بجلد كل من الزانية والزاني مئة جلده، كما إنها حذرت من التهاون أو التساهل في تطبيق الحد الشرعي رأفة أو رحمة بالزاني أو الزانية، ولهذا أمر الله أن يحضر هذا الحد جماعة من المؤمنين ليتم الحد بالفعل وليكون عبرة لمن يعتبر، لأن "جريمة الزنى أخطر وأعظم من أن تستدر العطف أو تدفع إلى العفو عن مرتكبي هذه الجريمة النكراء فإن من عرف أثارها أو أضرارها من تدنيس للعرض، وضياع للأنساب، وتعريض للأسرة إلى التحلل والدمار، وتلطيخ لأفرادها بالعار والشنار عرف حكمة الله في تشريع هذا

[1]- سورة المائدة، الآية 100.

[2]- سورة النور، الآية 02.

العقاب الزاجر الصارم" [1]، كما ينتج عنها أمراض معدية يصعب شفاؤها، ويتضرر المجتمع من انتشارها بين أفراده.

ثم جاءت الآية التي تليها مبينة أن الزاني لا يحق له الزواج إلا بزانية مثله والعكس صحيح، فالمرأة الزانية لا يحق لها الزواج بالرجل العفيف بل عليها أن تتزوج زان مثلها وحرم ذلك على المؤمنين وفي هذا يقول ابن عاشور: "إن هذه الآية نزلت جوابا على سؤال مرثد بن أبي مرثد" هل يتزوج عناق وكانت امرأة بغيا فقال له رسول الله لا تنكحها.[2]

وبهذا بينت الآية أن (الزاني) من المؤمنين لا يتزوج إلا (زانية) أو مشركة، لأنهن كذلك والزانية من أولئك البغايا لا ينكحها إلا زان من المؤمنين أو المشركين، أو مشرك مثلها، لأنهن كن مشركات ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحرم الله نكاحهن على المؤمنين.[3]

و إذا تأملنا هاتين الآيتين نلاحظ أن الآية الأولى منهما بدأت بذكر الزانية ثم الزاني للاهتمام بالحكم؛ لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعدتها للرجل يحصل الزنى ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينا، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد في تحذيرها.

"و قوله: ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ للدلالة على أنه ليس أحدهما بأولى بالعقوبة من الآخر"[4]

---

[1]– محمد علي الصابوني، ايجاز البيان في سور القرآن، دار الجيل، بيروت، ط1، 2001، ص76.

[2]– ابن عاشور، تفسير والتنوير، ج18، ص153.

[3]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج18، ص71.

[4]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص146.

يبدو لي أن الله سبحانه وتعالى بدأ بالزانية؛ لأن الزنى في المرأة أشد قبحاً؛ لأن نتائجه تظهر على المرأة ولا تظهر على الرجل فهي التي تفقد عذريتها، وهي التي تحمل وتلد، فتكون الفضيحة والآثار النفسية جسمية عليها وعلى أسرتها، وعلى المجتمع بأكله. لهذا تصدرت الآية لكي تنتبه وتراعي نفسها من الوقوع في مثل هذا الحرام، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد ساوى بينهما في الحد أو العقوبة دون تمييز بين الرجل والمرأة وهذا من عدل الله سبحانه وتعالى حيث جاء الأمر من الله بالجلد لكل واحد منهما مئة جلدة.

كما نلاحظ اختيار الله سبحانه وتعالى: للفظة (الجلد) ﴿فَاجْلِدُوا﴾ دون لفظة الضرب مثلا لأنها أكثر ملاءمة لهذا الفعل وهو الضرب على الجلد وبسوط من جلد[1] فكانت اللفظة انسب في هذا الموضع من غيرها، وهذا من دقة التعبير في القرآن الكريم، وكذلك " في لفظ الجلد، إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم" [2]، لا أعتقد أن الجلد لا يصل ألمه إلى اللحم لأن جلد الإنسان ملاصق للحمه، وبالتالي إذا تضرر الجلد فلا بد أن يتضرر اللحم، وربما هذا ما أراده الله ليكون العقاب رادعا للزناة ولغيرهم، وذلك حفاظا على سلامة الأمة وحرصا على طهارة الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض.

ثم بعد هذا الأمر العلوي من الله سبحانه وتعالى بطلب حصول هذه العقوبة للزانية والزاني تبعه بالنهي عن التساهل في إقامة الحد بالشفقة على الجناة فقال ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وقد نهى الله عن الرأفة في هذا المقام رغم أنه هو الرؤوف الرحيم، فقال بصيغة النهي ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ﴾ فاختار كلمة الأخذ دون غيرها؛ لأنها أكثر تعبيرا عن هذا المعنى، لأن الأخذ، حقيقته الاستيلاء، وهو

[1]– المرجع نفسه، ص147.

[2]– محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص114

مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين، وامتلاكها إرادتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحد، فيكون كقوله ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فهو مستعمل في قوة ملابسة الوصف للموصوف"[1].

ثم بعد النهي جاء بالأمر مرة أخرى ليؤكد أن الحدود لا يجب أن يفرط فيها أو يستهان بها، ولذا لابد أن يكون الحد علنا وعلى مشهد من جماعة المؤمنين، فقال ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالأمر من الله والمأمورين هم جماعة المؤمنين، ولهذا يجب تطبيقه دون تراخ أو تماطل فيه.

و إذا تأملنا هذه الآية التي جاءت عقب الآية التي بينت حد الزانية والزاني حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ نلاحظ أن هذه الآية بدأت بذكر الزاني قبل الزانية، لأنها كانت جوابا لرجل مؤمن يريد الزواج من امرأة زانية فكان المقام يقتضي مذمة الرجل الذي يريد الزواج من زانية.[2]

و كذلك بدأ بـ(الزاني) لأن الرجل في النكاح هو الذي يطلب المرأة "والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب"[3]؛ لأن الزواج الشرعي عادة ما يكون الرجل فيه هو البادئ بطلب المرأة، وخطبتها ليتم بعد ذلك النكاح الشرعي.

و ختمت الآية الكريمة بتحريم زواج المؤمن بالزانية أو المشركة والعكس صحيح بقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ "والإشارة في قوله (ذلك) إلى المعنى الذي تضمنته الجملتان من قبل وهو نكاح الزانية أي حرم نكاح الزانية على

---

[1]– ابن عاشور، تسفير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص150.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، مرجع سابق، ص157.

[3]– محمود بن عمر الزمخشري ، تفسير الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص115.

المؤمنين"[1] واستعماله لاسم الإشارة الدال على البعيد، وذلك لبعد سلوك المؤمنين وترفعهم عن سلوك الزناة.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الآيتين الكريمتين قد عبرتا بأسلوب رادع فيه الكثير من التخويف والترهيب، وقد جاء مزيجا بين الخبر والإنشاء الذي يتضمن الكثير من الأوامر والنواهي التي تجعل المتلقي لا يمل ولا يسأم من القراءة أو السماع، بل يجعله متيقظ الذهن، منتبه الفكر لما يجب إزاء ما يقال من أحكام رادعة لكل من وقع في هذه الفاحشة، أو من سولت له نفسه الوقوع فيها، لأن أضرارها لا تقتصر على مرتكبيها بل تمتد إلى المجتمع بأسره، وذلك للتحذير من الوقوع فيها، لما لها من أضرار وخيمة، ولهذا جعل للزناة حدا رادعا وهو (الجلد) لغير المحصن، أما المحصن فحده الرجم[2*].

وقد شرعت هذه الحدود تطهيرا للمجتمع من الفساد والانحلال الخلقي الذي يدعو للفوضى والإباحية والمجون، الذي يسبب ضياع الأسر والمجتمعات واختلاط الأنساب، وهذه الفاحشة تعد من الكبائر لأن الله قرنها بالشرك قائلا: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما اعتبرها فاحشة وساء سبيلا قائلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.[3]

فالآية الكريمة بينت بوضوح أن الزنى من الفواحش العظام وأنه من أسوء السبل لأنه يضيع النسل ويشرد الأطفال، فكانت هذه الصياغة فنية دقيقة معبرة

---

[1]– المرجع نفسه، ص157.

[*]– الجلد مئة جلدة للزاني غير المحصن، يعني غير المتزوج، أما المحصن فحده الرجم حتى ازهاق حياته. أنظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مج16، مرجع سابق، ص99–101.

[3]– سورة الإسراء، الآية 32.

ومشوقة في آن واحد وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وحسن تعبيره، حتى في أسوء المواضع وأشدها قبحا.

و في سياق الحديث عن المساواة بين الرجل والمرأة في العقوبة المساواة في حد السرقة، وذلك مبين في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

إن هذه الآية الكريمة تبين بوضوح أن حد السارق رجلا كان أو امرأة هو القطع دون تمييز بينهما، أو استثناء لأحدهما من العقوبة فكلاهما ملزم بالعقوبة نفسها، وذلك جزاء لما اقترفاه من تعد على حق الآخرين، والاستيلاء عليه دون وجه حق، وقد اختلف في المقدار الذي تقطع فيه اليد، وقد ذكرها صاحب النهر الماد[2] بالتفصيل، وكذلك الطبري، في جامع البيان.[3]

و الأمر بالقطع موجه لولاة أمر المسلمين ممن يكون له إقامة الحدود عليهم وذلك جزاء لما استوليا عليه من حق الآخرين، وذلك عقوبة لهما على فعلهما، وهذه العقوبة مفروضة "من الله العزيز في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل معاصيه، حكيم في حكمه فيهم وقضائه عليهم"[4] ،فهي في نظري إصلاح له أكثر مما هي انتقام منه، لأن القطع عقوبة شديدة، تجعل السارق لا يفكر مرة أخرى في هذا العمل فينصلح حاله، كما أنها ردع للآخرين حتى لا يقعوا في هذا الفعل.

---

[1]– سورة المائدة، الآية 38– 39.

[2]– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، ج1، مرجع سابق، ص550.

[3]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج6، مرجع سابق، ص229.

[4]– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط،، ج1، المرجع السابق، ص581.

و بمقدار حرص الله سبحانه وتعالى على إقامة الحدود للمحافظة على حق الآخرين ونشر الأمان بين الناس، كان غفورا رحيما على التائبين فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه.

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة نلاحظ دقة التعبير القرآني في التعبير عن هذه المساواة بين الرجل والمرأة في العقوبة حيث بدأت الآية الكريمة، بالسارق ثم عطفت عليه بالسارقة؛ لأن الرجل أقرب إلى هذا الفعل من المرأة، وهو أجرأ عليه منها في اقترافه وبعدها ذكر السارقة لئلا "يتوهم أن تكون صيغة التذكير في السارق قيدا بحيث لا يجري حد السرقة إلا على الرجال"[1]، ثم جاء الأمر بالقطع ﴿فَاقْطَعُوا﴾ وهو أمر من الأعلى من الله سبحانه وتعالى إلى الأدنى وهم ولاه أمر المسلمين، وهذا يستوجب تلبية الطلب على وجه السرعة ودون المماطلة في إقامة الحد، ثم بين مكان القطع وهما الأيدي، وجاءت الأيدي مثنى فقال: (أيديهما) حتى يتأكد أن كلاهما تقع عليه العقوبة نفسها دون مفاضلة بينهما.

وقطع اليد كان جزاء لما كسبا من مال حرام، ولفظة (الجزاء) بمعنى المكافأة على العمل سواء أكان خيرا أم شرا، وهذا الجزاء نكالا والنكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصد المعاقب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء أي النكوص عنه والخوف منه[2] كما أن لفظة النكل تحمل معنى القيد، (فالأنكال: جمع النكل والنكل القيد الشديد في أي شيء كان)[3] فهذه اللفظة قد اختيرت بدقة ووضعت في مكانها الملائم لها الذي لا يمكن للفظة أخرى أن تحل محلها، لأنها رسمت مشهد اللص الذي يعاقب على سرقته بهذا العقاب

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج6، مرجع سابق، ص199.

[2]– المرجع نفسه، ص192.

[3]– محمد علي النجار، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج6، مرجع سابق، ص164.

الشديد الذي من شأنه أن يصده عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب من أجله، كما أن هذه العقوبة تشبه القيد الذي يمنع صاحبه عن الحركة، فهي قيد مانع رادع للسارق ليكون عبرة لغيره ممن يفكر في هذا العمل.

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد الحق سبحانه وتعالى قد عبر عن هذه الأحكام الخاصة بالعقوبة، سواء في حد الزنى أو حد السرقة بكلام موزون دقيق، فلكل كلمة، ولكل حرف قوته وعطاؤه، فكلمة (القطع) فيها من الشدة والعنف والقسوة ما يجعل الإنسان يفكر آلاف المرات قبل أن تمتد يده إلى مال غيره، وكلمة (النكال) فيها من القوة القاهرة التي تقيد الإنسان وتجعله يرتدع حتى عن التفكير في هذا الفعل، لأن (النكال) هو العقوبة الرادعة التي تجعل من رآها يخاف أن يعمل ما يستحق تلك العقوبة التي تكون عبرة لكل من سولت له نفسه ارتكاب جريمة السرقة. [1]

6-المساواة في الوصية بالوالدين والإحسان إليهما:

لقد جاءت الوصية بالإحسان إلى الوالدين في سبعة مواضع في القرآن الكريم، جاءت في سورة البقرة تذكيرا بالميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2] وجاءت في سورة النساء فقال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3] وجاءت في سورة الأنعام ضمن الوصايا العشر التي وردت في كل دين فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ

[1]- فاضل صالح السمرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، ج2، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 2011، ص137.

[2]- سورة البقرة، الآية 83

[3]- سورة النساء، الآية 36.

شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1]، وجاءت في سورة الإسراء ضمن ما قضى به الله وشرعه من الوصايا العامة، فقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[2]

إذا تأملنا هذه الآيات الأربع سوف نلاحظ أنها جميعا تأمرنا بالإحسان إلى الوالدين (الأب والأم) بالتساوي دون مفاضلة بينهما ولعناية القرآن الكريم بشأن الوالدين، جعل الله سبحانه وتعالى برهما تاليا للأمر بعبادته أو النهي عن الإشراك به، وفي ذلك رفع أيما رفع لمقام الأبوة والأمومة[3] معاً دون تمييز بينهما.

و إذا أمعنا النظر في هذه الآيات نجد أن الوصية بالوالدين جاءت كلها بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان ولم تأت بأسلوب النهي عن المحرم وهو الإساءة، وذلك سموا بالإحسان أن نظن به الإساءة إلى الوالدين[4]

كما أن الإساءة ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهي عنها، لأن الخير المنتظر من هذه الوصية، هي تربية الأبناء على الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها، ولا يتحقق بفعل الواجب وهو الإحسان، لا بمجرد ترك المحرم وهو

---

[1]– سورة الأنعام، الآية 151.

[2]– سورة الإسراء، الآية 23– 24.

[3]– محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص204.

[4]– المرجع نفسه، ص204.

الإساءة، لهذا قال ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولم يقل ولا تسيئوا إلى الوالدين، فليس المطلوب دفع ضرر وإنما المطلوب ايجاد نفع[1].

كما نلاحظ في هذه الآيات الأربع أن لفظ (الإحسان)، يتعدى بحرفي الجر (الباء) و(إلى) فيقال أحسن به، وأحسن إليه، وبينهما فرق واضح فالباء تدل على الإلصاق وإلى تدل على الغاية، والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول الباء دون انفصال أما الغاية فتفيد وصول الفعل إلى مدخول (إلى) ولو كان منه على بعد أو كان بينهما واسطة، ومما لا شك فيه أن الإلصاق في هذا المقام ابلغ في تأكيد العناية بالإحسان إلى الوالدين[2]؛ لأن المفروض أنت من تحسن إلى والديك لا أن توكل إليهما من يقوم بشأنهما ورعايتهما.

من الملاحظ أن هذه الآيات كلها جاءت بأسلوب إنشائي وبصيغة الأمر الدالة على فعل الشيء في الحاضر أو المستقبل، لأن الإحسان إلى الوالدين لا يتوقف أبدا حتى وإن فارقا الحياة فيجب الإحسان إليهما بالدعاء والصدقة وإكرام من يحبون، لأن الإحسان أو الحسن حالة حسية أو معنوية جميلة تدعوا إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه، ويكون في الأقوال والأفعال والذوات والمعاني"[3]

و بالإضافة إلى صيغة الأمر بالإحسان إلى الوالدين هناك صيغة أخرى جاء فيها الطلب إلى الإحسان بالوالدين بأسلوب الإيصاء.

فقال تبارك وتعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[4]، ففي هذه الآية الكريمة نلاحظ أن الله سبحانه

---

[1]– المرجع نفسه، ص404.

[2]– عبد الفتاح لاشين من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، مرجع سابق، ص167.

[3]– مجموعة من المؤلفين، معجم الفاظ القرآن الكريم، ج2، مرجع سابق، ص84.

[4]– سورة العنكبوت، الآية 8.

وتعالى وصى الإنسان بوالديه معا بالتساوي إلى الإحسان إليهما دون التفريق بين الأب والأم، ثم بين الله سبحانه وتعالى "الحالة الخاصة التي يباح فيها للإنسان عصيان والديه، وعدم امتثال أمرهما، وهي حالة مجاهدتهما لولدهما أن يشرك به ما ليس له به علم"[1] ثم وصى الإنسان بوالديه في سورة لقمان، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾.[2]

ففي هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى وصى بالوالدين الأب والأم على حد سواء ثم اختص الأم بالذكر مبينا ما تحملته من مشاق الحمل والفصام فالله سبحانه وتعالى قد اختص الأم بالذكر "لأنها تقوم بالجزء غير المنظور في حياة الابن أو غير المدرك عقلا"[3] ثم يُذَّكر الأبناء بأن يشكروا الله ثم الوالدين؛ لأن الله أنعم عليهم بالوجود والحياة، والوالدين بالجهد بالتعب، ولا يجوز عصيان الوالدين إلا في حالة واحدة وهي لدعوتهما لأبنائهما الإشراك بالله، ورغم ذلك فالله أمر بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف.

كما نجد الوصية بالوالدين في سورة الأحقاف حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ

---

[1]– محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ج10، مرجع سابق، ص406.

[2]– سورة لقمان، الآية 14–15.

[3]– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص84.

وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.[1]

ففي هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى وصى بالوالدين في بداية الآية الكريمة بالتساوي، ثم خص الأم بالذكر كما في الآية السالفة وذكّرنا بمتاعب الأم من حمل وولادة وفصال، ثم عدد المدة الزمنية التي تعاني منها الأم وهي ثلاثون شهرا حتي نعرف المعاناة الشديدة وطولها لكي نعترف لها بالفضل ونحاول أن نرد لها بعض الجميل، وفي آخر الآية ذكرهما الله معا الأم والأب ووجوب شكرهما بعد شكر الله سبحانه وتعالى حتى نتعلم شكر المنعم علينا.

من خلال الآيات السابقة يتبين لنا أنها أوصت بالإحسان إلى الوالدين بالتساوي باستثناء الآيتين الأخيرتين من سورة لقمان والأحقاف حيث نجدهما تذكر الوالدين في أول الآية وفي آخرها، ثم تتوسط الأم بينهما، وتخص بالذكر زيادة في التنبيه لفضها العظيم الذي لا يدركه الأبناء ولا يشعرون به لأنه يتم في طفولتهم المبكرة كالحمل والولادة والارضاع والفطام والتربية، "فالطفل حينما يحقق له أبواه كل رغباته يحس بفضل أبيه عليه، ولكنه نادرا ما يقدر التعب الذي تتعبه أمه وهو يزيد أضعافاً مضاعفةً على ما يقدمه أبوه. [2]

لهذا جاءت الوصية بالأم والتذكير بها في الآيتين زيادة عن الأب[3] وإذا تأملنا هذه الآيات الثلاث نجد انها جاءت بأسلوب الإيصاء وهو أن يعهد إلى الغير بعمل ذي بال وهو يدل على العناية التامة، والبالغة من الموصي بهذا العمل، كما

---

[1]– سورة الأحقاف، الآية 15.

[2]– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص84.

[3]– عبد الفتاح لاشين، من اسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، مرجع سابق، ص170.

يدل على نحو مكانه العمل، ومن هنا كان أسلوب الإيصاء أقوى من البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف"[1].

و إذا تأملنا الآيات السابقة التي اوصت بالإحسان إلى الوالدين نجد فيها دقة في اختيار الألفاظ وجمالا في التعبير وبلاغة في الأمر والنهي، حيث نجد الله سبحانه وتعالى في الآيات السبع أمر بالإحسان؛ "لأن لفظ الإحسان يحمل دلالات مادية ومعنوية جميلة، فالرفق إحسان، وطاعتهما إحسان، والخضوع لهما إحسان، وخدمتهما إحسان، فهي لفظة شاملة جامعة لا يمكن للفظة أخرى أن تؤدي معناها أو تقوم مقامها في هذا المقام بالذات.

كما نجد في سورة الإسراء أن الله تبارك وتعالى نهى عن عقوق الوالدين بالتساوي ولو بأبسط كلمة التي لا تتجاوز الحرفين، لا تقل لهما (أُفٍ) فهذه الكلمة، رغم صغر حجمها فهي تحمل شحنة من المعاني المذمومة فهي علامة التذمر والغضب وعدم الرضى وعدم القبول لما يريده الأبوين، فشتان بين لفظة (الإحسان) وما فيها من جمال، ولفظة (التأفف) وما فيها من قبح مذموم، ثم ذكر النهي (لا تنهرهما) لينتبه الغافل ويستفيق العاصي، ويرتدع العاق. وبعد هذا النهي جاء الأمر بثلاثة أمور: (القول الكريم، خفض الجناح لهما رحمة بهما والدعاء لهما بالرحمة في ختام الآية في قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.[2]

كما نلاحظ هذه اللفتة البلاغية الجميلة في قوله ﴿اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ حيث شبه الذل بالطائر، وحذف الطائر ورمز إليه بشيء لوازمه وهو

[1]– محمد شلتوت، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص406.

[2]– سورة الإسراء، الآية 23–24.

الجناح على سبيل الاستعارة المكنية[1]، فهذه الاستعارة اعطت صورة حركية للطاعة وللذل للوالدين حتى كان للذل جناح يخفض من الرحمة للوالدين.[2]

كما نجد في الآيتين الأولى من سورة لقمان في قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ حيث ذكر الخاص بعد العام، إذ ذكر الوالدين، ثم خص الأم بالذكر وكذلك في قوله تعالى من سورة الأحقاف ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فقد ذكر في الآتين الخاص بعد العام وذلك "لزيادة العناية والاهتمام الخاص بشأن الأم لحقها العظيم"[3] على أبنائها وما تبذله من عناء ومشقة أثناء الحمل والولادة، كما نجد المقابلة في نفس الآية في قوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ حيث أعطت للآية وضوحا وجمالا تعبيريا ودقة في وصف العناء فالحمل فيه ثقل وتعب، والوضع لا يقل عن الحمل مشقة وتعباً.

مما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم قد عبر بأسلوب متناسق جميل في صور فنية دقيقة للتعبير عن أهمية الوالدين وما يجب مراعاته اتجاههما، وخص الأم مبينا معاناتها المضاعفة، محذرا من عقوقهما، آمراً مرة وناهياً أخرى في أسلوب إنشائي مشوق، راسما صورة فنية شكلتها الحروف والكلمات والتراكيب في تناسق وتناغم بين الحروف والألفاظ بحيث لا يمكن لحرف أو كلمة أو تركيب أن يقوم مقام الآخر، ومن هنا يتجلى جمال لغة القرآن الكريم.

---

[1]– محمد حسين سلامة، الاعجاز البياني للقرآن الكريم، مرجع سابق، ص305.

[2]– جبير صالح حمادي، التصوير الفني في القرآن الكريم مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص127.

[3]– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص205.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن المقصود بالمساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم، ليس التماثل التام، ولا التطابق الكلي في كل شيء بحيث "يصب الرجال والنساء في قوالب اجتماعية واحدة، حتى تسقط بينهم فوارق القدرات والإمكانات، ويظهر الجميع كأنهم أحجار مرصوفة في حجم واحد...، فالمساواة المطلقة مستعصية على التطبيق في كل المجتمعات الإنسانية، ولو تحققت هذه المساواة الحرفية المطلقة، لتفكك المجتمع"[1].

أما الإسلام فموقفه صريح وواضح في قضية المساواة، فالمساواة في الإسلام هي مساواة في الإنسانية والأهلية، والكرامة الاجتماعية، ولذا فالمرأة مساوية للجل في جميع التكاليف الشرعية من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ولذا ساوى بينهما في الأمر والنهي، وفي الوعد والوعيد، وفي العقوبة، وفي الجزاء على الأعمال إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

"ومن يتدبر القرآن الكريم يحس بالمساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى حقاً أكثر فلقاء واجب أثقل".[2]

وهكذا نجد المساواة ثابتة بين الرجل والمرأة في الإنسانية وفي الحقوق، والواجبات، مع مراعاة الفوارق بينهما في القدرات والإمكانات.

---

[1]– محمد سعيد البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1996، ص95.

[2]– محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الهناء، الجزائر، ط1، 2001، ص34.

الفصل الثالث:

المفاضلة بين الرجل والمرأة

في القرآن الكريم

لقد بينت في الفصل السابق مواطن المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم، وأن هذه المساواة مبنية على أسس وقواعد ثابتة، ومتينة، جعلها الله سبحانه وتعالى وفق إرادته ومتطلبات خلقه، فالرجل والمرأة مخلوقان بشريان مكلفان بنفس التكاليف من إيمان وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وما دامت التكاليف الإلهية متساوية فالجزاء على أداء هذه الفروض كان متساويا دون تمييز بين الرجل والمرأة فهما متساويان أمام الله سبحانه وتعالى يجازي كل واحد على قدر عمله، من أحسن فله الحسنى ومن أساء فعليه السوء فالجزاء يكون من جنس العمل، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

إلا أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الذكر والأنثى «**الرجل والمرأة**» ويعلم حقيقة كل واحد منهما وقدراته، وهو الذي خلق المرأة من نفس الرجل فقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]

فالمرأة خلقت من نفس الرجل وهي بعض منه، وهي سكن له، وقد جعل الله بينهما المودة والرحمة لتبني الأسر على المحبة والتراحم لا على البغض والتزاحم، والله الذي خلق المرأة من الرجل، أعطى للرجل درجة على المرأة، فكانت هذه الدرجة مثار نقاش حاد إن لم أقل محل صراع بين أنصار المرأة الجاهلين بأهمية هذه الدرجة لقيادة الأسرة، التي هي عبارة عن شراكة بين الرجل والمرأة، بحيث يعود الأصل إلى فرعه والفرع إلى أصله وهذه الشراكة لابد لها من قائد إن أردنا أن نصل بالأسرة إلى بر الأمان، القائد لا يكون إلا فردا واحدا وهو الرجل كما أراد الله سبحانه وتعالى؛ لأن تعدد القيادة يفسد رباط الشراكة المبنية على المودة والرحمة،

[1]– سورة الروم، الآية 21.

مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] ولهذا نتساءل لمن تكون هذه القيادة في الأسرة، للرجل أم للمرأة؟.

إن الإجابة على هذا السؤال تستدعي منا العودة قليلا إلى بداية الخلق (خلق الرجل والمرأة) فالله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب وهو أول مخلوق بشري، ثم خلق منه حواء فهي جاءت بعده، والمنطق يقول إن القيادة تكون لمن خلق الأول؛ لأن الأول له فضل السبق في الوجود، وله فضل التجربة: أي تجربة الحياة، وأنه خلق من طين أو حمأ مسنون أو من صلصل كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه وسجدت له الملائكة، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[2]

فالرجل أكثر قوة وصلابة من المرأة، كما يقول المفسرون؛ لأنه خلق مباشرة من شيء يابس على عكس المرأة فإنها خلقت من شيء رطب، من لحم ودم فهي أضعف من الرجل وأقل قوة منه. فالقوة البدنية تجعل الرجل يعمل ويشقى من أجل إعالة الأسرة وفي مقدمتها المرأة، زيادة على فضل السبق في الوجود الذي منح الرجل (أدم) تجربة في الحياة قبل المرأة (حواء)، هذه كفيلة بأن تجعل الرجل قائدا وتميزه في هذا المجال على المرأة وتعطي له حق درجة الفضل عليها، وخاصة أن الله نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وليس في هذا ما يدعو إلى عدم رضى المرأة عن إرادة الواحد الأحد الذي خلق كل شيء بقدر وجعل في كل شيء حكمة لا يعملها إلا الراسخون في العلم ومن أنار الله بصيرته لهداه.

---

[1]- سورة الأنبياء، الآية 22.

[2]- سورة ص، الآية 71- 72.

تعريف المفاضلة:

و قبل أن أبدأ في تحليل آيات المفاضلة على أن أعرف معنى كلمة (الفضل) أو بالأحرى معنى الفعل (فضّل). يقول صاحب لسان العرب في تعريف كلمة (فضّل)

فضّل: الفضل والفضيلة معروف ضد النقص والنقيصة، والجمع فضول، وفضل، يفضل، وهو فاضل، ورجل فضّال، ومُفضل، كثير الفضل. [1]

و الفضيلة الدرجة الرفيعة في الفضل والفاضلة الاسم من ذلك، والتفاضل التمازي في الفضل وفضله مزاه.

و التفاضل بين القوم أن يكون بعضهم أفضل من بعض، ورجل فاضل ذو فضل ورجل مفضول قد فضله على غيره، ويقال فضل فلان على غيره. إذا غلب بالفضل عليهم.

و تفضل عليه، تمزى، في التنزيل العزيز: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، معناه يريد أن يكون له الفضل عليكم في القدر والمنزلة، والمتفضل الذي يبدي الفضل على أقرانه، والتفضُّل التطول على غيرك، والفواضل الأيدي الجميلة، والإفضال: الإحسان[3]

من خلال هذا التعريف لمعنى" الفضل" الذي يحمل معنى الزيادة في الخير والإحسان، وهذا الخير والإحسان لا يمكن لأي إنسان أن يرفضه أو يثور ضده، وخاصة المرأة التي هي شقيقة الرجل، وبعض منه، فلا أحد يكره أن يكون هذا الجزء بعيدا عن النقص أو النقيصة؛ لأنه سوف يعود عليها بالخير والمنفعة.

---

[1]– ابن منظور لسان العرب، مج11، ص525.

[2]– سورة البقرة، الآية 228.

[3]– ابن منظور لسان العرب، مج11، ص525.

و أن التميز الذي ترفضه المرأة وتثور ضده هو التفضل بمعنى التطاول والتكبر عليها، بحيث يعاملها الرجل على أنها أَمة يأمرها فتطيع وينهاها فتنتهي دون أي اعتبار لإنسانيتها معتقدا أن هذا حق من حقوقه الذي أعطاه إياه رب العالمين، معللا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]، ناسيا أن هذه الدرجة هي مسؤولية بالدرجة الأولى.

التفاضل سنة كونية:

إن هذا الفضل ليس خاصا بالرجل وحده، بل هو سنة من سنن الله في الكون، في جميع خلقه، يراه الإنسان المتدبر في الكون كله، في الزمان والمكان، والنبات والجماد وكذلك في البشر، ولنبدأ بفضل بعض الأزمنة على البعض الآخر، لأن الزمان يسري بقوته القاهرة على كل شيء في هذا الكون، ولا يمكن لشيء الانفلات من قوته وسيطرته.

1- شرف الزمان:

إذا تأملنا الأزمنة سوف نلاحظ أنها غير متساوية، بل نجدها متفاوتة في الفضل، أليس شهر رمضان له فضل على الأشهر الأخرى، وفيه يقول الله عز وجل ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]

---

[1]- سورة الأنبياء، الآية 22.

[2]- سورة البقرة، الآية 185.

فلهذا الشهر فضل عظيم على بقية الأشهر الأخرى، حيث ميزه الله سبحانه وتعالى على سائر الأشهر بنزول القرآن الكريم فيه، وهو دستور هذه الآمة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيه ليلة القدر التي قال فيها الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.[1]

فالآية الكريمة "اشتملت على تنويه عظيم بالقرآن العظيم فافتتحت بحرف (إنَ)، وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي".[2]

فالآية الكريمة جاءت مبنية على أسلوب السجع الذي يقوم على توافق الفواصل في الحرف الأخير، وقد أعطى هذا البناء للآيات جمالا، حيث جاءت كل الفواصل منتهية بحرف (الراء)، وكانت متوازنة ومعتدلة من حيث الطول، كما جاءت هذه الفواصل السجعية مؤيدة للمعنى، مما زاد المعنى قوة وتأثيرا، كما يقول عبد القاهر الجورجاني: "إنما يعطي السجع والتجنيس من الفضيلة، أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، والتجنيس الحسن ما كانت الألفاظ فيه خدم المعاني والمصرفة في حكمها".[3]

وفي هذه الليلة المباركة قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " من قام ليلة القدر غفر له ما تقدم من ذنبه ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم

---

[1]– سورة القدر، الآية 1– 5.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج30، مرجع سابق، ص486.

[3]– عبد القاهر الجورجاني، أسرار البلاغة، راجعه وعلق عليه الأستاذ عرفان مترجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص19.

من ذنبه"[1] فأي شرف وأي منزلة حازها هذا الحيز الزمني على غيره من الأزمنة الأخرى وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين﴾[2].

فلهذا الشهر مزايا كثيرة فيه نزل القرآن الكريم لهداية الناس وإخراجهم من ضلال الجهالة إلى نور الإيمان، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفيها يكتب كل أمر عظيم، وفي رمضان تغفر الذنوب وتعتق الرقاب من النار، وفيه تصفد الشياطين هذه كلها مزايا لهذا الشهر الفضيل.

و هناك مواسم زمنية غير رمضان فيها فضل عظيم كموسم الحج الذي يعد مؤتمرا إسلاميا ينعقد مرة كل عام فيه يجتمع المسلمون ليتعارفوا ويتناصحوا ويتحدوا في موقف واحد، ولباس واحد، إخوة متحابين لا فضل بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، وفيه يقول جل شأنه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3]

فهذه الأيام المعلومات فيها فضل عظيم حيث يجتمع المسلمون على صعيد واحد مما يعزز وحدتهم ومساواتهم أمام الله سبحانه وتعالى وتتقوى أواصر المحبة بينهم، وتغفر ذنوبهم، وتستجاب دعواتهم، ألم يقل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه﴾[4]

---

[1]– أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن برزويه الجعفري البخاري، صحيح البخاري، ج1، ط جديدة منقحة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2003، ص115.

[2]– البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، ج1، ص114.

[3]– سورة البقرة، الآية 197.

[4]– البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص336.

و إذا تأملنا الآية الكريمة وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف نجد لهذا الموسم الزمني فضل عظيم لا يقل عن فضل الجهاد في سبيل الله وهذا ما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور"[1] وليس معنى هذا أن الأزمنة الأخرى ليس لها فضل ولكن الله جعل الشهور والأيام متفاوتة في الفضل وهذه حكمة لا يعلمها إلا هو.

2- شرف المكان:

وكما وجدنا هذا الفضل والشرف في بعض الأزمنة، فهو كذلك في بعض الأمكنة، حيث نجد الله سبحانه وتعالى فضل بعض الأمكنة وميزها على غيرها، كمكة المكرمة التي فضلها الله على كل بقاع الأرض؛ لأن فيها البيت الحرام، ومقام إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

و الله سبحانه وتعالى شرف هذا المكان الذي وضع فيه أول بيت مبارك للناس فيه هدى للعالمين فيقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[3]

---

[1]- البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص336.

[2]- سورة البقرة، الآية 125.

[3]- سورة أل عمران، الآية 96-97.

و فضل هذا المكان لا يخفى على أحد؛ لأن فيه أول بيت وضع للناس عامة ولا يقتصر على بعضهم، وكون البيت مشتركا فيه بين كل الناس، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعا للطاعات والعبادات وقِبلة للخلق، فدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ على أن هذا البيت وضعه الله موضعا للطاعات والخيرات والعبادات، فيدخل فيه كونه قبلة للصلوات وموضعا للحج، ومكانا يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه"[1]

فلهذا المكان شرف رفيع، وفضل عظيم يكفي أن فيه بيت الله الحرام مقصد المسلمين جميعا، لأداء مناسك الحج والعمرة، ولا يقام هذا الركن الخامس إلا فيه، كما أنه قبلة للمسلمين في جميع بقاع الأرض مصداقا لقوله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2].

فالمسجد الحرام شرفه الله بأن جعله قبلة للمسلمين يتوجهون إليه خمس مرات في اليوم في صلواتهم، وفيه تضاعف الحسنات، وتستجاب الدعوات، وتقبل الطاعات ويكفي هذا البلد تعظيما أن فيه ميلاد أفضل خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه، وهو مهبط الوحي وموطن انتشار رسالة الإسلام، أليس هذا كله يدل على شرف المكان وعلو قدره، وشرف منزلته، ولا يقتصر شرف المكان على البلد الحرام، فبيت المقدس من الأماكن التي كرمها الله سبحانه وتعالى وقد ربط الله بينه وبين

[1]– الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، مج4، ص156.

[2]– سورة البقرة، الآية 149.

المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1].

و يشترك في هذا الفضل المسجد النبوي بالمدينة المنورة حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا﴾[2]

3- التفاضل بين بعض الموجودات:

وسنة التفاضل ليست وقفا على الأزمنة الأمكنة فحسب بل نجد هذا التفاضل حتى في بعض الجمادات،

أ- التفاضل بين الجمادات:

فالحجارة واحدة إلا أن هناك ما يسن تقبيله كالحجر الأسود الذي قال فيه سيدنا عمر بن الخطاب "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك"[3] ففيه تكريم لهذا الحجر، ومن الحجر ما يرمى به الشيطان عند أداء مناسك الحج.

ب- التفاضل بين النباتات:

كما نجد هذا التفاضل في الشجر حيث فضل الله بعض الأشجار كشجرة الزيتون التي قال فيها الله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ

---

[1]- الإسراء، الآية 1.

[2]- زكي الدين عبد العظيم المنذري، مختصر صحيح مسلم، مركز فجر للطباعة والنشر، القاهرة، ص365.

[3]- البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، ص352.

شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.[1]

نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد رفع من شأن هذه الشجرة ووصفها بأنها مباركة، وأن زيتها يكاد يضيء، يقول ابن عاشور " ووصف الزيتونة بالمباركة لما فيها من كثرة النفع، فإنها ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك، ويستنار به، ويدخل في أدوية، وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها، وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية، قال تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ وينتفع بجودة هواء غاباتها.[2]

و هذا التفاضل لا يقتصر على ما ذكرته بل نجده في كل الموجودات في المأكولات والمشروبات، أليس ماء زمزم من أفضل الماء على الإطلاق؛ لأن من فجر منبعه سيدنا جبريل عليه السلام بأمر من الله اكراما لأم إسماعيل عليها السلام التي جدت وتعبت بحثا عن الماء لابنها الرضيع، فأكرمها الله بأحسن ماء على وجه المعمورة، وجعل موضع سعيها بين جبلي الصفا والمروة، شعيرة يُتعبد بها إلى يومنا هذا في الحج والعمرة، جزاء لهذه المرأة المؤمنة التي نزلت مع زوجها بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام تلبية لأمر الله سبحانه وتعالى، ثم دعا خليل الرحمن الله قائلا: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[3] ولما غادر الخليل أهله بمفردهم علمت زوجته المؤمنة أن الله لا

---

[1]– سورة النور، الآية 35.

[2]– ابن عاشور، الحرير والنور، ج18، ص240.

[3]– سورة إبراهيم، الآية 37.

يضيع المؤمنين به المتوكلين عليه فصبرت واحتسبت، فرزقها الله بخير ماء على وجه الأرض وهو ماء زمزم الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فهو طعام الطعم وشفاء السقم".[1]

ومن الأشربة المفضلة أيضا شراب العسل الذي جعل الله فيه الشفاء للناس قائلا: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[2]

ولو تتبعنا هذا التفاضل لوجدناه في الكائنات كلها من نبات وجماد وحيوان أليست ناقة سيدنا صالح عليه السلام قد ميزها الله سبحانه وتعالى عن بقية الحيوانات وجعلها آية لقوم لا يؤمنون وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.[3]

إن هذه الآية الكريمة قد بدأت بحرف النداء (يا) الذي يتشرب معنى الأمر، أي يا قوم لا تمسوا هذه الناقة بسوء، فهو أمر من الله سبحانه وتعالى، لأنكم إذا فعلتم ذلك سيصيبكم ما لم يكن في حسبانكم من العذاب والهلاك، فأمهلهم الله ثلاثة أيام؛ لأن الله يمهل ولا يهمل، ولا يخلف وعده.

---

[1]– أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ضبط نصها أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص497.

[2]– سورة النحل، الآية 69.

[3]– سورة هود، الآية 64–65.

كما أنه استعمل حرف النداء (يا) التي ينادى بها البعيد، لبعد هؤلاء القوم عن الهدى واتباعهم الضلال، ولأهمية هذه الناقة على سائر الحيوانات الأخرى أضافها الله إليه فقال: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ تكريما وتشريفا لها، كما أنه جعلها آية فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾، أي علامة على قدرة الله وبديع خلقه وعجائب صنعه.

4- التفاضل بين البشر:

مما سبق يتبين لنا أن سنة التفاضل والتمايز تسري على كل المخلوقات، وفي مقدمة هذه المخلوقات جميعا الإنسان الذي ميزه الله بالعقل وخلقه في أحسن تقويم وسخر له هذه الكائنات جميعا لفائدته، إلا أن هذا الإنسان المفضل على الكائنات الأخرى ليس نسخة مكررة يتماثل في كل شيء، بل ميز الله بعض الناس على بعض وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1]

فالتفضيل يكون بالأعمال الصالحة التي يقدمها الإنسان في الدنيا من أجل الآخرة، ولهذا جعل الله الناس درجات منهم الأنبياء والصالحون ومنهم دون ذلك إن الله يصطفي من عباده من يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[2]

أ- فضل بعض الأنبياء والرسل على البعض

و الأنبياء أنفسهم، وهم خيرة الناس جميعا، وكلهم يشتركون في صفة النبوة، إلا أن الله سبحانه وتعالى فضل بعضهم على بعض فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ

[1]- سورة الاسراء، الآية 21.

[2]- سورة آل عمران، الآية 34.

النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[1] فالآية الكريمة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى فضل بعض الأنبياء على بعض على الرغم من أنهم يشتركون جميعا في صفة النبوة، إلا أن الله سبحانه وتعالى رفع بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا وفي الآخرة، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.[2]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى الرسل الذين سبقوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد فضل الله بعضهم على بعض حيث جعل لبعضهم من المزايا فوق ما جعل للآخرين، منهم أولو العزم، ومنهم من كلم الله بلا واسطة كسيدنا موسى عليه السلام، ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء والرسل وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء وأمته خير الأمم[3].

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أنها بدأت باسم الإشارة " تلك"، وهي التي تستعمل للبعيد وذلك لبعد منزلتهم في الكمال والرفعة والمنزلة العالية جميعا[4]، فالمفاضلة بينهم لا تنقص من مكانة بعضهم ولا تعيب أحدا منهم، فكل واحد منهم له ميزته الخاصة التي ميزه الله بها عن غيره، وهم جميعا رسل مكرمون من قبل الله سبحانه وتعالى بالوحي ومكلفون بتبليغ رسلات ربهم إلى الناس لهدايتهم إلى الحق.

ب- التفاضل بين الصحابة الكرام

و هذا التفاضل لم يكن وقفا على الأنبياء والرسل بل تجاوزه إلى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، حيث اشتركوا كلهم في صحبة رسول الله صلى الله عليه

---

[1]- سورة الإسراء، الآية 55.

[2]- سورة البقرة، الآية253.

[3]- الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، ص182.

[4]- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، مرجع سابق، ص160.

وسلم، غير أنهم كانوا متفاوتين في قدراتهم، ومواهبهم، وأعمالهم الصالحة، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلهم جميعا فقال: ﴿لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه﴾[1] إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر لكل منهم ميزة خاصة تميزه عن غيره فقال: " أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وافرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح"[2].

فالرسول صلى الله عليه وسلم بين أن الصحابة رضي الله عنهم هم أفضل الناس عامة، ثم ذكر لكل واحد منهم صفة خاصة تميزه عن غيره، فهذه المفاضلة لا تنقص من قيمة أحدهم، بل جميعهم مكرمون مفضلون، ولا يعيبهم أن لكل منهم فضله في جانب معين دون غيره.

ج- فضل المجاهدين على القاعدين

كما نجد هذه المفاضلة بين المجاهد والقاعد، لأن القاعد عن الجهاد لا يساوي المجاهد في سبيل الله وفي ذلك يقول لله عز وجل ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ

---

[1]- البخاري، صحيح البخاري، ج2، مرجع سابق، ص209.

[2]- الترمذي، الجامع الصحيح لسنن الترمذي، تحقيق محمود محمد نصار، مج4، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2000، ص504.

الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1]

إن هذه الآية الكريمة ذكرت نوعين من المؤمنين "المجاهدون والقاعدون"، وبدأت بالمجاهدين؛ لأنهم أفضل من القاعدين ثم استثنت الآية الكريمة أصحاب الأعذار ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾؛ لأن هؤلاء غير مطالبين بالجهاد، ولكن في نفس الوقت هناك الجهاد بالمال، فإذا كانوا أغنياء فلا يعفون من الجهاد بأموالهم، ولهذا قال: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾ تماشيا مع أولي الضرر ثم عطف عليها بأنفسهم لمن يستطيع ذلك، وهؤلاء فضلهم الله على القاعدين درجة، ووعدهم الله بالحسنى، ثم أكد أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما وبدرجات عديدة، وبالمغفرة والرحمة.

وأن (الدرجة) جاءت أولا بصيغة المفرد، ثم جاءت بصيغة الجمع (درجات) لأن الجمع أقوى من المفرد،... وهو لإفادة تعظيم الدرجة لأن الجمع فيه من معنى الكثرة وتستعار صيغته بمعنى القوة"[2] ويرى الزمخشري أن "غير" قرأت بالحركات الثلاث، بالرفع صفة (للقاعدون)، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم، والجر صفة للمؤمنين، والضرر المرض والعاهة.[3]

ولقد رأينا فيما سبق سنة التفاضل جارية بين جميع المخلوقات بما فيهم سيد هذه المخلوقات وهو الإنسان، رجلا أو امرأة. وبدأت بذكر التفاضل القائم بين الرجال، فبينت أن منهم الأنبياء الأطهار، والمرسلين الأخيار، والصحابة الكرام،

---

[1]– سورة النساء، الآية 95–96.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص172.

[3]– الزمخشري، تفسير الكشاف، ج1، ط2، ص265.

والمجاهدين الأبرار، وهذا التمايز يعود أساسا إلى أعمالهم وأخلاقهم وعلمهم، وهو في الأول والأخير يعود إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله عز شأنه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

و هذا التفاضل بين هؤلاء جميعا لا يعد نقصا في بعضهم، ولا قدحا في شخصهم، بل لكل منهم تميزه الخاص في مجال معين لكي يتم التكامل بين عباده، وهذه حكمة ربانية، وسر من أسرار الألوهية.

د- التفاضل بين النساء

والتفاضل ليس وقفا على الرجال وحدهم، بل هو سار بين النساء أيضا، فقد فضل الله بعض النساء على بعض، ورفع بعضهن درجات، وذكر بعضهن في القرآن الكريم بأسمائهن تكريما وتشريفا لهن، وتعظيما لشأنهن، ومنهن (مريم ابنة عمران) التي قال فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

من خلال هذه الآية الكريمة نلاحظ أن (مريم) العذراء قد اصطفاها الله مرتين وميزها على جميع نساء العالمين، وهذا الاصطفاء المضاعف لتأكيد براءتها مما اتهمها بها قومها من أباطيل وافتراءات للقدح في شرفها، ولكن الله تبارك وتعالى برأها من كل ذلك، ولهذا ذكر الاصطفاء مرتين: الأول كما يقول بن عاشور: "اصطفاء ذاتي هو جعلها منزهة زكية، والثاني: بمعنى التفضيل على الغير، ونساء العالمين؛ نساء زمانها أو نساء سائر الأزمنة".[3]

---

[1]- سورة يوسف، الآية 76.

[2]- سورة آل عمران، الآية 44.

[3]- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص245.

كما نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة﴾[1] وكانت عائشة رضي الله عنها تغار من أم المؤمنين خديجة رغم أنها لم تكن معها على قيد الحياة نظرا لتفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم لها، وذكرها دائما بما فيه خير، وما يميزها عن غيرها من النساء، وفي ذلك تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: "ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها"[2] وليس معنى هذا أن بقية نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليس لهن فضل، بل كلهن مفضلات على عامة النساء مصداقا لقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[3] وفي هذا المعنى يقول السبكي أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وعائشة متساويات في الفضل وهن أفضل النساء[4].

مما سبق يتضح لنا أن التفاضل سنة كونية جعلها الله سبحانه وتعالى في كل شيء منذ بدء الخليفة فلا عجب أن تسري هذه السنة على أفضل مخلوقين على وجه الأرض، (الرجل والمرأة) لتتكامل الحياة، وتتقاسم المسؤولية والأعباء، وأن تفضيل الرجل على المرأة يبدو في ظاهره محاباة للرجل، وظلما للمرأة، وخاصة من وجهة نظر أولئك المغرضين الذين يهدفون إلى ضرب الدين الإسلامي عن طريق المرأة، وخاصة دعاة التحرر والمساواة الذين صوروا المرأة المسلمة تصويرا بشعا؛ بأنها مسلوبة الإرادة، مقهورة مستعبدة، "وساقوا أحاديث موضوعة لحبس المرأة في

---

[1]– أبو الفضل شهاب الدين أحمد علي محمد بن محمد العسقلاني الشافعي، فتح الباري، ج7، دار احياء التراث العربي بيروت، لبنان، ط3، 1985، ص105.

[2]– العسقلاني الشافعي ، فتح الباري، ج7، مرجع سابق، ص105.

[3]– سورة الأحزاب، الآية 32.

[4]– العسقلاني الشافعي، فتح الباري، المرجع السابق، ص110.

أدنى درجات السلم الاجتماعي، واقتطعوا النصوص من سياقاتها لتأكيد مفاهيم حول دونية المرأة"[1].

وهذا خلق نوعا من التصادم بين (الرجل والمرأة)، وصل إلى حد كراهية المرأة للرجل، بل وصل أحيانا إلى تمرد المرأة على الرجل وعلى أنوثتها، دون أن تشعر أنها جنت على نفسها.

إلا أن المرأة لو نظرت إلى هذا التفاضل بعقلانية وبوعي تامين لأدركت أن تفضيل الرجل عليها وإن كان في ظاهره محاباة للرجل وتمييزا له عليها، إلا أنه في جوهره حمل ثقيل ومسؤولية مضاعفة، تكلف الرجل الكثير من المشاق والأتعاب التي لا تقوى عليها المرأة، ولا تتحمل صعابها وقد بين ذلك القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى مبينا ما يتحمله الرجل من الشقاء ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[2]

فالآية القرآنية بينت بوضوح " أن الخطاب في الآية للاثنين لآدم ولزوجه "فلا يخرجنكما من الجنة" للاثنين أيضا، وكان الأصل أسلوبيا أن يقول القرآن (فتشقيا) لكن القرآن عبر بهذا التعبير الموحي الذي يعطي لكل واحد منهما مهمته فقال (فتشقى) فجعل الترتيب في الشقاء لآدم فقط، فكان آدم مخلوقا للكفاح، ولجهاد الحياة، ولمقابلة صعابها"[3]

من خلال هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد قسّم بعض المهام بين الرجل والمرأة، وجعل بعضها مشتركا بينهما، وأن هذا التقسيم القائم على المفاضلة بين الرجل والمرأة، فيه حكمة بالغة، لو نظرنا إليها بعين ثاقبة لأدركنا

---

[1]– الصادق المهدي، الحقوق الإسلامية والإنسانية للمرأة، مكتبة الشرق الدولية، القاهرة ط جديدة، 2006، ص84..

[2]– سورة طه، الآية 117.

[3]– محمد متولي الشعراوي، مكانة المرأة في الإسلام، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ص149.

مدى أهميتها وما فيها من فوائد جمة، كثيرا ما تغفل عنها المرأة، فهو تكريم لها وإعلاء لقدرها، وصونا لكرامتها، وحفظا لها من كل ما يتعبها ويشقيها.

فهذا التفضيل أو بالأحرى هذا التقسيم الإلهي للمهام بين الرجل والمرأة، فيه منتهى العدل مع الرحمة.

وعلى هذا يجب على المرأة أن ترضي بهذه القسمة العادلة التي تجعل الرجل والمرأة كلاهما يكمل الآخر، للتكامل الحياة بينهما، فلا يشعر أحدهما بظلم الآخر. ولهذا فعلى المرأة أن ترضى بما قسمه الله لها؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وأن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط﴾.[1]

5- فضل الذكر على الأنثى:

على المرأة أن تعلم أن تفضيل الرجل عليها ليس كما يدعي بعض المغرضين انه ظلم لها، وهضم لحقوقها، ونصرة للرجل عليها، وقد استدل هؤلاء بمجموعة من الآيات القرآنية دون أن يتعمقوا في فهم معانيها، ودون فهم لأبعاد أهدافها، فيقولون أن الله تبارك وتعالى فضل الذكر على الأنثى مطلقا مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾.[2]

إن ظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أن الذكر أفضل من الأنثى مطلقا دون قيد أو شرط، ولهذا اتخذت كقانون عام يتعامل به الذكر مع الأنثى، واستدل بها

---

[1]- الحافظ أبو زكريا يحي بن شرف النووي، رياض الصالحين، كلام سيد المرسلين، الدار الذهبية للنشر والتوزيع القاهرة، ص27.

[2]- آل عمران، 36.

العامة على أفضلية الذكر على الأنثى دون مراعاة لوظائف كل واحد منهما، والتكاليف المنوطة بكل واحد منهما، لأنهم لو عرفوا ذلك لما كان هذا الحكم.

و لكن لو عدنا لكثير من التفاسير لوجدنا أنها تشير إلى أن المقصود من هذه الآية الكريمة أن (أم مريم) اعتقدت أن الذكر أفضل مطلقا من الأنثى فحزنت لما رزقت أنثى، ولكن تبين لها فيما بعد أن الأنثى قد تكون هي الأفضل من كثير من الرجال، وفي هذا المعنى نجد صاحب تفسير المنار يقول في تفسير هذه الآية الكريمة إن هذا خبر لا يقصد به الأخبار بل التحسر والتحزن والاعتذار، فهو بمعنى الإنشاء، وذلك أنها نذرت تحرير ما في بطنها لخدمة بيت الله، والانقطاع للعبادة فيه، والأنثى لا تصلح عادة لذلك"[1]، نتيجة لما يعتريها من عوارض تحول بينها وبين هذه المهمة وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، أي بمكانة التي وضعتها، وأنها خير من كثير من الذكور، ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور، وقد بين ذلك بقوله ﴿وليس الذكر﴾ الذي طلبت أو تمنيت كالأنثى التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي تقبل مريم من أمها ورضي أن تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته.[2]

إن هذه المقولة كما يبدو هي من كلام (أم السيدة مريم) فالمقولة لم تأت إذن من هذا الموضع لتقرير واقع وإثبات حقيقة، ووالدة مريم بقولها هذا لم تقصد الانتقاص من شأن الأنثى، وإنما قالت ما قالت لتبين أن وظيفة الذكر مختلفة عن وظيفة الأنثى. وما يصلح له لا يصلح لها، لكن تبين لها ولغيرها فيما بعد أنها كانت مخطئة. إذ تقبل ربها البنت بقبول حسن، واستطاعت هذه الأنثى القيام بالدور

---

[1]– رشيد رضا، تفسير المنار، ج3، ص223.

[2]– المرجع نفسه، ص289.

الذي تمنته لها أمها والذي بدا أولا مستحيلا على الأنثى وكانت أفضل من الذكر وكان لها شأن عظيم بشهادة ربها.[1]

صحيح أن الله سبحانه وتعالى حقق أمنية زوجة عمران التي تمنت أن تلد ذكرا ليقوى على خدمة بيت الله، فجعل هذه الأنثى المولودة تقوم بالدور الذي تمنته أمها، وكان لها شأن عظيم، ولكن ليس معنى هذا أن كل أنثى أو كل امرأة في الوجود هي مثل الرجل تماما أو أفضل منه؛ لأن لكل واحد منهما خصائصه ومميزاته وقدراته في مجاله الخاص به الذي من أجله خلق.

وهذه كانت مثل الرجل أو أفضل منه؛ لأنها كانت معجزة الله في خلقه، ألم يتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا، هيأها لأن تكون أما لنبي معجزة لم يسبق مثلها، ولا يمكن أن يأتي بعدها.

فالله قد اصطفاها واختارها على نساء العالمين، ولهذا لا يمكن أن نتخذها نموذجا لكل النسوة في الكون أنهن مثل الرجال أو أفضل منهم، أو أنهما يؤديان نفس المهام.

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف نلاحظ أن امرأة عمران حينما قالت: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ بدأت بلفظ الجلالة الدال على الربوبية، واستشعرت قرب الله منها مناجية داعية إياه منادية له ولهذا حذف حرف النداء في الآية فجاء على شكل المناجاة القريبة من الله؛ لأن النداء كما يقول منير سلطان: "هو صوت يهدف به المنادى لمن يريد منه أن يقترب أو يستمع أو يدرك ما لدى المنادي من قول يترجم

[1]– عابدة المؤيد العظم، سنة التفاضل، مرجع سابق، ص45.

رغبة أو يصور شعورا أو بشكل موقفا"[1]، ولهذا غالبا ما يحذف حرف النداء قبل لفظ الجلالة (الرب) لقرب الله من عباده المؤمنين، فهو دائم الحضور في الأذهان ولا يغيب عن الخواطر.

والحكمة في حذف حرف النداء (يا) من لفظ الجلالة (الرب) سبحانه وتعالى: للدلالة على التعظيم والتنزيه، والتعبير عن شعور الداعي بقربه من ربه، لأن النداء في الأصل يتشرب معنى الأمر، فحذفت (يا) من نداء الرب ليزول معنى الأمر ويتمحض التعظيم والإجلال[2].

و بعدما أيقنت بقرب الله منها قالت ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[3] فهي الآن في موقف البوح عما يجول بداخلها من شعور تُفصح به لربها وخالقها، فبدأت مؤكدة كلامها بأداة التوكيد (إن) إذ قالت (إني) أي ما أقوله يا رب حقيقة مؤكدة لا رجعة فيها وهو النذر الذي سأهبه لخدمة بيت الله.

ثم جاءت الآية الكريمة بتعبير دقيق حتى في استعمال الحروف ما يجعل كلام الله معجز في حروفه، وفي ألفاظه، وفي تراكيبه ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فاستعمال (ما) هنا كان استعمالا دقيقا؛ لأن (ما) حرف مبهم، والنذر الذي تحمله في بطنها كان أمرا مبهما غامضا فهي لا تدري ما تحمله في بطنها، فهو بالنسبة لها غيب، فاستعمالها (ما) مبهمة يحتمل أن يكون المولود ذكرا أو أنثى"[4] فالحرف في القرآن يحقق هدفا ويعبر عن غرض.

---

[1]– منير سلطان، بديع التراكيب في شعر أبي تمام، دار المعارف الإسكندرية، مصر، ط4، 2002، ص292.

[2]– عبد الفتاح لاشين، في البلاغة القرآنية، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، الحروف، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، تاريخ 2014، ص153.

[3]– سورة آل عمران، الآية 35.

[4]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، مج1، ص468.

ثم ختم هذا الجزء من الآية بقولها "محررا" بصيغة التذكير، أي مخلصا لعبادة الله وخدمة بيته "وإطلاق المحرر على هذا المعنى إطلاق تشريف؛ لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله تعالى"[1].

و قيل (جاء) بصيغة المذكر؛ لأنها تمنت أن يكون ما في بطنها ذكرا؛ لأنه في الغالب يكون المنذور ذكرا لذلك قالت (محررا) بصيغة المذكر... وربما قالت (محررا) بصيغة المذكر لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر"[2] ثم طلبت من المولى عز وجل أن يتقبل منها نذرها، لأنها تدرك أن العبرة في الأعمال الصالحة تكون بالقبول فقالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والتقبل أخذ الشيء على الرضى به، فهي تدعو الله على سبيل التضرع والتوسل أن يتقبل منها نذرها؛ لأن من تدعوه يسمع دعاءها، ويعلم نيتها وقد أكدت قولها هذا بأداة التوكيد (أن)، لأنها واثقة بسماع الله لدعائها، وعليم بنيتها، واللفظتان جاءتا على وزن فعيل أي على صيغة المبالغة التي تدل على الكثرة؛ لأن الله لا يغيب عن سمعه شيء فهو كثير السماع وعليم بكل شيء، فهو يعلم الجهر وما أخفى، ويعلم الغيب فهو علام الغيوب.

كما نجد في الآية (السمع) قد سبق (العلم)، لأن السماع له أهمية لا تقل عن أهمية البصر، فالسماع وسيلة من وسائل العلم والمعرفة.

و إذا تأملنا الآية التالية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾.

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص232.

[2]– محمد الرازي فجر الدين تفسير الفخر الرازي، ج4، دار الفكر، ص27.

فجاءت الآية مؤكدة بـ(إنَ) ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾، وتأكيد الخبر بـ(إن) مراعاة لأصل الخبرية، تحقيقا لكون المولود أنثى، إذ هو بوقوعه على خلاف المرتقب لها كان بحيث تشك في كونه أنثى، وتخاطب نفسها بنفسها بطريق التأكيد"[1]، فـ(أُم مريم) كان يحدوها الأمل أن تلد ذكراً فنذرته لله، ولكنها فوجئت بالمولود أنثى فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد في قلبها وتستسلم لما وقع، فجاء التعبير القرآني بـ(إن) اقرارا لهذا النبأ الجديد الذي لم تكن تتصوره؛ لأن دخول (إن) على الجملة يأتي للدلالة على أن المتكلم كان يريد أمراً فحدث أمر آخر ما كان يتوقعه، فيأتي بهذا التوكيد ليستقر هذا النبأ الجديد في ذهنه الذي لم يكن يتصوره من قبل[2]، ثم جاءت الآية القرآنية بجملتين معترضين ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾، فعلم الله سابق، فهو يعلم مسبقا أنها ستلد أنثى وهذا ما أراده ليصحح اعتقادا باطلا، بأن الأنثى لا تصلح لعبادة الله وخدمة بيته، فعبادة الله وخدمته ليست قصرا على الذكر ولا هي حكرا عليه.

فالآية الكريمة تبين أن طلاقة القدرة عند الله لا تتوقف عند حد، ولا تعرف الحواجز، فكما يصلح الرجل لعبادة الله وخدمته فالمرأة بإرادة الله وقدرته جعلها كذلك.

وفي هذا يقول بن عاشور: "والله أعلم بما وضعت؟ هذه جملة معترضة من كلام الله سبحانه وتعالى، وليس من كلامها المحكي والمقصود منه، أن الله أعلم بنفاسة ما وضعت، وأنها خير من مطلق الذكر الذي سألته، فالكلام إعلام لأهل القرآن بتغليطها، وتعليم بأن من فوض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره"[3] ثم

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص232.

[2]– عبد الفتاح لاشين، في البلاغة القرآنية، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، الحروف، مرجع سابق، ص126.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص133.

نلاحظ قوله تعالى في الجملة الاعتراضية الثانية ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ أنها عبارة عن ثنائية ضدية فجنس الذكورة غير جنس الأنوثة، وهذا الاختلاف في الجنس يدعو إلى الاختلاف في المهام، فالطباق القائم بين اللفظتين (الذكر والأنثى) بلاغيا تحدد الاختلاف الجوهري بينهما باستثناء الأمور التي ساوى فيها الله بين الرجل والمرأة؛ لأن هناك أمورا مشتركة بينهما يعود بعضها إلى أصلهما الإنساني فهما من أصل بشري واحد، ولكن بينهما بعض الفروق التي لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر، كما نلاحظ من الجانب البلاغي انتفاء المشابهة بين الذكر والأنثى[1] ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾.

كما نلاحظ أن اللفظتين جاءتا معرفتين بـ (ال) فتعريف "الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساويا لجنس الأنثى.

من خلال هذا يتضح لنا أن القرآن الكريم عبر بدقة واتقان عن ظاهرتي الاختلاف والائتلاف بين الرجل والمرأة بصورة بالغة الجمال وصياغة فنية بلاغية معجزة شكلا ومضمونا.

و بعد أن جاء التعبير القرآني مصورا حالة هذه الثنائية التقابلية بين الذكر والأنثى التي حيرت العقول ورسخت في الأذهان مفاضلة الرجل للمرأة مطلقا، حتى تمنت النسوة أن لا يلدن إلا ذكورا على غرار (أم مريم) ولكن الله سبحانه وتعالى قد عكس هذه النظرة السلبية للمرأة، وصحح مفهوما خاطئا، فجعل هذه الأنثى أفضل من الذكر الذي تمنته (أم مريم)، فكانت الجملتان المعترضتان ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ لتعظيم الموضوع، ورفع منزلة المولودة التي

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص235.

جاءت على عكس رغبتها ثم خلص التعبير القرآني إلى إعطاء صورة معبرة مظهرة استسلام (امرأة عمران) للمشيئة الإلهية بما قضت ارادته، داعية لهذه المولودة بأن يحفظها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، بعد أن احتارت لها اسما مناسبا لما كانت ترجوه من المولود الذكر، وهو التخلص لعبادة الله وخدمة بيته، لأن (مريم) عندهم تعني العابدة.

ولهذا تكرر التأكيد بأن في قولها (إني سميتها، إني أعيذها) " فكأنها أكدت الخبر إظهاراً للرضا بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدعاء لها على الرضا والمحبة".[1]

كما نلاحظ أن القرآن الكريم جاء بصيغة المضارع في قول أم مريم (أني أعيذها) لأن صيغة المضارع تدل على الاستمرار والتجدد".[2]

وبعد أن أودعت الأم هديتها بين يدي ربها، ودعت لها بالحماية والرعاية الدائمة والمستمرة هي وذريتها من الشيطان الرجيم، جاء البيان الرباني حاملا لها البشرى بأن الله قد تقبل منها نذرها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، "جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، والتجرد الكامل في النذر، وإعدادها لها أن تستقبل نفحة الروح وكلمة الله"[3].

و إذا تأملنا هذه الكلمات التي تتألف منها هذه الجملة القرآنية ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، نجدها تمتاز بجمال وقعها في السمع نتيجة لهذا التناسق والتجانس بين ألفاظها (فتقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا).

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج2، ص234.

[2]– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص6.

[3]– سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1971، ص580.

كما نلاحظ حسن التقسيم في هذه الجملة القرآنية، حيث ختمت كل جملة بفاصلة موحدة "فتقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا" فالحسن هو القاسم المشترك بين القبول والإنبات، وهذا يتسق تماما مع المعنى موحيا به.

كما نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ولم يقل (فقبلها) لأن تقبلها هو أبلغ من قبلها وزاده مبالغة وتأكيدا وصفه بالحسن، كأنه قال فقبلها ربها أبلغ قبول حسن[1]. كما أن الزيادة في المبنى هو زيادة في المعنى، كما أن وصف القبول والإنبات بالحسن، وعدم وصفهما بالجمال فيه مبالغة في القبول؛ لأن الجمال نسبي والحسن مطلق، فالله قد قبل هذه الأنثى قبولاً مطلقاً.

نجد في هذه الآية الكريمة، تعبيرا مجازيا بالغ الروعة والجمال حيث شبه الله (مريم) في تربيتها وتنشئتها وترعرعها بالنبات الذي ينمو ويكبر، ثم وصف هذا النبات بالحسن أي أنها تربت تربية حسنة، فتقبلها ربها بكل رضى، وهذا ما كانت ترجوه امرأة عمران من المولود الذكر، فقد حققه الله لها في هذه الأنثى التي أرادها الله على هذه الصورة وعلى هذه الحال.

وفي هذا يقول محمد حسين سلامة "شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئا فشيا، والكلام مجاز عن تربيتها مما يصلح في جميع أحوالها بطريقة الاستعارة التبعية"[2].

فالآية الكريمة رغم صغر حجمها فهي ترسم لوحة فنية مشحونة بمعان سامية، صور مشرقة، تدعو إلى التفاؤل والرضى بما قسم الله من الأولاد ذكورا أو إناثا دون اعتراض على إرادة الله، فالخيرة فيما اختاره الله، فالخير يكون في الأنثى كما يكون في الذكر.

---

[1]– محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج3، مرجع سابق، ص289.

[2]– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص161.

وألفاظ هذه الآية الكريمة موحية بالمعنى مخرجة إياه من إطاره المجرد إلى إطاره المحسوس المدرك، وهذه هي القيمة الجمالية للقرآن الكريم حيث يصيب الهدف بأقصر الكلام وأجمل المعاني والصور.

بعد أن بينت في الآية السابقة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ سبب تفضيل الناس الذكور على الإناث مطلقا، وهذا التفضيل سببه عدم معرفة الناس بسنة التفاضل القائمة بين المخلوقات جميعا، ثم بينت أن الذكر والأنثى نوعان متفقان في الأصل البشري، فكلاهما من جنس الإنسانية، وهما مختلفان من حيث نوع الذكورة والأنوثة.

و لهذا هناك أشياء تطلب من كل منهما كإنسان، وأشياء تطلب من الرجل كرجل، ومن المرأة كامرأة، ولذا فلهما مهمات مشتركة كجنس، ومهمات مختلفة كنوع".[1]

إن هذا الاتفاق والاختلاف في بعض المهام بين الذكر والأنثى لم يأت عبثا، بل بإرادة الله سبحانه وتعالى ليكمل أحدهما الآخر، ويحتاج أحدهما إلى الثاني لتكتمل الحياة بينهما، والله لم يعجزه أن يخلق نوعا واحدا من البشر، ولكن هذه إرادته وحكمته في خلق هذه الثنائية البشرية وأن يجمع بينهما فالله لا يعجزه الجمع بين النوعين وإن اختلفا.

أ- قوامة الرجل على المرأة:

وسوف أوضح في الآية التالية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ سبب التفاضل بين الرجل والمرأة، أو بالأحرى سبب مفاضلة الرجل للمرأة التي ذكرها الله سبحانه

[1]- محمد متولي الشعراوي، مكانة المرأة في الإسلام، مرجع سابق، ص140.

وتعالى في قوله ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[1].

قبل أن أقوم بتحليل هذه الآية الكريمة يجب أن أشير إلى معنى القوامة أولا لكي نفهم معنى الآية يقول الإمام الزمخشري في معنى القوامة: "ماء قائم: دائم وقام على الأمر: دام وثبت وقام الأمير على الرعية: وليها" وأقام الشيء: أدامه. وهو الحي القيوم: الدائم الباقي"[2]

و يقول صاحب لسان العرب: "وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، أي ملازما محافظا. ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات: يقال للماشي، قف: أي تحبس مكانك حتى آتيك".[3]

و يقول ابن عاشور "والقوام الذي يقوم على أمر شيء ويليه ويصلحه، يقال قوام، وقيام، وقيوم، وقيم، وكلها مشتقه من القيام المجازي الذي هو مجاز مرسل أو استعارة تمثيلية؛ لأن شأن الذي يهتم بالأمر ويعتني به أن يقف ليدبر أمره فأطلق على الاهتمام لعلاقة اللزوم، أو شبه المهتم بالقائم للأمر على طريقة التمثيل"[4].

من خلال هذه المعاني السابقة يتبين لنا أن القوامة تدل على الرعاية والعناية والحفظ وتدبير الأمر، وهذا المعنى يتماشى مع قول الله سبحانه وتعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فهذه الآية الكريمة لها أهمية كبرى؛ لأنها تحدد العلاقة بين

---

[1]– سورة النساء، الآية 34.

[2]– الزمخشري، أساس البلاغة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ص 528، ص529.

[3]– ابن منظور، لسان العرب، مج12، مرجع سابق، ص12.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج2، مرجع سابق، ص 38.

الرجل والمرأة وتوضحها، لذا علينا أن نفهم المعنى المراد من هذه الآية الكريمة، كما ورد في مجموعة من التفاسير

يقول صاحب النهر الماد: "لما ذكر تعالى أمر الرجال والنساء في اكتساب النصيب وأمرهم في الميراث، أخبر تعالى أن الرجال يقومون بمصالح النساء، وقواه بقوله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بتفضيل الله بعض الرجال على بعض، في كون هذا رزقه أكثر من هذا، وحال هذا أمشى من حال هذا، ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي على النساء... فالصالحات، قانتات أي صالحات في الخيرات وفي الدين، وعابدات لله تعالى".[1]

و يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير: "وقيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي ولذلك قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، أي بتفضيل الله بعضهم على بعض بإنفاقهم من أموالهم إن كانت "ما" في الجملتين مصدرية، أو بالذي فضل الله به بعضهم على بعض وبالذي أنفقوه من أموالهم إن كانت "ما" فيهما موصولة»[2]

من خلال هذه التفاسير نستطيع أن نقول أن القوامة هي حق اكتسبه الرجل بسبب إنفاقه على المرأة وبسبب حاجة المرأة إليه في الذب عنها وحراستها لبقاء ذاتها"[3] فالقوامة بهذا المعنى هي حماية، ورعاية، وإنفاق، وإشراف؛ وهذه الصفات يفترض أن تتوفر في كل رجل لا في كل ذكر. فالقوامة هي حكم خاص بالأزواج

---

[1]– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد البحر المحيط، ج1، مرجع سابق، ص157– 158.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص38.

[3]– المرجع نفسه، ص39.

وكل رجل قوام على زوجته فقط. بينما يسمى حكم الأب على ابنته أو على أولاده كلهم ولاية[1]

وما يؤكد هذا الرأي بأن القوامة لا تكون إلا للزوج ما ذكره ابن عباس في سبب نزول هذه الآية الكريمة، أن بنت محمد بن سلمة وزوجها سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار، لطمها فنشزت عنه، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له هذه الحادثة... فقال عليه الصلاة والسلام اقتصي منه، ثم قال لها اصبري حتى انظر، فنزلت هذه الآية ثم قال: ﴿أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خيرا﴾[2]

فسبب النزول يبين أن القوامة تكون للزوج لا غير وليس لجميع الرجال على جميع النساء حتى وإن قيل أن (ال) في الرجال والنساء تدل على استغراق الجنس، فالمقصود جنس الرجل أي الزوج وليس جنس الذكر، وجنس النساء أي الزوجات وليس الإناث، بهذا تتضح الصورة ويذهب الغموض، لأننا لو قلنا أن المقصود بالرجل الذكر، لاختلطت المسألة فالطفل الصغير ذكر ولكن ليس له حق القوامة؛ لأنه هو يحتاج إلى من يقوم عليه، وغير العاقل أو الذي لا يملك الأهلية من الذكور ليس لهم حق القوامة غير الأزواج[3] لهذا علينا أن نميز بين نوعين من الرعاية والحفظ، فرعاية الزوج وإنفاقه وإشرافه نسميها قوامه أما رعاية الأب أو الأخ، نسميها ولاية؛ لأن المرأة في جميع الحالات تحتاج إلى هذه الرعاية وهذا فضل من رب العالمين الذي خلقها ويعلم ضعفها وحاجتها إلى الرجل أبا أو أخا أو زوجا.

---

[1]– عابدة المؤيد العظم، سنه التفاضل، مرجع سابق، ص90– 91.

[2]– الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، ج10، مرجع سابق، ص91.

[3]– عابده المؤيد العظم، سنة التفاضل، مرجع سابق، ص90.

و مما يدل أيضا على أن القوامة خاصة بالزوج على زوجته تتمة الآية التي جاءت بعد قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[1]

فالآية الكريمة ذكرت نوعين من النساء الزوجات الصالحات اللائي يعملن بأوامر الله ونواهيه، وهؤلاء مطيعات لله ولأزواجهن، وحافظات للغيب بما حفظن الله به، أما النوع الثاني وهن اللائي تخافون نشوزهن (النشوز عصيان المرأة زوجها بالترفع عليه، واظهار كراهيته، أي إظهار كراهية لم تكن معتادة منها[2] وهؤلاء لهن حكم خاص يبدأ فيه بالوعظ ثم الهجر في المضجع وإن لم تفلح هاتين الوسيلتين فالضرب، "فالمقصود منه الترتيب كما يقتضيه ترتيب ذكرها مع ظهور أنه لا يراد الجمع بين هذه الثلاثة"[3]

وفي الأخير يختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فهي إشعار للرجل والمرأة بعلو شأن الله وكبير قدرته وعظمته، ولذا فعليهما امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فعلى الرجل أن يعلم أن القوامة ليست علوا على المرأة ولا تكبرا عليها، بل هي درجة فضل مقابل فضل يقوم به اتجاهها، وأن إباحة الله له تأديب المرأة ليس هدفه إضعافها وتحقيرها واستصغارها انما هدفه الحفاظ على الأسرة ولم شملها كما أن الآية تنبيه للمرأة وتحذير لها من التكبر

---

[1]– سورة النساء، الآية 34.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج5، مرجع سابق، ص42.

[3]– المرجع نفسه، ص42.

والعلو على زوجها؛ لأن في ذلك غضب الله العلي الكبير عليها فالآية كما يقول ابن عاشور: "تذييل للتهديد، أي أن الله عليٌّ عليكم، حاكمٌ فيكم، وهو كبير؛ أي قوي قادر، فبوصف العلو يتعين امتثال أمره ونهيه، وبوصف القدرة يُحذر بطشه عند عصيان أمره ونهيه".[1]

وعلى هذا فالآية تحذير وتنبيه للرجل والمرأة على السواء بعدم العلو والتكبر، فليحذر كلا منهما تجاوز ما كلف الله به، أو بالأحرى هي تهديد وإنذار للزوجين بعدم التكبر والعلو على بعضهما البعض؛ لأن فوق كل عال وكبير من هو أعلى وأكبر منه وهو الله سبحانه وتعالى فعليهما مراعاته في السر والعلن لأنه هو العلي الكبير الدائم الحضور الذي لا يغيب عنه شيء.

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾، سوف نلاحظ جمال التعبير ودقة التصوير، فالآية الكريمة بدأت بجملة اسمية، تفيد الدوام والاستمرار[2] لأن القوامة ليست خاصة بزمن معين فهي حكم عام صالح لكل زمان زمكان.

كما أن لفظتي الرجال والنساء جاءتا معرفتين بـ (أل) التي تفيد كما يرى بعض المفسرين[3] أنها لاستغراق الجنس فهي عامة، وتشمل كل الرجال أي الذكور، وكل النساء أي كل الإناث، ولكن إذا تأملنا بقية الآية الكريمة يتبين لنا أن المقصود بالرجال الأزواج، وبالنساء الزوجات لأن الآية التي جاءت بعد قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ توضح ذلك حيث يقول فيها الله سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فالنشوز لا يكون إلا من

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج5، مرجع سابق، ص42.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، مرجع سابق، ص277.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، المرجع السابق، ص39.

الزوجات كما يقول المفسرون[1] والهجر في المضجع لا يكون إلا للزوجة، فهل يهجر الرجل في المضجع غير زوجته؟

و لهذا يتبين لنا أن المقصود من الرجال هنا الأزواج وبالنساء الزوجات، وقد استعمل ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾[2] فاستعمل لفظ (النساء) والمقصود به (الزوجات)، كما خاطب الله زوجات النبي بقوله ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[3].

كما نلاحظ أن لفظة (قوامون) صيغة مبالغة جاءت على وزن فعال التي تفيد الكثرة وهذا للدلالة على أن الرجال هم المكلفون بالقيام بشئون النساء، بالإشراف عليهن والنفقة والمحافظة عليهن، والأخذ بأيدهن إلى الخير والصلاح.

ومن بديع الإعجاز في هذا التعبير القرآني صوغ قوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في قالب صالح للمصدرية وللموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن القيام سببه تفضيل من الله، والموصولية مشعرة بأن سببه ما يعلمه الناس من فضل الرجال من انفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين عالمهم وجاهلهم".[4]

---

[1]– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص58.

– وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مج2، مرجع سابق، ص262.

[2]– سورة النساء، الآية 23.

[3]– سورة الأحزاب، الآية 32.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص39.

كما نلاحظ أن قوله تعالى ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ جاء بصيغة الماضي للإيحاء إلى أن ذلك أمر قد تقرر في المجتمعات الإنسانية منذ القديم [1]، وليس أمرا مستجدا أو مستحدثا في الإسلام.

ومما أضفى على هذا التعبير جمالا هذا التجانس بين هذه الألفاظ ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ فهو جناس اشتقاق، كما أن لفظتي (قانتات)، للنساء الصالحات المطيعات لله ولأزواجهن، وقوله ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ التي استعملت لغير المطيعات؛ وهن المترفعات على أزواجهن؛ لأن النشز في اللغة: هو الترفع والنهوض ومنه نشز الأرض أي ارتفاعها.[2]

فألفاظ هذه الآية وضعت بدقة، بحيث أعطت صورة كاملة لنوعين من النساء، الصالحات، وغير الصالحات، وهذا التعبير التصويري بالكلمات لا يقوم به إلا خالق مبدع لهذا الكون بكل ما فيه.

بعد أن بينت في الآية السابقة معنى (القوامة) وأنها غير (الولاية)، فالقوامة فيها الكثير من القيود التي توجب على الزوجة الالتزام بها، فهي مأمورة بطاعة زوجها، وأخذ الإذن منه عند الخروج، وعدم إدخال أحد إلى بيته دون علمه حتى وإن كانت القوامة في الظاهر قيدا، فهي ليست عبودية ورقا، بحيث تلغى فيها رغبات المرأة وحاجتها وتلغى فيها شخصيتها، فتصبح إنسانا مقهورا مسلوب الإرادة.

وهذا ما لا يرضاه الله لعباده، لهذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ألا استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3 ، مرجع سابق، ص39.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، مج 5، مرجع سابق، ص484.

فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن لكم من نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن﴾.[1]

من هذا نصل إلى أنه إذا كان للقوامة فضل وشرف، فهو فضل الرعاية الحامية، وشرف تحمل المسؤولية، ولا فضل للقيّم المقصر في رعايته، أو الغافل عن أعباء مسؤوليته، ثم إذا كان للرجل فضل القوامة وشرفها، فإن للمرأة في المقابل فضل السكن، وشرف الأمومة. [2]

ورغم ذلك فالقوامة جعلها الله للرجل سواء أكانت فضلا وشرفا أم عبئا ومسؤولية، فهو في كلتا الحالتين قيم على المرأة شاءت أم أبت.

ب- تفضيل الرجل على المرأة بدرجة

وبعد آية القوامة التي اتخذها الناس قانونا عاما لتفضيل الرجل على المرأة رغم أنها لا تتعدى حق الرعاية والحفظ والإشراف، والمرأة العاقلة هذا يسعدها ولا يغضبها أن تجد من يقوم بحمايتها والإنفاق عليها، فهذا إكرام لها وإحسان إليها، ثم هناك آية أخرى من القرآن الكريم يتخذها الناس حجة يدعمون بها أراءهم في تفضيل الرجل على المرأة وهي قوله تبارك وتعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجة، مرجع سابق، ص297.

[2]- عبد الحليم محمد أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج5، دار القلم للنشر والتوزيع، القارة، مصر، ط6، 2002، ص100.

[3]- سورة البقرة، الآية 228.

إن هذه الآية الكريمة ﴿لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تعبر بوضوح على مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات، لها ما للرجل من الحقوق وعليها ما عليه من الواجبات، وقد اتفق معظم المفسرين على هذا المعنى وقد أشار إلى هذا المعنى بوضوح تام صاحب تفسير المنار فقال: "هذه كلمة جليلة جدا جمعت على إيجازها مالا يؤدي بالتفصيل إلا في سفر كبير، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق".[1]

فالآية رغم قصرها فقد رسمت حدود العلاقة الزوجية بين المرأة والرجل، مبينة مسؤولية كل واحد منهما تجاه الآخر، بحيث يعلم كل واحد منهما ماله من حقوق وما عليه من واجبات تجاه الأخر، وأن يؤديها بالمعروف أي بالإحسان دون ضرر طرف على الآخر.

و إذا كان معظم المفسرين قد أتفقوا على معنى هذه الآية الكريمة، فإنهم اختلفوا في كلمة (الدرجة) في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فمنهم من يرى أن هذه الدرجة هي في الميراث، والجهاد، والطاعة، والصداق، والطلاق[2]. غير أن سيد قطب يرى أن هذه (الدرجة) ليست مطلقة الدلالة وإنما هي مقيدة بحق الطلاق، والمراجعة للرجل؛ لأن هذه الآية جاءت خاتمة لآية قبلها تتحدث عن الطلاق، والعدة، والرجعة، وأحكام الطلاق بصفة عامة، فالآية يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾[3]، فهذا السياق يبين أن المقصود بالدرجة هي العصمة التي بيد الرجل، وقد أشار إلى هذا

[1]– محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار ج2، مرجع سابق، ص375.

[2]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ج1، مرجع سابق، ص222.

[3]– سورة البقرة، الآية228.

المعنى سيد قطب فقال: "وقد جعل هذا الحق في يد الرجل لأنه هو الذي طلق؛ وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطي حق المراجعة لها هي! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها فهو حق تفرضه طبيعة الموقف وهي درجة مقيدة في هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون ويستشهدون بها في غير موضعها".[1]

وهذه الدرجة كما يقول محمد علي الصابوني "هي درجة تكليف لا تشريف لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لتبين أن العزة لله وحده حتى لا يظن أن صاحب الدرجة عزيز قوي، والمرأة ذليلة مقهورة، وأنه حكيم في فرضه هذه الأحكام على الأزواج. فالآية تعقيب مشعر بقوة الله الذي يفرض هذه الأحكام وحكمته في فرضها على الناس، وفيه ما يرد القلوب عن الزيغ والانحراف.[3]

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4]، والمتأمل في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجد فيها جمال التركيب، وبديع الكلام، وبلاغة الإيجاز، وهو إيجاز بالحذف، "فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ومن الثاني بقرينة الأول والمعنى ولهن على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق"[5].

ففي هذا الإيجاز بالحذف جمال بياني لا يخفى على أي قارئ لهذه الآية الكريمة.

---

[1]– سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ص360.

[2]– محمد علي الصابوني صفوة التفاسير، ج1، مرجع سابق، ص146.

[3]– المرجع نفسه ، ص 360.

[4]– سورة البقرة، الآية 228.

[5]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، مرجع سابق، ص147.

كما نلاحظ في نفس الجملة القرآنية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ محسن بديعي أضفى على هذه الجملة جمالا ورونقا حيث نجد في هذه الثنائية الضدية بين " لهن وعليهن" طباق إيجاب، وقد أضفى على الكلام حسنا وزاد الدلالة وضوحا.

كما نجد الدقة في اختيار الألفاظ وترتيبها في الآية، فقد جاءت لفظة (المعروف) قبل لفظة (الدرجة)، لأن المعروف يدل على الإحسان، والإحسان يوحي بالرقة والعطف والرحمة، على عكس الدرجة التي تعني الرتبة والمنزلة[1]، فهي توحي بالعلو والتميز والفوقية، وهي منزلة من منازل العلو والرفعة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا﴾[2]، فهي تدل على العلو والسمو، وقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾[3]، فهي تدل على المنزلة الرفيعة والشأن العظيم.

هكذا سبق (المعروف) (الدرجة)، حتى يتذكر الرجل الإحسان قبل التميز الذي قد يدفعه إلى الظلم والقهر والشدة والعنف، وتدفعه إلى الشعور بالعزة فيتعالى على المرأة ويظن أنه أوتي الحكمة لذا أوتي هذه الدرجة، فجاء تعقيب الله على تلك الدرجة بقوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أن العزة لله وحده، والحكمة صادرة منه، فهو بحكمته أعطى هذه الدرجة للرجل ليعلم أنه عبد مأمور، وعلى المرأة أيضا أن تدرك حكمة الله من هذا التفضيل فلا تنقم ولا تثور على أمر الله وإرادته وحكمته، وأن ما فعله هو لمصلحتها، فعليها أن ترضى بقسمة الله العادلة.

من خلال ما سبق يتضح لنا جمال التعبير القرآني في إيجازه وإفادته، فهو يجمع بين الإيجاز والإيضاح، والآية الكريمة رغم قصرها فقد جمعت بين جمال

---

[1]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، مرجع سابق، ص455.

[2]– سورة طه، الآية 75.

[3]– سورة غافر، الآية 15.

اللفظ، وجلال المعنى، ورسمت صورة متكاملة لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وهذا التصوير المبدع لا يقوم به إلا مصور الكون ومبدع الوجود.

ج- النهي عن التمني:

لقد وضحت في الآية السابقة أن للنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات، وأن المراد بالمماثلة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ كما يقول صاحب روح المعاني "ولهن عليهم مثل الذي لهم عليهن، والمراد بالمماثلة في الوجوب لا في جنس الفعل، " لا يجب عليه إن خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك، ولكن يقابله بما يليق للرجال".[1]

إن هذا المثل الذي ضربه (صاحب روح المعاني) كان صالحا في زمانه، عندما كان الرجل يتقاسم المهام مع المرأة، ولكن اليوم تداخلت وظائفهما ومهامهما، ولم يعد هناك فرق بين أعمال النساء وأعمال الرجال في زماننا، بل أصبحت المرأة تقوم بأعمال الرجال، بل تنافسهم في بعض المهام الصعبة، حيث أصبحت جندية في الحروب، وشرطية في الطرقات، وقائدة طائرة، وعاملة في المصنع، وبائعة في المتجر، ولاعبة كرة قدم.

فـ(الدرجة) كما يقول (الألوسي البغدادي) تعني المرقاة، ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة[2] وهذه المنزلة قد دفعت الكثير من النساء تمني الذكورة اعتقادا منهن أن الذكر أفضل من الأنثى مطلقا، فهو يفوقها في الميراث، والجهاد وشهادة امرأتين برجل، هذه المزايا دفعت ببعض النساء تمني الذكورة، وقد ظهرت هذه الأمنية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إن اللائي تمنينها كن من الصحابيات فقد

---

[1]- الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج2، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص135.

[2]- الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج2، مرجع سابق، ص135.

روي عن أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت " ليتنا كنا رجالا"[1] وقد ذكرت للرسول صلى الله عليه وسلم الأسباب التي دعتهن إلى تمني الذكورة، وقد أورد الفخر الرازي في تفسيره أسباب نزول هذه الآية الكريمة فقال" ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوها: قال مجاهد قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولهم من الميراث ضعف ما لنا، فليتنا كنا رجالا فنزلت هذه الآية، قال السدّي لما نزلت أية المواريث، قال الرجال نرجو أن نفضل على النساء في الآخرة كما فضلنا في الميراث، وقال النساء نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما في الميراث، فنزلت الآية[2] ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3] فالآية الكريمة بدأت بالنهي عن التمني، فما معنى التمني أولا؟، ولما نهي عنه؟.

فالتمني هو طلب حصول أمر محبوب لا يرجى الحصول عليه لاستحالته أو لبعد منالـه[4]، وقد أوردت التفاسير مجموعة من المعاني للتمني وكلها تصب في هذا المعنى.

"فالنهي عن التمني وتطلع النفس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عاما فكان كالتذييل للأحكام في الآيات السابقة لسد ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور، وقد كان التمني من أعظم وسائل الجرائم؛ لأنه

---

[1]– عابدة المؤيد العظم، سنن التفاضل، مرجع سابق، ص31.

[2]– الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، مج5، مرجع سابق، ص84.

[3]– سورة النساء، الآية 32.

[4]– بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم المعاني، ج1، ط3، 1992، دار العلم للملايين، بيروت، ص81.

يفضي إلى الحسد وقد كان أول جرم قد حصل في الأرض قد نشأ عن الحسد[1]، لذا نهى الله عن التمني كما فسر ذلك الطبري فقال: "ولا تتمنوا أيها الرجال والنساء الذي فضل الله به بعضكم على بعض من منازل الفضل، ودرجات الخير، وليرضى أحدكم بما قسّم الله له من نصيب، ولكن سلوا الله من فضله"[2]

فالآية بهذا المعنى نهي عن تمني ما خص الله به بعض الناس دون غيرهم سواء أكان ذلك من أمر الدين أم الدنيا؛ لأن ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض بينهم، وليرضى كل إنسان بما قسم الله له، فهي قسمة عادلة من حكيم عليم، له الحكمة العالية في تدبير أمور الناس، وعلم كامل بأحوال العباد وما يصلح لهم، ثم تأتي الآية بعدها ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

فالآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى ذكر الرجال والنساء كل واحد من النوعين بخصوصه، بمعنى الرجال يختصون بما اكتسبوه والنساء اختصصن بما اكتسبن من الأموال، والنصيب الحظ والمقدار، وهو صادق على الحظ في الآخرة والحظ في الدنيا.[3]

و(الاكتساب) السعي للكسب وقد يستعار لحصول الشيء ولو بدون سعي[4] كما في الميراث والهبة والصدقة كلها كسب لكن دون سعي أو دون عمل أو جهد.

وفي الأخير ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فالمعنى لا تتمنوا ما في يد الغير واسألوا الله من فضله، فإن فضل

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج5، مرجع سابق، ص28.

[2]– أبو جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج5، مرجع سابق، ص48.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج2، مرجع سابق، ص98.

[4]– المرجع نفسه ، ص32.

الله يسع الإنعام على الكل فلا أثر للتمني إلا تعب النفس[1]، وأن الله بكل شيء عليم يعلم ما في نفوس الناس وما يليق بهم، لذا "جعل الناس طبقات ورفع بعضهم فوق بعض درجات".[2]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الآية الكريمة بينت بوضوح النهي عن التمني بين الجنسين لما فيه من اعتراض على قضاء الله وإرادته في خلقه، فالله قد جعل للرجال نصيبا مما اكتسبوا من أمر الدين أو من أمر الدنيا وللنساء نصيب أيضا، فلا يجوز لأحدهما أن يعترض على قسمة الله، لأن التمني كما يقول صاحب التحرير والتنوير، التمني يحبب للمتمني الشيء الذي تمناه، فإذا أحبه أتبعه نفسه فرام تحصيله وافتتن به، فربما بعثه ذلك الافتتان إلى تدبير الحيل لتحصيله إن لم يكن بيده، وإلى الاستئثار به عن صاحب الحق فيغمض عينيه عن ملاحظة الواجب من إعطاء الحق صاحبه وعن مناهي الشريعة... وقد أصبح هذا التمني في زماننا هذا فتنة لطوائف المسلمين سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة... فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء ويعانون إرهاقا لم يحصلوا منه على طائل.[3]

و التمني لم يتوقف عند حد تمني الأنصبة من الكسب وإنما تعدى ذلك إلى تمني الإناث الذكورة لأسباب عدة ذكرتها "عابدة المؤيد" في كتابها "سنن التفاضل" قائلة "أن بعض النساء مقتن الأنوثة لذاتها، وأردن بهذه الأمنية التخلص منها؛ لأنهن ظنن الذكورة هي الأفضل مطلقا، وبعض النساء وتمنين الذكورة تخلصا من "القوامة" و"الولاية" ورغبة بالحرية التامة... وأخريات تمنين الذكورة كي يتخلص من

---

[1]– المرجع نفسه، ص32.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، مرجع سابق، ص272.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص28– 29.

قيود الأنوثة ويتساوين مع الرجال في عدة قضايا كالميراث والشهادة وحق الطلاق، ومن النساء من أردن الأخرة بهذه الأمنية فرغبن بأجر الجهاد".[1]

ومن الرجل أيضا من تمنى الأنوثة هروبا من مسؤولياته اتجاه المرأة، ومن كده في السعي على الأسرة، ورغبته في التخلص من عبء القوامة والتي تعتبر بالنسبة له قيدا فتمنى الفكاك منها.

إلا أن الله سبحانه وتعالى نهى عن التمني الذي يفضي إلى الحسد مهما كان نوعه، وعلى الإنسان أن يسأل الله من فضله وخزائنه التي لا تنفد، وأن لا يعترض على إرادة الله أو عن قسمته، فإرادته خير كلها، وقسمته عادلة حتى وإن كنّا لا ندرك كنهها فله من ذلك حكمة بالغة وعدل ظاهر.

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة سوف ندرك أن فيها من الدقة والإتقان في التعبير عن هذه الأفضلية والنهي عن تمنيها بأسلوب يشرح الصدر، وينير العقل، ويثبت التوازن حيث بدأت الآية الكريمة بالنهي عن التمني؛ والنهي هو: "طلب الكف عن الفعل والامتناع عنه على وجه الاستعلاء والالزام".[2]

فطلب الكف عن التمني في هذه الآية جاء من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو ملزم لكل مسلم ومسلمة، لأنه صادر من صاحب الحكمة البالغة والعدل المطلق.

والنهي عن التمني جاء بصيغة المضارع المذكر، والمضارع يفيد حصول الفعل في الحاضر أو المستقبل، أي أن النهي عن التمني مستمر مع الجنسين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كما أن النهي عن التمني جاء بصيغة المذكر التي تفيد هنا الذكورة ويدخل ضمنها الأنوثة، فصيغة المذكر جاءت للتغليب وهو يشمل الجنسين معا.

---

[1]– عابدة المؤيد العظم، سنن التفاضل، مرجع سابق، ص 37.

[2]– بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج1، مرجع سابق، ص109.

كما نلاحظ قوله تعالى: ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إيجاز بديع وهو يشمل ما فضل الله به بعض الرجال على بعض، وما فضل الله به بعض النساء على بعض، وما فضل به جنس الرجال على النساء، وما فضل به جنس النساء على الرجال، من حيث أن الخصوصية فضل أي زيادة في صاحبها على غيره، وما فضل به بعض الرجال على بعض النساء، وما فضل به بعض النساء على بعض الرجال، والفضل أنواع منه الكسبي ومنه الفطري»[1]

إذن فالتفاضل على نوعين منه ما يبذل فيه الإنسان الجهد لتحصيله كالعلم والمال ومنه ما يزود به الإنسان من الله سبحانه وتعالى كالجمال والقوة، فهذه الأمور كلها اختصرت في قوله ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ويعلق محمد علي الصابوني على هذه الآية بقوله: "لو قال الله بتفضيلهم عليهن لكان أخصر وأوجز، ولكن التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة، وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الانسان وكذلك العكس... فلا غنى لواحد عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فظهر أن الآية في غاية الإيجاز والإعجاز"[2].

و إذا كان هذا الجزء من الآية موجز معجز، فالجزء الذي يليها عكس ذلك ففيه إطناب في قوله ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ لأن الموقف يستوجب ذلك، حتى يزول الظن بأن هذه الأنصبة المحددة من الميراث أو من الأجر للرجال فحسب، لهذا فصل الأمر وذكر الرجال والنساء على السواء

[1]– محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج5، مرجع سابق، ص59.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، مرجع سابق، ص278.

ليزيل اللبس عن الأذهان فلكل واحد منهما حقه، فالآية كما نلاحظ فيها توازن بين الإيجاز والإطناب، مما أضفى على التعبير جمالا ورونقا.

وفي الآية من البيان ما يزيد المعنى قوة وبلاغة فنجد لفظة واكتسبوا استعملت في معناها المجازي، لأن الاكتساب في الأصل لا يكون إلا بالعمل والجد، والميراث حق مكتسب دون مجهود ففي اللفظة استعارة حيث شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكتساب، واشتق من اللفظ (اكتسبوا) على سبيل الاستعارة التبعية".[1]

ثم يأتي قول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حيث يبدأ بالأمر: "وهو طلب الفعل على وجه الاستيلاء والإلزام".[2]

فالله سبحانه وتعالى قد أمر الناس جميعا رجالهم ونساءهم بطلب العون منه، فهو صاحب الفضل العظيم، والطلب صادر من صاحب المنزلة الرفيعة والمقام الأعلى الذي لا يرد سائله.

وبعد أن بين الله الطريق السليم للبعد عن التمني الذي يتعب النفس ويفضي بها إلى الحسد، جاء في الختام بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهي تهديد وإنذار لمن يتمنى ما في يد الآخرين بأنه يعلم السر وما أخفى حتى ينتهوا عن التمني والحسد.

فالآية الكريمة بمجملها رسمت صورة لبعض النفوس الضعيفة التي لا ترضى بقسمة الله العادلة بين عباده، بأساليب متنوعة جمعت بين النهي والأمر والإخبار، فهي مزيج من الأساليب الإنشائية والخبرية التي جعلت من المعاني الذهنية المجردة، واقعا محسوسا نراه تارة ونسمعه أخرى، وفيها تناوب بين الإيجاز

(1)– محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص74.

(2)– عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، مرجع سابق، ص123.

والإطناب وهذا التوازن منح الآية تناسقا وتناغما بين الألفاظ والمعاني، وهذا سر من أسرار الإعجاز القرآني.

لقد تبين لي من خلال هذه الدراسة أنه لا مجال للشك أن المفاضلة سنة كونية بين جميع الموجودات، وليست خاصة بالرجل والمرأة فحسب، وهي لا تعني التميز والتطاول، والكبر، وإنما تهدف إلى تنظيم البيت بتقاسم المسؤوليات بين الرجل والمرأة، وفضل الذكر على الأنثى ليس انتقاصا لكرامة المرأة أو هضما لحقها، وإنما هو تكريم لها وإعلاء لشأنها، وصون لكرامتها، وإعفاؤها من المسؤوليات الصعبة كالإنفاق.

فالقوامة هي مسؤولية وعبء زائد على الرجل، "فهي قوامة رعاية، وإدارة، وليست قوامة هيمنة وتسلط".[1]

فالمفاضلة مصدرها ليس أن ذات الرجل أفضل عند الله من ذات المرأة، وإنما مصدرها الأفضلية المصلحية، التي تتوافق مع إمكانات الرجل ووظيفته في الإنفاق على الأسرة، ورعايته لها، حفاظا عليها من التفكك والضياع.

[1]– محمد سعيد رمضان البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، مرجع سابق، ص105.

الفصل الرابع:

حضور المرأة في القصص القرآني

مفهوم القصة

قبل التطرق إلى دراسة بعض النماذج النسوية الواردة في القصص القرآني كان لزاما الإشارة إلى تعريف القصة وبيان ماهيتها لغة واصطلاحا، ولما سيقت في القرآن الكريم؟.

تعريف القصة لغة: إن لفظة القصة لم ترد في القرآن الكريم وإنما الذي ورد فيه هو لفظ "القصص" بفتح القاف

" فالقصص جمع قصة وهي الخبر والحادثة، وتقصص الخبر أي تتبعه، واقتصصت الحديث رويته على وجهه، والقص البيان، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها، وقص الأثر تتبعه"[1]

قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[2] أي رجع موسى وفتاه من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر أي يتتبعانه[3]

فالقصة في اللغة كما ودرت في كثير من المعاجم العربية تدل على معنى الإتباع أي إتباع الخبر المقصوص أو الحديث أو إتباع الأثر أو إتباع الحادثة للكشف عن الحقيقة والوصول إلى الهدف المتمثل في العبرة والعظة مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[4]

تعريف القصة اصطلاحا: فالقصة كما يعرفها الدكتور يوسف نجم قائلا: "القصة هي مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب وهي تتناول حادثة واحدة أو عدة حوادث تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، مادة قص، ج5، مرجع سابق، ص3650.

[2]– سورة الكهف، الآية 64.

[3]– ابن منظور لسان العرب، المرجع السابق، ص3650.

[4]– سورة يوسف، الآية 111.

الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، ويكون نصيبها من القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير"[1]

إن هذا التعريف لا يمكن بحال من الأحوال أن ينطبق على القصة القرآنية، فهو ينطبق على القصة العادية أو بالأحرى البشرية التي هي صورة مموهة عن الواقع، فأحداثها وشخصياتها من صنع الخيال، على عكس القصة القرآنية التي تروي أخبارا حقيقية، وأحداثا وقعت بالفعل في زمان ومكان حقيقيين قام بها أشخاص حقيقيون، وليسوا من صنع الخيال، "فالقصة الفنية القرآنية، هي حقيقة من حقائق الحياة، وشخصياتها من خلق الله، عاشوا أعمارهم ثم قضوا أفعالهم، وجسدوها على مسرح الحياة كما وردت في أحسن القصص"[2]

و على هذا فالقصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية... ولكن هذا لم يمنع من بروز بعض الخصائص الفنية في عرضها"[3]

فالقصة القرآنية على حد تعبير السيد قطب " تجمع بين المقصدين الديني، والجمالي الفني، فهي جزء من القرآن الكريم، ولذا فهي لم تخرج عن أغراضه الدينية والأخلاقية والاجتماعية التي تعمل على تربية النفوس البشرية وتهذيب أخلاقهم، وقد صيغت بأسلوب بياني جميل، "و الجمال هو إحدى القيم الإنسانية التي عمل القرآن على إحيائها وتزكيتها وتربيتها في نفس الفرد والمجتمع حتى يستقيم أمر الوجود

[1]– محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دت، ص09.

[2]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، ص239، 240.

[3]– سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق بيروت، ط7، 1982، ص143.

الإنساني وحضارته، وحتى يستقيم الفكر الإنساني في نظرته إلى ماضيه وتطلعه إلى مستقبله وتقديره لحاضره وواقعه"[1]

و على هذا فالقصة القرآنية تجمع بين سمو الهدف وشرف المقصد مع قوة الإقناع وروعة الإمتاع، بأسلوب مشوق بلغ حد الإعجاز في البيان والبلاغة يستهوي النفوس، ويسلب العقول؛ لأنها كلام الحق الصادق الذي تحدى الله به أفصح العرب.

و الدارس للقصص القرآني يدرك أن للمرأة فيه حضورا قويا وحظا وافرا، بحيث لا نكاد نجد قصة ذكر فيها نبي أو رسول إلا وذكرت معه امرأة، بل هناك من الأنبياء والرسل ما ذكر معه أكثر من امرأة، كسيدنا "موسى" عليه السلام الذي ذكر معه ثلاث نسوة هن أمه، وأخته، وابنتي الرجل الصالح، وكل نموذج من هذه النماذج الثلاثة يمكن أن يتخذ منها العبرة والعظة، وأن يتخذها الإنسان قدوة في حياته، فـ(أم موسى) نموذج للأم الصابرة المستسلمة لمشيئة الله، المؤتمرة بأمره، والمنتهية بنهيه، والواثقة في وعده؛ لأن الله جل شأنه قال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

ومن كانت هذي حالها فوثقت بوعد الله الحق يأتيها الفرج قريبا، وفي ذلك يقول دكتور عبد الكريم زيدان: "ومن أمثلة الفرج السريع رد موسى وهو رضيع إلى

[1]– محمد عبد الواحد حجازي، الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، الناشر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط1، ص8.

[2]– سورة القصص، الآية 7.

أمه بعد أن ألقته في اليم"[1] وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[2]

وأما "أخت موسى" فهي مثال وقدوة للبنت المطيعة لأوامر أمها، والأخت الحنون المحبة لأخيها، التي تتحمل مسؤولية تتبع أثره من مكان بعيد فتتخذ في ذلك الحيطة والحذر، والحيلة للحفاظ على أخيها من الهلاك واسترجاعه إلى أمه ليعيش في كنف أسرته، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[3]

أما (ابنتي الرجل الصالح) أو (ابنتي شعيب) على حد تعبير بعض المفسرين[4] كما جاء في حادثة السقي من قِبل موسى عليه السلام حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾[5]

فهاتان الفتتان نموذج للفتاة البارة بوالدها حال كبره والتي تتحمل عبء العمل مهما كان شاقا، وفي نفس الوقت فهي مثال للخلق الرفيع الذي يجعلها تبتعد عن

---

(1)– عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ج1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص362.

(2)– سورة القصص، الآية 130.

(3)– سورة القصص، الآية 11–12.

(4)– الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ج3، دار الجيل، بيروت، ص201.

(5)– سورة القصص، الآية 24.

مواطن الشبهات فلا تختلط بالرجال، فالعمل مسؤولية إذا احتاجت إليه المرأة، والعفة خلق نبيل على كل فتاة أن تتمسك به، والحياء من أعظم الصفات التي تزين الفتاة، "وهو حالة تعتري الشخص تحمله على تجنب الرذائل"[1] مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[2] وهذا الحياء لم يمنعها من أن تطلب من أبيها بأسلوب لا يخدش الحياء الأنثوي حقها في أن تكون إلى جوار رجل أمين وقوي"[3]

إلا أن المتتبع للدراسات القرآنية، وخاصة القصص منه، سوف يلاحظ أن جل الدراسات ركزت على الرجال من الأنبياء والصالحين، أو على بعض الطغاة، كفرعون، وهامان، وجنودهما، أما النساء فقليل ما يتعرض لهن بالدراسة إلا كنماذج ثانوية شاركن في بعض أحداث القصة، رغم أن هناك بعض النماذج النسوية التي أدت دورا فعالا في القصة القرآنية، فهناك شخصيات محورية تدور حولها الأحداث إيجابا أو سلبا، بحيث يمكن للنماذج الايجابية أن تتخذ مثالا وقدوة يحتذى بها في الحياة اليومية، والنماذج السلبية يتخذ منها العبرة والعظة حتى لا يسلك أحد سلوكها فيقع فيما وقعت فيه من الأخطاء والزلات.

و هذه النماذج النسوية التي وردت في القصص القرآني ايجابية كانت أم سلبية ليس الهدف منها التسلية أو الفن أو التاريخ، إنما له مقاصد سامية، وأغراض حكيمة، وفوائد متعددة تتواكب وتتناسب مع المقصد العام للقرآن الكريم، وهو هداية البشرية إلى ما يصلحها في عاجلها وآجالها، في معاشها ومعادها، مصداقا لقوله

---

[1]– الصاوي، حاشية الصاوي، ج3، مرجع سابق، ص201.

[2]– سورة القصص، الآية 25.

[3]– محمد طوال، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص104.

تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.[1]

" فالقصص القرآني عظة وعبرة، وهداية ورحمة، وتفصيل وبيان، وتثبيت للقلوب وتربية للنفوس وسمو بالأرواح"[2]، وسوف أتناول بالدراسة في القصة القرآنية نموذجين من النساء، نموذج إيجابي يرمز للعفة والطهارة، وهي (مريم العذراء) ليقتدى بها في الحياة، والآخر نموذج سلبي يمثل الرذيلة وهي (امرأة العزيز) ليتخذ منها العبرة والعظة.

النموذج الإيجابي: (مريم العذراء)

ومن القصص النسوي الإيجابي قصة (مريم العذراء) التي ذكرها القرآن الكريم بالاسم، تشريفا لها، وتكريما لمنزلتها بين النساء، لأنها نموذج فريد لا يتكرر على مدى الأزمان، كما يرى بعض المفسرين[3]، لذا خصها الله بالاسم، إلا أن هناك من يرى أن السبب في ذلك يعود إلى أن ملوك العرب وعلية القوم منهم لم يكونوا يذكرون اسم الحرائر من النساء والزوجات صراحة ، بل كانوا يذكرون أسماء الإماء من غير الحرائر، فجاء القرآن بلغتهم ليبين أن مريم هي أمة من عبيد الله، وليست إلهة كما يزعم البعض، كما أنها ليست زوجة لله، ولهذا ذكر اسمها صراحة أربعا وثلاثين مرة.[4]

أرى أن القرآن الكريم قد خصها دون نساء العالمين بذكر اسمها صراحة بيانا لمنزلتها الرفيعة في العفة والطهر، ورفعا لشأنها بين النساء، كما أن القرآن أراد أن

---

[1]– سورة يوسف، الآية 111.

[2]– محمد احمد الشرقاوي المرأة في القصص القرآني، ج1، دار السلام، القاهرة، ط1، ص26.

[3]– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص372.

[4]– أحمد عمر أبو شوفة ، المعجزة الكبرى في القرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بن غازي، ليبيا، ط1، 2002، ص111.

يصوب عادة جاهلية وهي التحفظ على أسماء الزوجات والحرائر، بأن تجعل العربي يخجل من ذكر زوجته، فذكرها الله بالاسم صراحة رغم أنها كانت حرة أبا عن جد، ومصطفاة عن سائر النساء، وذلك بيانا لخطئهم وتصويبه.

حياة السيدة مريم العذراء

أ- مريم السيدة المصطفاة

إن المتتبع لقصة العذراء في القرآن الكريم يدرك أن الله قد اختارها من نسل طيب، من بيت النبوة وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾"[1]

و مريم العذراء هي ابنة "عمران بن ماثان" أحد أحبار بني إسرائيل الذين طال بهم العمر هو وزوجته" حناء بنت فاقوذ" ولكنهما لم ييئسا من روح الله، وظلت أمها تدعو الله أن يرزقهما بولد تجعله في خدمة بيت الله[2] وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾"[3]

---

[1]- سورة آل عمران، الآية 32، 34.

[2]- عبد المنعم الهاشمي، قصص النساء في القرآن، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، ص11.

[3]- سورة آل عمران، الآية 35- 36.

يقول السيد قطب: "وقصة النذر تكشف عن قلب امرأة عمران (أم مريم) وما يعمره من إيمان، وهي تتوجه إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصا لربها، محررا من كل قيد، ومن كل شرك، ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه وتعالى... وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران أن يتقبل ربها نذرها وهو فلذة كبدها، ينم عن الإسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه"[1] إلا أن أمنية أم مريم لم تتحقق لأن المولود كان أنثى وهي كانت تتمناه ذكرا حتى تجعله في خدمة بيت الله فتوجهت إلى الله متأسفة حزينة، قائلة ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾[2] وكانت معتقدة أن المهمة التي نذرت من أجلها ما في بطنها لا يقوم بها إلا الذكور، ولكن الله ييسر من يشاء لما يشاء، ثم ذكرت اسمها، والغرض من ذكر اسمها على علام الغيوب إظهار عدم رجوعها عن نيتها حتى وإن كان المولود أنثى، وأنها إن لم تكن خليقة بسدانة بيت "المقدس" فلتكن من العابدات فيه، واستقلالها بالتسمية لكون أبيها مات، وتقديم المسند إليه للتخصيص يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أبوها، كما أن مريم تعني في لغتهم "العابدة"[3]

و يقول السيد قطب في تعليقه على هذه الآية الكريمة: "و هذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة، مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه، يحدثه بما في نفسه، وما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديما مباشرا لطيفا، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم، حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة

---

[1]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1971، ص578.

[2]– سورة آل عمران، الآية 35.

[3]– محمود شلبي، حياة مريم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، ص40.

البسيطة العبارة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحس أنه يحدث قريبا ودودا مجيبا"[1]

و بعد هذه المناجاة تضع الأم ابنتها بين يدي ربها، وتعيذها به أن يحميها وذريتها من الشيطان الرجيم، ولكن هنا سؤال يطرح نفسه، كيف عرفت أم مريم أن ابنتها سيكون لها ذرية؟، فتدعو الله أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، وخاصة إذا عرفنا (أم مريم) قد نذرت لله أن تقدم مولودها لخدمة بيت الله، وأن يكون محررا من كل شيء متوجها بكليته إلى الله، بحيث لا يشغل بالزوج والأولاد؟

و الجواب على هذا السؤال "والله أعلم"، أن الأم كانت تتمنى أن يمتد نسلها ولا يتوقف عند (مريم) وهذه أمنية كل الآباء والأمهات، أو أن الله قد ألهمها هذا الدعاء لأنه يعلم أنه سيكون لمريم ابن، وأن عباد الله المخلصين يهديهم الله إلى الحق ويلهمهم الصواب، ويكشف لهم الحجب عن بعض الغيبيات، وهذا ما حدث بالفعل لأم مريم.

ونتيجة لهذا الإخلاص إلى الله والتوجه إليه بنذرها فتقبله منها قبولا حسنا ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[2] أي رباها تربية حسنة.

ب- مريم في كفالة زكريا

و بعد أن أودعت الأم وديعتها بيت الله، تخاصم الكهنة واشتد النزاع بينهم أيهم يكفل مريم؟. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.[3]

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص579.

[2]- آل عمران، الآية 37.

[3]- آل عمران، الآية 44.

وفي النهاية اتفق الكهنة على أن يقترعوا فيما بينهم على من يكفل مريم، وألقوا أقلامهم، وفاز قلم زكريا، فتولى كفالتها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.[1]

و هكذا نشأت (مريم) في كنف (زكريا) وكانت مباركة يأتيها رزقها دون عناء منها داخل محرابها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[2]

ج- مريم والكرامات المعجزة:

إن هذا الرزق الوفير الذي يجده زكريا عند مريم، في مصلاها دون مساعدة أحد يدعو للعجب، ويضع علامات استفهام كبيرة؛ لأن هذا الأمر مخالف للعادة، ومخالف للمتعارف عليه في الواقع، فسألها من أين لك هذا؟ فأجابت في تواضع المؤمن الخاشع هو من عند الله. "و هذه الظاهرة غير المألوفة أثارت عجب نبي الله زكريا عليه السلام، وهي تمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحي وميلاد عيسى".[3]

و بعد هذه الحادثة العجيبة، يبين الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله أن لا داعي للعجب في الأمر، لأن هذه المرأة غير كل النساء، فهي مصطفاة، ومختارة ومفضلة على نساء العالمين، ومن كان هذا حاله فلا عجب أن يظهر الله على يديه ما شاء من أمور غير مألوفة، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.[4]

---

[1]- آل عمران، الآية 37.

[2]- آل عمران، الآية 37.

[3]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، مرجع سابق، ص580.

[4]- آل عمران، الآية 43.

نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن "الاصطفاء" ذكر مرتين، فهل الاصطفاء الثاني تأكيدا للاصطفاء الأول؟ أم أن لكل واحد منهما معنى خاصا به، فالشيخ " الشعراوي" رحمه الله يرى أن الاصطفاء الأول لمريم بأن اختصها الله بطلاقة القدرة فأراها أنه يعطي ما يشاء لمن يشاء دون أسباب، أما الاصطفاء الثاني على نساء العالمين بأن تضع بدون رجل، ودون أن يمسها إنسان، وأن الله اختصها بالاسم لأن معجزة الولادة من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة، فهذا اصطفاء لمريم، واختيار لها دون نساء العالمين".[1]

فالله سبحانه وتعالى قد اختارها لتلقي النفخة المباشرة كما تلقاها سيد الخلق آدم عليه السلام، ثم عرض الله سبحانه وتعالى هذه المعجزة على البشرية من خلال السيدة مريم فهو اصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية، الذي لا يتكرر ولا يعاد أبدا.[2]

فالآية الكريمة أشارت إلى الطهر بعد الاصطفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾[3]، للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان هذا دليلا على طهارتها وعفتها ونزاهتها، عن تلك الشبهات التي أرادوا إلحاقها بها، لأنهم كانوا يرون أن هذا المولود ليس له مثال في حياة البشرية وهذا مدعاة للريبة والشك، ولهذا قال وطهرك.[4]

---

[1]– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، مرجع سابق، ص367، 372.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، مرجع سابق، ص583.

[3]– آل عمران، الآية 43.

[4]– الشعراوي، معجزة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص377.

و بعد اختيار الله لها وتنزيهها عن شبهتاهم الضالة ناداها آمرا لها بالقنوت والسجود والركوع قائلا: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[1]

ففي هذه الآية دعوة لها بالطاعة والعبادة، وهذه العبادة هي الصلاة، لأن الركوع والسجود من خصائص الصلاة، وهذا دليل على أهمية الصلاة بين العبادات، لأنها تصل العبد بخالقه، ولكن لماذا بدأ بالسجود قبل الركوع؟

رغم أن الصلاة يسبق الركوع فيها السجود، وهذا دليل على أن للسجود أهمية كبرى في الصلاة فهو دليل التذلل والخضوع لله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على أن أقرب ما يكون العبد من ربه حال سجوده، لهذا قدم السجود على الركوع.

و بعد أن بين الله سبحانه وتعالى طهارة (مريم) وعفتها، ثم أمرها بالطاعة والعبادة، أصبحت مؤهلة لتلقي الحدث العظيم والمعجزة الكبرى التي بشرتها بها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

فالآية الكريمة تشير إلى البشارة التي بشر الله بها مريم عن طريق الملائكة، وهي كلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فالمسيح بدل من الكلمة في الآية والمقصود بالكلمة في الآية كما يقول المفسرون هي "كن"، أي أن الله إذا أراد أمرا أن يقول له كن فيكون، فهي كلمة التكوين المتعلقة بالقدرة الإلهية، "ووصف عيسى

[1]– سورة آل عمران، الآية 43.

[2]– آل عمران، الآية 45– 46.

بكلمة التكوين مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين، أي بدون الأسباب المعتادة".[1]

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى صفات هذا المولود بأنه سيكون وجيها في الدنيا والآخرة، ومن المقربين إليه تعالى، ويكلم الناس في المهد وهو صغير، ويكلمهم وهو كهل وهو من الصالحين.

بعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى طلاقه قدرته في ميلاد عيسى عليه السلام بدون الأسباب المتعارف عليها، والتي كانت سببا في الافك على (مريم)، أردف الله ذلك بمعجزة أخرى، وهي كلام (المسيح) وهو في المهد صبيا، للرد على من اتهم أمه الطاهرة العفيفة فهذا دليل قاطع على أن عيسى معجزة الله في خلقه، ثم ذكر كلامه وهو كهل، وهذا في ظاهره أمر عادي، إلا أن المقصود منه أنه يكلمهم بالرسالة التي بعث بها، وهو من الصالحين.

و بعد هذه البشارة من الملائكة للسيدة العذراء، تفاجأت واستغربت من هذا الأمر، فعادت إلى ربها متسائلة في حسرة وألم، كيف يكون لها ولد ولم يمسها بشر فقالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[2]

لقد نادت الله سبحانه وتعالى مستفهمة عن كيفية هذا الولد الذي بشرت به، والاستفهام هنا للإنكار وللتعجب، ولذلك أجيبت بجوابين:

أحدهما، ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهو لرفع إنكارها.

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص245.

[2]– آل عمران، الآية 47.

والثاني ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وذلك لرفع تعجبها.[1]

ونلاحظ أن لفظ الجلالة في الآية "الله" قد تقدم الفعل (يخلق) لبيان أن الله هو الخلاق، وذكر الفعل (يخلق) لأن الخلق يكون من العدم، ومن غير الأسباب المتعارف عليها، فإذا كان عيسى ولد من غير أب، فإن آدم عليه السلام ولد من غير أب ولا أم، لذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[2]

إن هذه الآية الكريمة تظهر طلاقة قدرة الله في خلقه، حيث خلق (آدم) عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى، وخلق (حواء) من غير أنثى وخلق (عيسى) عليه السلام من غير (ذكر)، وخلق بقية البشر من ذكر وأنثى، لذا قال تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[3]، أي علامة واضحة على قدرة الله وعظيم شأنه في الخلق.

وهذا هو الحق الذي اختلف فيه الناس حول عيسى عليه السلام فلا تكن من الشاكين، وهذا هو القصص الحق الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4]، أي لا يوجد إله غير الله، "وفيه رد على النصارى في قولهم بالتثليث، فهو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه"[5]

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، مرجع سابق، ص 248.

[2]– آل عمران الآية، 59، 60.

[3]– مريم، الآية 21.

[4]– أل عمران، الآية 63

[5]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج 1، مرجع سابق، ص207.

مما سبق يتبين لنا أن قصة مريم عليها السلام كما يرويها القرآن الكريم في سورة آل عمران تبدأ بامرأة عمران التي نذرت ما في بطنها محررا لبيت الله، وكيف أصبح النذر حقيقة، ولكنه على غير ما تمنت أن يكون المولود ذكرا، فكان أنثى، ولكن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد، وقد تقبل منها تلك الأنثى، وكبرت (مريم)، وكفلها (زكرياء)، فنشأت في طاعة الله فاختارها واصطفاها على نساء العالمين، ثم بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام، ففوجئت (مريم) بتلك البشارة، وهي العفيفة الطاهرة العابدة، فطمأنها الله عن طريق الملك (جبريل) أن الله على كل شيء قدير، وقدرته لا تخضع للأسباب والمسببات إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

و بعد هذا تأتي التتمة أو التفصيل لهذه القصة في (سورة مريم) حيث ذُكرت بعد ذكر قصة (زكريا) عليه السلام لما بين القصتين من تشابه في طلاقة قدرة الله في خلقه، حيث رزقه الله على الكبر بـ(يحيى) وأصلح له زوجه، التي كانت عقيما، فلا غرابة إذاً أن تجري طلاقة القدرة على مريم فتنجب من غير زوج.

وقد بدأ هذا الجزء أو هذا التفصيل لكيفية الحمل والولادة وما حدث من حوار بينها وبين الملك (جبريل) عليه السلام، وكيف ابتعدت عن أهلها، وكيف عادت إليهم بابنها، وما تعرضت له من التقريع، والتوبيخ، وفي الأخير يأتي الفرج من الله، حيث تشير إلى ابنها فيكلمهم، ويدحض تهمتهم، ثم يأتي القول الحق في (عيسى) أنه نبي الله، وهكذا تختتم القصة، وفي ذلك يقول جل شأنه ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ

لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[1]

لقد جاء افتتاح هذا الجزء من القصة أو هذه التتمة بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾[2] والمراد بالذكر أي التلاوة، أي أتل خبر (مريم) الذي نقصه عليك في القرآن الكريم، وافتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام وتشويق للسامع أن يتعرفها ويتدبرها.[3]

و قد اختلف المفسرون في سبب اتخاذها الحجاب والستر فمنهم من يرى أنها ذهبت لتغتسل ومنهم من يرى أنها ذهبت لتمشط شعرها[4] والراجح أنها اتخذت الحجاب للتفرغ لعبادة الله؛ لأن العبادة الخالصة لوجه الله تحتاج إلى تلك الخلوات وفي خلوتها تلك أرسل الله إليها جبريل عليه السلام، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[5]، وقد جاءها في صورة إنسان تام الخلقة كي تستأنس به ولا تخشى منه، ولو ظهر لها في صورته الملائكية لنفرت منه وفزعت منه ولم تقدر السماع له[6]، ثم استعاذت بالله منه لأنها خشيت أن يريد بها سوءا فقالت ﴿أَعُوذُ

---

(1)– سورة مريم، الآية 16– 21.

(2)– سورة مريم، الآية 17.

(3)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، مرجع سابق، ص 79.

(4)– المرجع نفسه، ج16، ص80.

(5)– سورة مريم، الآية 17.

(6)– محمود الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، مج11، مرجع سابق، ص198.

بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1] وذكرته بالتقوى لأن التقوى هي الخوف من الله ومن يخاف الله لا يعتدي على أحد، وهكذا استمر الحوار بين مريم وجبريل عليه السلام، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.[2]

و بعد أن استعاذت بالله منه إن كان تقيا لتستثير فيه خوف الله وخشيته حتى لا يقربها بسوء، أجابها على الفور قائلا لها: إني رسول الله إليك لأهب لك غلاما طاهرا، فكانت تلك الإجابة بمثابة الصدمة لها كيف يهب لها غلاما وهي ليست متزوجة ولا بغيا، فمن أين يأتيها هذا الولد، ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.[3]

إن التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة بدأ باستفهام إنكاري تعجبي؛ لأنه من غير المعقول أن تلد من هي في مثل حالها، ثم تلاه نفي ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ واستعمل القرآن الكريم كلمة (المس) وهي كناية عن الزواج[4] كما في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [5] وهذا التعبير فيه من السمو والرفعة بحيث لا يخدش الحياء ولا يسيء إلى السماع ثم جاء بعده بنفي ثان ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، وقد جاء بعد النفي بفعل الكينونة ﴿وَلَمْ أَكُ﴾ محذوف النون ليفيد النفي مطلقا[6]؛ أي لا يمكن أن يحدث هذا، وذلك لتأكيد طهرها وعفافها.

---

(1)– سورة مريم، الآية 18.

(2)– سورة مريم، الآية 19.

(3)– سورة مريم، الآية 20.

(4)– محمد عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص05.

(5)– سورة الأحزاب، الآية 49.

(6)– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير الحرير والتنوير، ج16، مرجع سابق، ص82.

من خلال هذا الحوار القائم بين (جبريل عليه السلام) و(مريم العذراء) ندرك جمال التعبير القرآني لما فيه من دقة وإتقان، وسمو عن الألفاظ والتعابير الخادشة للحياء، لنقل صورة الطهر والعفاف الذي لا ريب فيه الذي تتميز به العذراء دون سائر النساء.

و بعد طرحها لهذا السؤال التعجبي الإنكاري، بينت أنها ليست بذات زوج ولم يقربها رجل، وأنها عفيفة طاهرة، وليست بغيا، رد عليها جبريل عليه السلام مجيبا إياها ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[1]؛ أي هكذا حكم ربك وقدر وهو عليه هين أن يهب لك غلاما طاهرا من غير أن يمسك بشر، ولنجعله علامة على قدرة الله التي لا تتقيد بنواميس الحياة رحمة للناس أجمعين، وهذا كان أمرا مقدرا مسطورا في اللوح لابد من جريه عليك، أو كان أمرا حقيقيا[2]، لا رجعة فيه لأنه في سابق علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

د- الحمل والولادة

بهذه الآية ينتهي الحوار بين جبريل عليه السلام، وبين مريم العذراء، ثم جاء الخبر اليقين الذي يقطع أية مراجعة حيث حصل لها الحمل الذي بشرت به فقال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[3] فقد تم قضاء الله وتم الحمل فابتعدت عن أهلها إلى مكان بعيد، إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يبين كيف تم الحمل، إلا انه ذكر في سورتي الأنبياء والتحريم انه تم عن طريق النفخ، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا

[1]- سورة مريم، الآية 21.

[2]- محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، المرجع السابق، ص5.

[3]- سورة مريم، الآية 22.

آَيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، ويقول في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[2]

و قد اختلف المفسرون في كيفية النفخ، فمنهم من يرى أن (جبريل) عليه السلام هو من نفخ في جيبها، – بأمر من الله –، فدخلت النفخة في جوفها، فحملت، ومنهم من يرى أنه نفخ في كمها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، إلا أن الشيخ بيوض يرى أن هذا كله غير صحيح، ولا أحد يعرف كيف تم النفخ إلا الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك يقول: "وأما دعوى البعض أنه نفخ في جيبها أو في كمها فلا أساس له من الصحة، ولا أصل له في القرآن الكريم، ولا في كلام المعصوم صلى الله عليه وسلم".[3]

يبدو أن المقصود بالنفخ هو سرعة بعث الروح التي هي القوة التي تبعث الحياة كما قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[4]، أي جعلت في آدم روحا فصار حيا.[5]

ولما حملت ابتعدت عن الناس حيث ذهبت إلى مكان قصي حيث لا يراها أحد، وانتظرت أمر الله، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[6] فألجأها ألم

---

[1]– سورة الأنبياء، الآية 91.

[2]– سورة التحريم، الآية 12.

[3]– بيوض إبراهيم بن عمر، في رحاب القرآن– تفسير سورتي مريم وطه، نشر جمعية التراث القرارة، غرداية، الجزائر، 1995، ص61.

[4]– سورة ص، الآية 72.

[5]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص138.

[6]– سورة مريم، الآية 23.

الطلق والولادة إلى جذع النخلة، لكي تتكئ عليه ويساعدها على الولادة وقد قال المفسرون أن هذا الجذع كان يابسا، إلا أن القرآن الكريم لم يشر إلى ذلك.

وفي تلك اللحظة الحرجة تمنت الموت ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[1] أي قالت ليتني مت قبل أن يحدث هذا وكنت شيئا تافها لا يؤبه له من شأنه أن ينسى في العادة "و قد طرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه وذلك لما لحقها من فرط الحياء".[2]

إن هذه الآية تصور لنا حالة الحزن والألم والهم الذي أصابها عندما جاء وقت الولادة مع قوة إيمانها، وتوكلها على الله، وهذا يبين لنا كما يقول الشيخ بيوض، "أن طبيعتها طبيعة بشرية مثلنا غير أنها عفيفة طاهرة"[3] فحزنت لما يقال عنها من طعن في شرفها وهي الطاهرة النقية.

و بعد المخاض تأتي ساعة الولادة التي كانت تخشاها، أو التي تمنت الموت قبل حدوثها، ولكن الله يفعل ما يريد، وقد حصل ما أراد، ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.[4]

بعد الضيق يأتي الفرج، حيث يناديها وليدها من تحتها، حتى يزيل الله عنها في تلك اللحظات الحرجة مخاوفها وأحزانها، فيطمئنها في أشد اللحظات صعوبة

---

[1]– سورة مريم، الآية 21.

[2]– محمد بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص12.

[3]– بيوض ابراهيم، في رحاب القرآن، مرجع سابق، ص66.

[4]– سورة مريم، الآية 24.

في حياتها. وقد اختلف المفسرون في المنادي، أهو (جبريل) عليه السلام أم هو ابنها (عيسى) عليه السلام، إلا أن ابن عاشور يرى أن المنادي هو ابنها المولود... وهذا إرهاص بعيسى وكرامة لأمه عليها السلام.[1]

و قد ناداها قائلا لها لا تحزني فقد جعل ربك تحتك جدول ماء وطلب منها أن تهز جذع النخلة لكي تتساقط عليها الرطب، فكلي منه واشربي من ماء النهر وطيبي نفسا، وقد ذكر معظم المفسرين أن هذه النخلة كانت يابسة، فأحياها الله غير أن القرآن الكريم لم يشر إلى ذلك رغم أن الله الذي يحي الموتى لا يعجزه ذلك. غير أن اللافت للنظر في هذه الآية قوله تعالى﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2] أي حركي جذع النخلة اليابسة وجذع النخلة هو الأسفل وما دون الرأس"[3] وجذع النخلة الحية فيه من الصلابة والقوة مالا يمكن لرجل قوي أن يحركه فما بالك بجذع النخلة اليابسة وبامرأة في حالة من الضعف بعد الولادة مباشرة أن تحركه؛ إلا إذا كان المقصود حركة رمزية لكي يعلمها الله الأخذ بالأسباب لنتخذها قدوة في ذلك.

و يرى ابن عاشور أن الهدف من قوله: ﴿هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة يدن إليك ويلن بعد اليبس، ويثمر الجذع اليابس رطبا، وفي ذلك كرامة لها لقوة يقينها.[4]

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير التنوير، ج16، مرجع سابق، ص87.

[2]– سورة مريم، الآية 25.

[3]– الفخر الرازي، تفسير الرازي، مج 11، مرجع سابق، ص206.

[4]– محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، المرجع السابق، ص87.

و الحقيقة أن كل ما ورد في قصة (مريم) العذراء من معجزات وكرامات الهدف منها تثبيت قلب العذراء والصبر عند المحن والشدائد حتى تكن ثقتها بالله دافعة لها على عدم الانزعاج من تلك الولادة المعجزة بغير بعل.

لهذا لا يهمنا إن كانت النخلة حية أم يابسة، بل علينا أن نستخلص ميها العبرة أولا وأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقدرته مطلقة وغير محدودة، فهو قادر على إحياء الموتى وأنه قادر على انزال الرطب على العذراء دون أن تحرك جذع النخلة ولكنه يبصرنا بعظيم قدرته، كما يعلمنا الأخذ بالأسباب في قضاء حوائجنا، ثم نترك الباقي على الله.

بعد هذا أمرها الله سبحانه وتعالى بأن تأكل، وتشرب ولا تحزن فقال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[1] أي كلي من هذا الرطب الشهي واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل وطيبي نفسا بهذا المولود ولا تحزني".[2]

و قد أورد (الفخر الرازي) إشكالا في هذه الآية فقال: الأكل لدفع الجوع، والشرب لدفع العطش، وقري عينا لدفع الخوف الذي انتابها، لكن لماذا قدم ما يدفع الجوع والعطش، وأخر ما يدفع الخوف، رغم أن الخوف أشد ألما من الجوع والعطش وأجاب عن تساؤله هذا؛ بأن الخوف كان قليلا، لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى.[3]

إضافة إلى هذا يمكن القول أن تقديم ما يدفع الجوع والعطش على الخوف لأن الإنسان عندما يأكل ويشرب يطمئن ويهدأ وبالتالي يكون شعوره بالخوف أقل

---

[1]– سورة مريم، الآية 26.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، مرجع سابق، ص215.

[3]– الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، ص207.

على عكس الجائع والعطشان؛ لأن الجوع والعطش كلاهما مضنة الهلكة فيدعوان إلى الخوف، فإذا ضمن الإنسان الأكل والشرب أحس بالطمأنينة وأمن التهلكة.

و بعد أن أمرت بالأكل والشرب لتهدأ وتطيب نفسها، أمرها الله بالكف عن الكلام قائلا ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1] أي إذا رأيت أحدا من الناس وسألك عن شأن هذا المولود فقولي إني نذرت السكوت والصمت عن الكلام لله سبحانه وتعالى، فلن أكلم أحدا من الناس ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة[2]، أما "الزمخشري" فيرى أنها أمرت بالصمت لسببين:

– الأول: أن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ ساحتها.

– الثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقشتهم[3] وقد اختلف المفسرون في من قال لها ذلك، أهو (جبريل) عليه السلام أم (عيسى) عليه السلام، والمهم عندي أنه كلام الله ولا يهم من قاله لها، المهم أنها بلغت به وقالته.

و المتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل لها قولي لا أكلم أحدا ولكن قال لها قولي ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ لأن النذر نوع من العبادة تتقرب بها إلى الله، كما أنها قالت للرحمن ولم تقل مثلا نذرت لله أو لربي، لأن الرحمن قد رحمها من مساءلة السفهاء واتهاماتهم، [4] وفي هذا التعبير القرآني جمال اللفظ مع دقة المعنى مما يجعله قمة في البلاغة والبيان.

---

[1]– سورة مريم، الآية 26.

[2]– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير مج2، مرجع سابق، ص215.

[3]– محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ص14.

[4]– محمد متولي الشعراوي، المعجزة القرآنية، مرجع سابق، ص377.

هـ- الطعن في الشرف الرفيع

و بعد الولادة جاء دور العودة إلى أهلها حاملة معها ابنها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1].

و لما رأوها قادمة إليهم تحمل ابنها استعظموا أمرها، واستنكروا عليها ذلك، فبادروها بقولهم، ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قاصدين بذلك أنها شبيهة (هارون) في الصلاح والعبادة، وقد اختلف المفسرون حول (هارون) هل هو (أخو موسى) عليه السلام، أو رجل صالح في قومها، فشبهوها به، [2] ولكن السياق يدل على أنهم شبهوها برجل صالح سواء كان (هارون) النبي أو غيره، لأنهم ذكروا بعد ذلك أباها وأمها، وهما أبوين صالحين، حيث قالوا لها ما كان أبوك رجلا مسيئا وما كانت أمك ترتكب الفواحش، بل كانت ذات صلاح وتقى، حتى نذرتك لخدمة بيت الله، فكيف نكبت الطريق وخرجت عن أخلاق والديك، وفي تلك اللحظة التي نزلت عليها التهم والتقريع والطعن في شرفها، لم ترد عليهم بل أشارت إلى ولدها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.[3]

وعندما أشارت إليه أصيبوا بالذهول والتعجب معتقدين أنها تسخر منهم، فسألوها متعجبين، كيف نكلم طفلا صغيرا في المهد؟، وهنا لفتة مهمة أشار اليها (بيوض إبراهيم) قائلا: "لِمَ لَمْ يقولوا كيف يكلمنا؟؛ لأنهم لو كلموا من كان في المهد

---

[1]- سورة مريم، الآية 28

[2]- الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ص14.

[3]- سورة مريم، الآية 29.

صبيا لعدوا مجانين، وهم يعتقدون استحالة ذلك"[1]، ولكن إرادة الله وقدرته لا تعرف حدودا، حيث كلمهم هذا الصبي الصغير مبينا لهم عبوديته لله ومبررا في الآن نفسه ساحة أمه فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.[2]

بناء القصة:

إن الدارس لقصة مريم يلاحظ أنها وردت في مجموعة من السور القرآنية وفي كل سورة نجد مقطعا قصصيا يروي أحداثا معينة، وإذا جمعنا هذه المقاطع سوف نحصل على قصة متكاملة البناء، حيث كانت البداية بنذر (أم مريم) ما في بطنها لخدمة بين الله ثم فوجئت بالمولود أنثى إلا أنها وفت بوعدها لربها، بتقديم ابنتها للمعبد بعد وفاة والدها (عمران)، فتولاها (زكريا) بالرعاية حتى كبرت، وظلت في عبادة الله حتى جاءتها المفاجأة حيث كان يأتيها رزقها بغير حساب، فعجب زكريا لذلك، ثم تستمر معها الأحداث المفاجئة حيث يأتيها الملك فيبشرها بغلام، فتذهلها المفاجأة، إلا أن الملك يطمئنها أن قدرة الله لا حد لها.

وهكذا تستمر معها المفاجآت حتى يأتيها المخاض الذي نزل عليها كالصاعقة، فتمنت الموت على أن تعيش تلك اللحظة الحرجة، ولكن أمر الله نافذ، فتضع عيسى وتعود به إلى اهلها، حيث تعرضت لأنواع الشتائم والتهم، إلا ان الله

---

[1]- بيوض ابراهيم، في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، مرجع سابق، ص79-80.

[2]- سورة مريم، الآية 30-34.

قد تدخل في تلك اللحظة الحرجة وبرأ ساحتها حيث تكلم المولود الصغير وقال أنا عبد الله ورسوله.

فالقصة جاءت متكاملة البناء، حيث بدأت بمقدمة أو بتمهيد لولادة (مريم) إذ كانت هاجسا أو خاطرا في ذهن أمها، ثم حقيقة حيث حملت بها، فنذرتها لله سبحانه وتعالى.

وبعد هذه المقدمة يبدأ العرض حيث تلد الأم وتفاجأ بأن المولود أنثى، ولكن الله يتقبلها منها، ويموت والد الطفلة فيتولى زكريا كفالتها.

ومن هنا تبدأ الأحداث تتعقد تدريجيا حيث كان يأتيها رزقها دون مساعدة أحد، وهنا تبدأ الشكوك تحوم حول مريم، فيسألها زكريا من أين لك هذا؟ فتقول هو من عند الله، ثم تتشابك الأحداث وتزداد تعقيدا حتى تبشر بالغلام، وهي لم تتزوج ولم تكن بغيا.

وبعد هذا تحمل وتضع مولودا وهنا تصل الأحداث إلى قمة التعقيد، إلا أن هذه العقدة سرعان ما تنفرج ويأتي الحل فينفك ذلك اللغز في النهاية الحسنة المفرحة المفاجئة في نفس الوقت فيتكلم المولود الصغير، ويبرئ ساحة أمه مما اتهمت به من التهم الشائنة وقد "كان كلامه فيه تأسيسا لنبوته وإرهاصا لها، وقد يكون ذلك كرامة لمريم، دالا على طهارتها، وبراءة ساحتها مما نسبه أهل الإفك إليها" [1]، وبهذا ظهرت براءتها وعفتها وطهرها.

وقد تكلم (عيسى) وأول ما تفوه به قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ليبطل كل ادعاء أو شك حوله من أنه ابن الله، فقد بين عبوديته لله الواحد الأحد، ثم بين أن الله أعطاه الإنجيل وجعله نبيا، وجعله مباركا لينتفع به العباد في أي مكان حل به، وأوصاه

[1]– محمود شلبي، حياة مريم، دار الجيل، بيروت لبنان، ص144.

بالصلاة والزكاة مادام على قيد الحياة، وقد قدم الصلاة على الزكاة، لأن للصلاة أهمية كبرى فهي الصلة بين العبد وخالقه وأنها لا تسقط على الإنسان، بينما الزكاة قد تسقط على غير مالك النصاب، كما جعله الله بارا محسنا بوالدته، ولم يقل بواليَّ، لأنه لا أب له وهذا دليل آخر على أنه روح الله ألقاها إلى مريم وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1]، أي لم يجعلني متكبرا على الناس غليظا في معاملتهم حتى أشقى في حياتي وأخسر آخرتي"[2].

بعد إثبات عبوديته لله بين أنه مخلوق كبقية البشر يحيا ويموت ويبعث حيا كسائر الخلائق ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد. [3]

إلا أن ابن عاشور يرى أن المقصود من قوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[4]، التعريض باليهود الذين طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة فقالوا ولد من زنى، ومات مصلوبا، ويحشر مع الملاحدة والكفرة؛ لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة[5]، بعد أن بين الله بشرية عيسى قال ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾. [6]

---

[1]– سورة مريم، الآية 32.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، مرجع سابق، ص100.

[3]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مج 4، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص272.

[4]– سورة مريم، الآية 33

[5]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، مرجع سابق، ص100.

[6]– سورة مريم، الآية 34

إشارة إلى حقيقة عيسى عليه السلام نتيجة اختلاف الناس فيه، منهم من ألهه، وهم النصارى، ومنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من أخطأ في حقه، فقالوا هو ابن غير شرعي، إلا أن عيسى ليس كما يتصورون أو كما يشكون.

وأخيرا يقطع الله الشك باليقين فيقول ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] فالآية الكريمة تشير إلى أن (عيسى) ليس ابن الله؛ لأن الله منزه عن الولد والزوجة بل أمره إذا أراد أن يخلق شيئا فيقول له كن فيكون، فأمره بين الكاف والنون، وأخيرا يقول لهم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[2]، ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه.[3]

1- الأحداث في قصة العذراء:

لقد أدى الحدث في قصة العذراء دورا فعالا ملفتا، حيث ركزت القصة على الأحداث المفاجئة، منذ ولادتها حتى حملها ووضعها، فكانت تلك الأحداث بمثابة الهزات الكهربية[4] التي تهز صاحبها أو تصعقه أحيانا، ولكن تلك الأحداث المفاجئة عملت على تثبيت فكرة دينية، في نفس (مريم) ونفس كل مؤمن، وهي طلاقة قدرة الله التي لا حدود لها، ولا تقف عند مأزق معين، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[5]؛ لأن أغلب هذه الأحداث المفاجئة في القصة غيبي،

---

[1]- سورة مريم، الآية 35.

[2]- سورة مريم، الآية 36.

[3]- محمد علي الصابوني صفوة التفاسير، مج2، مرجع سابق، ص 216.

[4]- محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1993، ص265.

[5]- سورة يس، الآية 82.

يقف الانسان أمامها حائرا، ولا يتقبلها إلا الانسان المؤمن الذي يدرك أن عقله المحدود لا يستطيع أن يستوعب اللامحدود، إلا بالاستلام لأمر الله.

وهكذا تزداد الأحداث الخارقة تعقيدا، وتزداد الحبكة تأزما، ويشتد الصراع النفسي والمادي، إذ تبشر أن يكون لها غلام وهي البكر التي لم يمسها بشر.

وبعدها يأتي الحدث الأكبر الذي وقع عليها كالصاعقة، إذ حملت بعيسى عليه السلام وبعد الحمل تأتي الولادة ويرى الكثير المفسرين أن المدة بين الحمل والولادة كانت قصيرة جدا، وقد استدل على ذلك (محمد طول) بالتفسير اللغوي إذ يرى أن حدث الحمل والولادة كانا متقاربين وقعا على الفور من غير مهلة، وذلك ما يدل عليه السرد اللغوي، إذ جمع الله بين أفعال ثلاثة متتالية زمنيا بأداة ربط تفيد الترتيب والتعقيب ليوحي بتتاليها وبعد التراخي في الزمن بين الفعل الأول "فحملته" والفعل الثاني "فانتبذت" وبين الفعل الثالث (فأجاءها) ذلك لو كان حملها مثل النساء ومخاضها جاء بعد الفترة المحددة للحمل لتم العطف بـ (ثَم) التي تفيد التراخي والمهلة.[1]

و هكذا تتوالى الأحداث المفاجئة فيؤدي بعضها إلى الآخر حتى تصل إلى ذروتها مما جعلها تتمنى الموت وأن تكون نسيا منسيا، وحين تضع وليدها الذي تواجه به قومها، وكيف ترد على ألسنة السوء، وتظهر براءتها أمام عصبة الإفك والسخرية، لكن هنا يأتي الحدث الأكبر والمفاجأة العظمى ويأتي الحل الذي كان مفاجئا لقومها، حيث يتكلم وليدها وهو في المهد صغيرا ويبرئ ساحتها وبهذا تنفرج العقدة ويأتي الحل الذي كان مفاجئا لقومها، حيث يقول ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ

[1]– محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص16.

الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.[1]

2- علاقة الحدث برسم الشخصيات

إن الحدث في القصة القرآنية يرتبط ارتباطا وثيقا بالشخصية ولا يمكن لأحدهما أن يؤدي غرضه إلا بتوفر الآخر، وهذا ما نلاحظه من خلال الدراسة لقصة العذراء، فـ(مريم) هي الشخصية المحورية في هذه القصة، بالإضافة إلى بعض الشخصيات الفاعلة في القصة، ففي البداية نجد شخصية "أم مريم" التي رسم القرآن الكريم معالم شخصيتها، إيمانياً وخلقيا، فهي شديدة التعلق بالله، إيمانا منها بقدرته على كل شيء، فنذرت ما في بطنها محررا لله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]، زيادة على إيمانها بالله وحبها له، فهي وفيه صادقة في نذرها ولم تتراجع؛ لأن المولود لم يكن ذكرا بل كان أنثى على غير مرادها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.[3]

فهي مؤمنة صادقة وفية، نذرت فأوفت بنذرها ولم تخلف وعدها لله سبحانه وتعالى، ثم يشير القرآن الكريم إلى شخصية زكريا الذي كان له دور فعال في تربية (مريم)، ورعايتها حيث تولى كفالتها، بعدها يعدل القرآن عن هذه (الأم) إلى الحديث عن ابنتها فوصفها القرآن الكريم بأنها (نبت حسن) فقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا

---

[1]- سورة مريم، الآية 30-31.

[2]- سورة آل عمران، الآية 35.

[3]- سورة آل عمران، الآية 36.

رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1]، وهذه الصفة لم يوصف بها أحد غيرها في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم لم يهتم برسم الشكل الخارجي لها بقدر ما اعتنى بالجانب القيمي، الأخلاقي، النفسي، فهذا النبت الحسن، قد اصطفاه الله تبارك وتعالى مرتين، فهو اصطفاها حيث اختصها بالرزق دون عناء منها، مبينا لها أن الله يرزق من شاء بغير حساب، ثم اصطفاها على نساء العالمين لتلقي النفخة كما تلقاها آدم عليه السلام.[2]

كما وصفها الله سبحانه وتعالى بالصدق فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.[3]

ولقد جاء القرآن الكريم بصفة الصدق على صيغة المبالغة لبيان مقامها الرفيع عند الله سبحانه وتعلى، لما اتصفت به من صفات الصالحين المقربين، رغم بشريتها، فهي ليست ملاكا ولا إله كما يدعي بعض النصارى.[4]

ومن صفاتها الطهر والعفة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ

---

[1]– سورة آل عمران، الآية 37.

[2]– محمد متولي الشعراوي المعجزة القرآنية، مرجع سابق، ص377.

[3]– سورة المائدة، الآية 75.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج6، مرجع سابق، ص285.

[5]– سورة آل عمران، الآية 42.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[1]

وهذه الصفات تعد من أحسن الصفات الخلقية التي يجب أن تتوفر في المرأة الصالحة وخاصة التي تكون أما لنبي من أنبياء الله.

كما وصفها الله تعالى بالصبر على أذى قومها، وما اتهموها به من إفك وطعن في شرفها قائلين لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.[2]

فصبرت، واحتسبت، والتزمت الصمت، حتي برأ الله ساحتها بنطق ابنها المولود حديثا.

إن هذه القيم الأخلاقية التي اتصفت بها مريم، كفيلة بأن تجعلها نموذجا يحتذى به، لأن "أهمية الشخصيات الرئيسية تتمثل في القيمة التي تحملها لتكون أهلا للتأسي بها"[3]. ونظرا لأهمية هذه المرأة لم يكتف القرآن الكريم بذكر صفاتها، بل ذكرها باسمها، لتكون رمزا للقيم التي تحملها، ولهذا "نجد هذا النوع من الشخصيات قد ذكر بأسمائه ليكون رمزا للقيمة التي يمثلها".[4]

ولم يقتصر القرآن على رسم الأبعاد الخلقية لهذه الشخصية بل أعطى لنا صورتها النفسية، فهي لا تختلف عن أي امرأة تقع في موقف حرج، فتصاب بالخوف والذعر، فقد أصيبت بالهلع والذعر لمَّا بشرت بالغلام، وهي العذراء الطاهرة، كما وصف القرآن مشاعر الخوف التي انتابتها عندما جاءها المخاض وهي وحيدة فتمنت الموت، فقد كشف القرآن عن بعدها النفسي المتصف بالضعف،

---

[1]– سورة التحريم، الآية 12.

[2]– سورة مريم، الآية 28.

[3]– عماد عبدو يحيى، البنى الدلالية في لغة القصص القرآني، دار دجلة، الأردن، ط1، 2009، ص345.

[4]– المرجع نفسه، ص345.

والقلق، والاضطراب حتى "نكاد نلمح ملامحها ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها، وهي تتمنى لو كانت نسيا منسيا"[1]

فهذه الصفات مجتمعة كفيلة بأن تجعل من هذه المرأة نموذجا فريدا يستحق أن تظهر على يديه معجزات الله سبحانه وتعالى، وأن تتخذ قدوة لكل امرأة تريد أن تسلك طريق الحق.

من هذا نخلص إلى أن القرآن الكريم قد أعطى لنا صورة متكاملة لهذه المرأة التي ذكرت باسمها (مريم)، ولم يذكر القرآن الكريم غيرها من النساء بالاسم، وذلك تكريماً لمنزلتها، وتشريفاً لمقامها، لما اتصفت به من صفات خلقية قلما اجتمعت في امرأة وقد هيأها الله للدور الكبير المنوط بها، وهي ولادة عيسى بغير أب وما يتبعه من أذى اليهود لها ولابنها، وما تحملته في سبيل ذلك من عناء حتى تمنت الموت، ولكن لم تستسلم بل صبرت واحتسبت، وأظهر الله على يديها المعجزات العظام.

إن القرآن الكريم لم يقتصر على رسم الأبعاد النفسية والخلقية لـ(مريم) التي جعلتنا نفهم قدرتها على إدارة الصراع مع باقي الشخصيات في القصة، بل رسم القرآن الكريم الأبعاد الاجتماعية لهذه الشخصية، فهي (ابنة عمران) سليلة الأسرة المصطفاة المختارة، وهي جاءت نذرا لأمها، وتصديقا لوعدها، وتربت في عهد (زكريا) النبي، فهي خرجت من بيت النبوة، وتربت على يدي (زكريا) النبي الصالح، فهي نبتت في منبت حسن، وتقبلها ربها بقبول حسن.

فالبعد الاجتماعي للشخصية في القصة القرآنية يضيء الأحداث التي تقوم بها الشخصية والدور الذي تمارسه من خلالها.[2]

---

[1]– عماد عبدو يحيى، البنى الدلالية في لغة القصص القرآني، مرجع سابق، ص367.

[2]– محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص 59.

فهي من علية القوم دينيا وخلقيا، وهي بذرة طيبة ونبت حسن، وتربت في أسرة ذات دين وخلق، فمنبتها حسن، لأنها تربت على يد نبي كريم، مما جعلها مؤهلة لأن تكون في المستقبل من الأخيار المصطفين، حتى اختارها الله أن تكون أما لنبي معجزة لم يسبق مثلها في الوجود، وذكرها بالاسم دون سائر النساء تعظيما لشأنها، وتكريما لمقامها، وجعلها مثالا للطهر، والعفاف، والصدق، وهي من الخصال التي نوه بها القرآن الكريم، واعتبرها من الخلال الحميدة التي تتشرف بها المرأة، لأنها تشكل "نصف المجتمع، وأجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن الواجب أن نفكر فيها دائما على أنها قضية مجتمع لا قضية جنس".[1]

وما دامت المرأة نصف المجتمع فرعايتها من رعاية المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع بأسره، وإذا فسدت فسد المجتمع بأسره.

3- الفضاء الزماني والمكاني للقصة:

أ- البيئة الزمانية

من خلال دراستي للأحداث والشخصيات تبين لي ارتباطهما الوثيق بالزمان والمكان، ولا يمكن الفصل بينهما إلا على سبيل الإيضاح، فالزمان حامل للحدث، والمكان وعاؤه[2]، ولا يمكن أن نتصور حدثا وقع خارج الزمان أو المكان، لأن "الزمان ظاهرة تنصب على كل شيء في هذه الحياة"[3]، والمكان هو البيئة التي يقع فيها الحدث.

---

[1]- مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط4، 2010، ص9.

[2]- عماد عبد يحيى، البنى الدلالية في لغة القصص القرآني، مرجع سابق، ص356.

[3]- عبد المالك، مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، مرجع سابق، ص83

ونتيجة لهذا نجد للقصة القرآنية تقنيات منهجية تتلاحم فيها العناصر الفنية من شخصية، وحدث، وبيئة، وزمان، دون أن يطغى أحد هذه العناصر على الآخر فلكل دوره وأداؤه وأهميته للوصول إلى الهدف المحدد.[1]

والمتتبع لقصة مريم يجد ارتباط هذه العناصر ارتبطا عضويا حيث نجد الزمن فيها قد بدأ متتابعا من الاصطفاء الأول إلى ولادة مريم "حتى خدمتها في المحراب، وبشارتها بعيسى وولادته ورسالته قبل رفعه إلى السماء".[2]

ورغم ارتباط الزمان بالعناصر الأخرى للقصة إلا أنه يظهر أحيانا كأنه مقصود لذاته وذلك لإظهار طلاقة قدرة الله وبيان عظمته، حيث نجده لا يخضع للزمن المعروف عندنا، لأن الزمن من خلقه، وهو لا يخضع لما يخلق، وأن أمره إذا أراد شيئا يقول له ﴿كن فيكون﴾، وذلك ما نراه من حمل مريم ووضعها، حيث تم ذلك في وقت قياسي وذلك ما عبر عنه السرد اللغوي في القصة، حيث قال تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.[3]

إن المتأمل لهذه الآيات يجد أن الله قد جمع فيها بين أفعال ثلاثة متتالية زمنيا بأداة ربط تفيد الترتيب والتعقيب، ليوحي بتتاليها دون تراخ في الزمن بين الفعل الأول "فحملته" والفعل الثاني" فانتبذت" والفعل الثالث "فأجآءها" وليدل على أن الحمل والوضع كانا متقاربين وقعا على الفور من غير مهلة، ذلك أنه لو كان

(1)– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بناؤها، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ص 210.

(2)– عماد عبد يحي، النبي والدلالات من القصص، مرجع سابق، ص357.

(3)– سورة مريم، الآية 22– 23.

حملها مثل حمل النساء ومخاضها جاء بعد فترة الحمل المحددة للحمل لتم العطف بـ" ثم" التي تفيد التراخي والمهلة".[1]

وبما أن الحمل والوضع وقعا في فترة زمنية متقاربة، وجدنا العطف بين الحدثين جاء بـ(الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب دون تراخ فتوافق المبنى مع المعنى، حيث عبر القرآن الكريم بهذا التركيب اللغوي، عن قصر المدة الزمنية الفاصلة بين الحمل والولادة بما يتناسب معها في الواقع.

و مما يثبت هذا الرأي ما قاله (ابن عباس) حين سئل عن حمل مريم فقال: "لم يكن أن حملت فوضعت"[2]، وعلى هذا فالحمل والوضع كانا متقاربين زمنياً.

إلا أن (ابن كثير) يرى أن هذا الرأي غريب وهو مأخوذ من ظاهر القول "فحملته فانتبذت، فأجآءها" فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه".[3]

والحقيقة أن لا غرابة في الأمر إذا كان الحمل تم من غير زوج فلا يصعب على الله أن تكون فترة الحمل والوضع متقاربة زمنيا، وهذا دليل على طلاقة قدرة الله التي لا تخضع للأسباب والمسببات، وقد يختصر الزمان والمكان، لأن الزمن قد يأتي أحيانا وكأنه المقصود لذاته، ليظهر وجه الإعجاز الرباني في توظيفه وليبين أن الله ليس خاضعا لما يخلق من أزمان مثلما نحن خاضعون له وإنما هو فوقها جميعا، ومتعال عليها[4]، وهذا ما نراه في ميلاد عيسى عليه السلام الذي كان

---

[1]– محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص 160.

[2]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجماليات السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998. ص97.

[3]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2002، ص 260.

[4]– مصطفى محمود، القرآن الكريم، محاولة لفهم عصري، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص170.

معجزة لم يسبق أن حدث إلا في خلق آدم من تراب وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾.[1]

فالزمن في هذه القصة جاء مناسبا للأحداث التي تحمل في معظمها طابع الإعجاز، فكان الزمن إعجازيا لبيان قدرة الله وعظمته وأنه فوق ما يخلق.

من هذا ندرك أن الزمن القرآني زمن ميتافيزيقي تخرج معياريته عن نطاق الإدراك البشري، حين تعدو الزمنية مظهرا تجسيديا لخراقة الخلق الإلهي وتجلياتها المعجزة.[2]

و هذا دليل على أن الأفعال لا تقاس الا بقوة فاعلها والقوة الفاعلة في هذه القصة هي قوة الله التي تتعدى حدود الزمان والمكان.

كما يجب أن أشير إلى أن ذكر مجموعة من الشخصيات في هذه القصة، كمريم وابنها، عيسى وزكريا، تحمل في ذاتها دلالة الزمن ويؤرخ بها لأسماء أخرى كالتأريخ لمريم بزكريا. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]، فهذه النماذج من الشخصيات التاريخية تعد معلما زمنيا في تاريخ البشرية.[4]

---

[1]– سورة آل عمران، الآية 59.

[2]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مرجع سابق، ص97.

[3]– سورة آل عمران، الآية 37.

[4]– طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص41.

ب- البيئة المكانية:

إذا كان الزمان هو القوة الفاعلة في الأحداث والشخصيات بحيث لا يمكنها أن تتفلّت خارج حدود الزمان الذي ينصب على كل شيء في هذه الحياة، فإن للمكان دورا لا يقل أهمية في القصة عبر الزمان؛ لأن المكان يؤدي دورا هاما في بناء القصة وفي ترتيبها، إذ يعد الإطار الذي تنطلق منه الأحداث وتسير فيه الشخصيات بل يتجاوز كونه مجرد إطار لها أحيانا ليصبح عنصرا فعالا في تلك الأحداث وتلك الشخصيات، ومشحونا بدلالات اكتسبها من خلال علاقته بالإنسان.[1]

و إذا كان للبيئة المكانية دور هام في مسار الأحداث والشخصيات في القصة، حيث تعد بمثابة العمود الفقري للإنسان لا يقوى على الوقوف دونه، إلا أن القصة القرآنية قد سيقت أساسا لأغراض دينية، فهي جاءت أساسا للعظة والعبرة، ولذا لم تركز على البيئة الزمانية والمكانية إلا بالقدر الذي يخدم الغرض الديني "لأن القصة القرآنية ليست عملا فنيا مقصودا لذاته، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة، وشرح الأوامر والنواهي الشرعية، ونشر فكر الحق والخير والتعاون بين الناس".[2]

والأمكنة التي وردت في قصة (مريم) عليها السلام سواء التي جاءت بصريح اللفظ أو التي وردت بقرائن توحي بالمكان أو تدل عليه، كلها لها علاقة وثيقة الصلة بالحدث الإعجازي المفاجئ أو بالشخصية الربانية المؤمنة، وسأحاول تقصي المواضع التي ذكر فيها المكان في قصة العذراء أو الإشارة إليه من خلال الآيات القرآنية الواردة في ذلك، حيث قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ

---

[1]- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، ط7، 1978، ص 108- 109.

[2]- د. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، ص218.

أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[1]، ففي هذه الآية الكريمة نجد المكان ورد بصريح اللفظ مع ذكر صفة الشرق له ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

إن المكان في هذه الآية الكريمة جاء نكرةً مبهماً، غير معين، ووصف بالشرقي لأن النصارى كانت تتخذ من جهة الشرق قبلة لهم، وفي ذلك يقول ابن عاشور "نكر المكان إبهاما له لعدم تعلق الغرض بتعين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصة، وأما التصدي لوصفه بأنه شرقي، فللتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم".[2]

إن هذا المكان الذي ورد في القصة يخدم الغرض الديني بالدرجة الأولى، لأنه مكان للصلاة والعبادة، وأنها اعتزلت فيه الناس واتخذت حجابا وستراً عنهم، حيث أرسل الله إليها جبريل عليه السلام، وله علاقة وثيقة بالحدث الاعجازي المفاجئ، حيث بشرها الملك بالغلام.

فالمكان إذن هو مكان عبادة وطهر، ولا يقصده إلا النسّاك المتعبدون الطاهرون، المصطفون، والعذراء واحدة من هؤلاء الذين اصطفاهم الله وطهرهم.

ومن الأمكنة المبهمة التي ذكرت في قصة (مريم) عليها السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.[3]

فالآية الكريمة تشير إلى أن (مريم) عندما حملت بابنها (عيسى) عليه السلام حلّت به في مكان بعيد، أي بعيد عن أهلها والقرآن الكريم لم يعين المكان إلا أن

---

[1]– سورة مريم، الآية 16.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ص80.

[3]– سورة مريم، الآية 22.

ابن عاشور قد أورد رأيين لتعيين المكان فقال "قيل أنها خرجت إلى البلاد المصرية فارة من قومها أن يعزروها أو أنها ولدته في قرية بيت لحم"[1].

والحقيقة أن القرآن الكريم لم يحدد هذا المكان جغرافيا؛ لأن المكان لا يضيف شيئا إلى الغرض الديني، إنما المقصود هو حدث الحمل والولادة الإعجازية التي تظهر قدرة الله التي لا تحدها حدود الأمكنة ولا حدود الأزمنة.

كما نستشف من الآية القرآنية أن هذا المكان (القصي) هو مكان صحراوي حيث ينبت فيه النخيل، فالآية الكريمة تقول: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾.[2]

فالنخلة لا تنبت إلى على أرض صحراوية؛ لأن الصحراء هي موطن النخيل، واختار الله لها مكان الوضع تحت النخلة، لتجد ما تتقوت به من الرطب، وأجرى تحتها الماء لتجد ما تزيل به ظمأها، وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذا ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3]، فالـ (تحت) هنا ظرف مكان؛ أي مكان النهر الذي أجراه الله تحتها لتشرب منه عند وضعها.

ومن الأماكن المصرح بها في قصة مريم "المحراب" وذلك في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص 84.

[2]– سورة مريم، الآية 23.

[3]– سورة مريم، الآية 24.

هَـــدَا﴾[1]، فـ(المحراب) هو المكان الذي كانت تنقطع فيه مريم للعبادة، وكان زكريا يتردد عليها باستمرار.[2]

فالمحراب له دلالة رمزية تشير إلى ارتباط الشخصيات المصطفاة، ومنهم (مريم) بأماكن العبادة التي تقربهم إلى الله، وفي ذلك يقول عماد عبد يحي: "لقد أولى المكان في هذه القصة عناية خاصة ولاسيما المحراب، لما له من علاقة بالكشف عن الشخصيات وتصوير تنسكها الذي هو اعتبار من اعتبارات الاصطفاء".[3]

إذا كان هذا المكان (المحراب)، يشير إلى البعد الديني للشخصيات "زكريا ومريم" فإن هناك بعض الأماكن في القصة تشير إلى البعد التربوي الأخلاقي وهي مستوحاة من بعض التعابير الواردة في القصة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[4] فالنبت لا يكون إلا على الأرض، والنبت الحسن لا يكون إلا على أرض طيبة خصبة، والمقصود بالنبت الحسن؛ أي التربية الحسنة وهي لا تكون إلا في وسط عالي التربية حسن الخلق، وهذا الوسط هو بيت النبي (زكريا) عليه السلام الذي تولى كفالتها ورعايتها.

4- الحوار في قصة مريم:

إن الحوار هو أحد الأساليب التي تعرض بها القصة وهو وسيلة من وسائل عرض الموضوع وإيضاح الفكرة، وبلورة الهدف، الذي من أجله سيقت القصة، وهو في الحقيقة يكشف عن طبيعة الشخصيات، وبيان اتجاهاتهم وما تنطوي عليه

---

[1]- سورة آل عمران، الآية ص37.

[2]- ناصر عقيل أحمد الزغول، اسما المكان والزمان في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006، ص246.

[3]- عماد عبد اليحيى، البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، مرجع سابق، ص357

[4]- سورة آل عمران، الآية37.

أنفسهم[1] وهو من العناصر الفعالة في بناء القصة وإضاءة الحدث وتطوره، كما انه يعد عاملا من عوامل التشويق فيها نتيجة لما يظهره من الصراع القائم بين الشخصيات سواء أكان الصراع ذاتيا أم صراعا خارجيا، كما يساهم في تلوين الأسلوب وإبراز الهدف من القصة، فهو كما يقول بكري شيخ أمين " فالحوار محرك للأحداث، ومصور للشخصيات، ومبلغ إلى الصراع ومؤد إلى الهدف، ومظهر للمغزى"[2]

و لكي أصل إلى صور الحوار في قصة مريم العذراء لا بد أن أعرف الحوار أولاً، فالحوار لغة يعنى المجاوبة وتبادل الكلام، وفي تاج العروس يعني "المحاورة: المجاوبة والكلام في المخاطبة، وقد حاوره وتحاورا: ترجعوا الكلام بينهم، وهم يتحاورون".[3]

كما نجد كلمة (الحوار) وردت في القرآن الكريم في ثلاث مواضع، مرتين في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[4]

و قوله أيضا في سورة الكهف: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[5]، والثانية في سورة المجادلة في قوله

---

[1]– د محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص245.

[2]– بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص223.

[3]– الزبيدي تاج العروس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، دار العلم للملايين، ج4، ط2، 1979، مادة حور، ص108.

[4]– سورة الكهف، الآية 39.

[5]– سورة الكهف، الآية 37.

تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن (الحوار) عبارة عن علاقة تواصلية بين طرفين، وله أهمية كبيرة في القصة؛ لأنه يساهم في بنائها الفني ويكشف عن مكنونات النفوس، ويعرف بحقيقة الشخصيات، كما يظهر مستوى المتحاورين نفسيا وعقائديا، ويساهم في تطور الأحداث.

و إذا حاولنا أن نستشف مواطن الحوار في قصة مريم سوف نجده ورد على صورتين، حوار داخلي، ذاتي، جاء بين مريم وذاتها أو بين مريم ونفسها، وحوار خارجي بينها وبين مجموعة من الشخصيات الواردة في القصة، وهذه الشخصيات منها ما هو آدمي كـ(زكريا) وقومها، ومنها ما هو ملائكي كحوارها مع (جبريل) عليه السلام.

و لنبدأ بالحوار الداخلي وهو الحوار القائم بين مريم وعقلها أو بين مريم ونفسها، وهذا ما نجده في القصة من خلال قوله تبارك وتعالى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[2]، والقول هنا موجه لذاتها متمنية الموت على الفضيحة التي سوف تلحقها من جراء هذا الإنجاب المخالف لكل الأعراف والقوانين المتعارف عليها بين البشر، فقد تمنت الموت قبل ذلك؛ فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع

[1]– سورة المجادلة، الآية 01.

[2]– سورة مريم، الآية 23.

فيما وقعت فيه[1] فهي لم تستطع أن تفهم ما حدث لها، ولم تستطع أن تستوعب تلك المفاجأة العظمى، وذلك الحدث الخارق للعادة، وموقفها هذا يدل على شيئين:

1- يدل على واقعيتها وبشريتها، فهي ككل امرأة عفيفة تخاف على عرضها وشرفها، فترضى بالموت على أن يمس عرضها.

2- أن الله لا يظهر معجزاته إلا على المصطفين الأخيار، الذين يحتاطون لدينهم وعرضهم.

أما النوع الثاني من الحوار، في هذه القصة فهو الحوار الخارجي، الذي يقع بين شخصين أو أكثر، ويتجسد هذا النوع من الحوار في حوار (زكريا) مع (مريم) حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، فالحوار على مستوى هذه الآية الكريمة قائم بين النبي (زكريا) عليه السلام وبين (مريم ابنة عمران) كفيلة (زكريا) عليه السلام.

إن الحوار هنا قائم على استفهام (زكريا) عن مصدر الرزق الذي يجده عند (مريم)، وهو سؤال مقتضب دقيق "من أين لك هذا؟" وهذا الاستفهام يكشف عن شخصية (زكريا)، فهو النبي والمربي الصالح المؤمن الذي لا يقبل وجود هذا الرزق عند كفيلته ولا يعرف مصدره، وجاء الرد من قبل (مريم) وهو رد مؤمن بقدرة الله الذي يرزق من غير أسباب ولا مسببات، فمصدره هو الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولكنها استرسلت في الإجابة للتوضيح ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

[1]- محمد الطاهر عاشور تفسير التحرير والتنوير، ص58.

[2]- سورة آل عمران، الآية 37.

حِسَـــابٍ﴾ وإجابتهـا الصـريحة، والواضـحة قطعـت عـن زكريـا كـل الظنـون والشـكوك التي يمكن أن تدور بخلده.

فـالموقف كمـا يجسـده الحـوار هـو موقـف إيمـاني، والحـوار قـد اشـتمل علـى نـوع مـــن المطارحـــة الحواريـــة الإضـــائية الصـــادرة عـــن طبيعـــة المتحـــاورين، الصـــريحة والصادقة، وعلاقتهما التفاعلية، وشخصيتهما الإيمانية.

و المتحـاورون فـي هـذه الآيـة الكريمـة مـن طبيعـة واحـدة، وهـي طبيعـة البشـرية، بينمـا نجـد فـي هـذه القصـة حـواراً بـين شخصـيتين مـن طبيعـة مختلفـة إحـداهما بشـرية، والأخـرى ملائكيـة وذلـك فـي حـوار مـريم مـع جبريـل عليـه السـلام وفـي ذلـك يقـول سـبحانه وتعـالى: ﴿وَاذْكُـرْ فِـي الْكِتَـابِ مَـرْيَمَ إِذِ انتَبَـذَتْ مِـنْ أَهْلِهَـا مَكَانًـا شَـرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَـاتَّخَـذَتْ مِـن دُونِهِـمْ حِجَابًـا فَـأَرْسَـلْنَا إِلَيْهَـا رُوحَنَـا فَتَمَثَّـلَ لَهَـا بَشَـرًا سَـوِيًّا ﴿١٧﴾ قَـالَتْ إِنِّـي أَعُـوذُ بِـالرَّحْمَنِ مِنْـكَ إِن كُنتَ تَقِيًّـا ﴿١٨﴾ قَـالَ إِنَّمَـا أَنَـا رَسُـولُ رَبِّـكِ لِأَهَـبَ لَـكِ غُلَامًـا زَكِيًّـا ﴿١٩﴾ قَـالَتْ أَنَّـى يَكُونُ لِـي غُلَـامٌ وَلَـمْ يَمْسَسْنِي بَشَـرٌ وَلَـمْ أَكُ بَغِيًّـا ﴿٢٠﴾ قَـالَ كَـذَلِكِ قَـالَ رَبُّـكِ هُـوَ عَلَـيَّ هَـيِّنٌ وَلِنَجْعَلَـهُ آيَـةً لِّلنَّـاسِ وَرَحْمَـةً مِّنَّـا وَكَـانَ أَمْـرًا مَّقْضِيًّـا﴾.[1]

إن الحـوار فـي هـذه الآيـات تـم بـين (مـريم) الشخصـية المحوريـة فـي القصـة، وهـي بشـرية، مـع شخصـية ملائكيـة هـي شخصـية (جبريـل) عليـه السـلام، حيـث تمثـل لهـا فـي صـورة بشـر سـوي الخلقـة، فلمـا رأتـه بادرتـه بـالتعوذ منـه قبـل أن يكلمهـا خوفـا

[1]- سورة مريم، الآيات 16- 21.

منه وشكا في نواياه، فقالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾[1] فلما أخبرته أنها جعلت الله ملجأ لها منه، ثم ذكرته بالتقوى، حتى يتقي الله فيها.

و لما أنهت قولها هذا الذي ينبئ بخوفها منه أجابها على الفور ليبدد كل ظنونها فيه فقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[2] فقطع عنها كل شك في بشريته، ولكنه جاء ليهب لها غلاما زكيا، وهذا مما زاد خوفها وتعجبها فسألته، كيف يكون لها غلام وهي غير متزوجة ولا زانية، فقالت: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.[3]

وهذه المحاورة كما يقول ابن عاشور "ومحاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عما جاء لأجله؛ لأنها عملت أنه مرسل من الله فأرادت مراجعة ربها في أمر لم تطقه كما راجع إبراهيم عليه السلام في قوم لوط"[4]

وفي الأخير أجابها الملك ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وقوله هذا يشير إلى إبطال مرادها من المراجعة، وبيان هون هذا الخلق في جانب القدرة الإلهية، وهذا الحوار عكس لنا أمرين:

الأول: كشف عن شخصية (مريم) الإيمانية التي تتنزه عن الوقوع في الفواحش فهي طاهرة عفيفة، لأنها تربت تربية حسنة في بيت النبوة.

---

[1]– سورة مريم، الآية 18

[2]– سورة مريم، الآية 14

[3]– سورة مريم، الآية 20.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ص81.

الثـــاني: بـين قـدرة الله التـي لا تحـدها حـدود وأن الله فـي خلقـه لا يخضـع للأسـباب والمسـببات كبقيـة البشـر، وأن الأمـر عنـده هـين وأن مـراد الله نافـذ وإن تعارض مع مراد البشر.

كمـا نجـد فـي القصـة حـوارا بـين جماعـة مـن المخـاطبين وهـم (قـوم مـريم) وبـين مخاطـب واحـد وهـي (مـريم) وذلـك فـي قولـه تبـارك وتعـالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1]. فقـولهم هـذا يحمـل فـي ظـاهره المـدح، وفـي باطنـه الـذم، إذ "عنـوا بهـذا الكـلام الكنايـة عـن كونهـا أتـت بـأمر لـيس مـن شـأن أهلهـا... وخالفـت سـيرة أبويها فكانت امرأة سوء... ومبتكرة الفواحش في أهلها".[2]

و لكـن مـريم لـم تـرد علهـم بـالقول؛ لأن مثـل هـؤلاء القـوم الـذين يحملـون نفوسـاً مريضـة بالشـك وسـوء الظـن لـن يفيـد معهـم الكـلام، فالتزمـت الصـمت، وردت علـيهم بالإشـارة لتحـيلهم علـى الصـبي الصـغير فـي المهـد، ليجيـبهم عـن تـوبيخهم لهـا، وسخريتهم منها.

و هنـا تـأتي المفاجـأة الكبـرى، والمعجـزة العظمـى، التـي أخرسـت أفـواه القـوم السـاخرين فقـال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.[3]

---

[1]– سورة مريم، الآية 27–28.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ص96.

[3]– سورة مريم، الآية 31.

فهذا المشهد الحواري يعكس طبيعة هذه الشخصيات، فقومها ذوي طبيعة شكاكة، لا تظن إلا السوء، وهؤلاء لا يترددون في إيذاء الآخرين دون التريث للتأكد من الحقائق، وأسلوبهم استفزازي يهدف إلى إغضاب الآخر.

أما طبيعة مريم فهي صبورة رغم ما سمعته من كلام جارح في عرضها وشرفها، فلم ترد عليهم بل التزمت الصمت، وهذا دليل على حكمتها وعفتها ظاهرا وباطنا، حتى جاءها الفرج من الله سبحانه وتعالى في رد ابنها عليهم، فالحوار في هذه القصة بصفة عامة قد كشف عن طبيعة الشخصيات وساهم في تطور الحدث وبيّن الحقيقة وأوصل إلى الهدف.

والقرآن الكريم لم يقتصر على ذكر النماذج الإيجابية، بل أشار إلى مجموعة من النماذج السلبية التي تعيش في المجتمع البشري، وتعيث فيه فسادا كامرأة (نوح)، وامرأة (لوط)، اللتين ذكرهما القرآن الكريم تنبيها على خطورة أفعالهما وتحذيرا منها، فقال الحق فيهما: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[1].

والخيانة ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك بتفريط المرء فيما اؤتمن عليه وما عهد به إليه[2]، ويرى المفسرون أن خيانة (امرأة نوح) و(امرأة لوط)، كانت خيانة دعوة لا خيانة الفاحشة، لأن امرأة نوح كانت خيانتها دينية إذ كانت كافرة وتخفي ذلك عن زوجها، كما كانت تسخر منه مع الساخرين.

---

[1]– سورة التحريم، الآية 10.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج27، مرجع سابق، ص375.

أما امرأة لوط فكانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه، فخيانتها خيانة أخلاقية حيث تبوح بسر زوجها، والله سبحانه وتعالى بين أن لا شفاعة في أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء.[1]

ومن النماذج السلبية الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم (امرأة أبي لهب) وذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.[2] فهذه المرأة كانت تسيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بوضع الشوك في طريقة، وقيل أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس.

إضافة إلى هذه النماذج السلبية في خيانة الدين والخلق هناك نماذج تمثل خيانة أخرى وهي خيانة العرض والشرف، التي لا تقل ضررا عن الخيانات السابقة ومثالها في القرآن الكريم (امرأة العزيز).

النموذج السلبي امرأة العزيز

ومن الشخصيات النسوية المحورية التي ذكرت في أحسن القصص شخصية (امرأة العزيز) التي تمثل النموذج السلبي لامرأة أعمتها الغريزة، وسيطرت على سلوكها الدوافع الجامحة، وهيمنت على أحاسيسها ومشاعرها الرغبة المحمومة فاتخذت كل التدابير، واحتاطت لكل الطوارئ، وبيتت النية وعقدت العزم، وغلّقت الأبواب وراودت يوسف وطلبته".[3]

---

[1]– حامد حسين الفلاحي، نساء في القرآن الكريم، مكتبة سلسبيل، الفلوجة، العراق، ص47.

[2]– سورة المسد، الآية 4–5.

[3]– خالد أبو جندي، الجانب القصصي من القصة القرآنية، ص191.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1]، يقول صاحب النهر الماد في تفسير هذه الآية الكريمة المقصود (بالمراودة): المطالبة برفق من راد، يرود، مراودة، إذا ذهب وجاء، في مفاعلة من واحد"[2]، ويقال: "راوده على الشيء يراوده مراودة ورواداً، طلبه منه، وراوده عن الشيء، جهد في طلبه منه"[3]

و القرآن الكريم لم يصرح بامرأة العزيز ولا باسمها حفاظا على الأعراض وسترا على عباده، حتى وإن ظلموا أنفسهم، بمحاولة ارتكاب الخطيئة أو التحضير لها، كما أنه "لم يصف هذه المرأة بأنها سيدة يوسف تكريما له".[4]

حيث قال الله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ فاحتاطت لنفسها وأحكمت إغلاق الأبواب التي كانت سبعة أبواب كما يقول صاحب النهر الماد[5] ثم عرضت نفسها رخيصة ذليلة مهانة قائلة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ و"هيت" هو اسم فعل أمر بمعنى "أسرع" فقد تهيأت لك.

من هذا نخلص إلى أن الغريزة الحيوانية إذا سيطرت على صاحبها أورثته المهانة والحقارة، وأفقدته الحياء والعزة.

و إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أنها جاءت بأسلوب بلغ الدقة والاتقان في التعبير عن هذا الأمر الشنيع في محاولة ارتكاب الفاحشة ولكن القرآن الكريم عبر بطريقة لطيفة فيها من الستر والحفاظ على الأعراض ما لا يمكن لأسلوب آخر أن

---

[1]– سورة يوسف، الآية 23.

[2]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص113.

[3]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج3، مرجع سابق، ص57.

[4]– تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2007، ص267.

[5]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، المرجع السابق، ص113.

يضاهيه أو يجاريه؛ لأن المقصود بالمراودة هو تكرار المحاولة لارتكاب الخطيئة المحرمة، ولم يصرح بها القرآن الكريم.

كما نجد بلاغة التعبير في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ حيث جاء الفعل (غلَّق) بالتضعيف ليدل على الكثرة، وعلى امساك الإغلاق، إلا أن إرادة الله تدخلت في الوقت المناسب فحفظت كلا من يوسف وامرأة العزيز من الوقوع في المحظور، إذ تأبى يوسف عن مجاراتها في رغبتها، وفر هاربا، فحاولت الامساك به، حتى تمزق قميصه من الخلف وانفلت منها، ولكن ارادة الله أقوى حيث تأتي المفاجأة ويرى برهان ربه.[1]

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، ولقد همت به لكن يوسف عليه السلام لم يقع منه الهم لأنه رأى برهان ربه.

وعلى الرغم من ذلك لم تستسلم المرأة فتمسكت بقميص (يوسف) حتى تمزق من الخلف، ولكن إرادة الله تتدخل في الأوقات الحرجة لتكشف السوء عن عباده المخلصين ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[3]

فالآية الكريمة تشير إلى أن كلا منهما قد أسرع إلى الباب، هو للهروب منها وهي لرده وإرجاعه إليها، وأثناء ذلك مزقت قميصه من الخلف، ووجدا سيدها وهو زوجها عند الباب، وكانت المفاجأة عنيفة، إلا أن جوابها كان حاضرا وكانت سريعة

---

(1)– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص113.

(2)– سورة يوسف، الآية 24.

(3)– سورة يوسف، الآية 25.

البديهة، حتى أنها لم تعط فرصة لتفكير العزيز ليتصرف مع يوسف بعد هذا الاتهام الصريح، وفي الوقت نفسه أشارت على زوجها بالعقاب المأمون جانبه، وهو السجن أو العذاب الأليم.[1]

لكن (يوسف) عليه السلام لم يستسلم لهذا الحكم ودافع عن عرضه وشرفه، قائلا: [2].

فـ(يوسف) قد بين أن (امرأة العزيز) هي التي راودته عن نفسه وجاء بضمير الغائبة (هي)؛ لأن المواجهة بالقبيح فيه احراج على عكس الغيبة، ولما اختلفا في الرأي طلب الزوج المنصف أن يأتي كل واحد منهما بالدليل حتى يحكم بالعدل، وجاء من يشهد ليوسف عليه السلام بأن ينظر في قميص يوسف، إن مزق من الخلف فهو صادق وهي كاذبة، وإن كان العكس في الصادقة وهو من الكاذبين، وقد تبين للعزيز أن قميص يوسف قُد من الخلف.[3]

فالمقابلة في الآية الكريمة بين صورتين متضادتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والثانية في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فقد أضفت على التعبير القرآني جمالاً حيث جعل الصلة قوية بين الألفاظ والمعاني، وأبانت عن الأفكار وزادتها وضوحا.

[1]– محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ج3، مرجع سابق، ص225.

[2]– سورة يوسف، الآية 26–27.

[3]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ج3، المرجع السابق، ص129.

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1]، فهذا قد أثبت صدق (يوسف) وبراءته، وكذب (امرأة العزيز) وخيانتها، وأن هذا من كيدها وكيد النساء بصفة عامة، وقد وصف الله على لسان العزيز كيدهن بالعظيم.

وما كان من (العزيز) إلا أن حاول ستر هذه الفضيحة بمحاولة اخفائها والتستر عليها، مخاطبا يوسف وامرأته قائلا: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.[2]

فطلب من يوسف كتمان هذا الخبر وعدم التحدث به، كما طلب من امرأته أن تستغفر لهذا الذنب؛ لأنها من الخاطئين "ولم يقل من الخاطئات؛ لأن الخاطئين أعم لأنه ينطبق على الذكور والإناث بالتغليب[3].

وهنا تبدوا صورة الطبقة الراقية في مواجهة الفضائح بالتكتم عليها، وعدم اظهار الغضب أو الغيرة على الحرمات والأعراض، لأن العزيز كان حليما أو كان قليل الغيرة، فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها، لأنه كان مولعا بها[4]، إلا أني أرى أن الرجل مهما كان حليما أو قليل الغيرة أو مولعا بالمرأة لا يصل إلى الدرجة التي تجعله ديوثا يرضى الدنية في أهله ولا يهتز لذلك.

ويرى ابن عاشور أن "هذا الأمر كان غير بدع في قصورهم بأن تستمتع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته"[5]. وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح الرجل

---

[1]– سورة يوسف، الآية 28.

[2]– سورة يوسف، الآية 29.

[3]– أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ج3، المرجع السابق، 116.

[4]– اسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، مج4، دار الفكر لبنان، ص 243.

[5]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، مرجع سابق، ص 251– 258.

إذا لا فرق بينه وبين أسوء الحيوانات وهو الخنزير الذي لا يتحرج لاستمتاع خنزير آخر بأنثاه.

ورغم محاولة (العزيز) التكتم على الخبر إلا أنه سرعان ما ذاع وانتشر في المدينة على ألسنة النسوة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[1]

ومع حرص (العزيز) أن تظل هذه الأحداث في طي الكتمان حتى لا تؤثر على مكانته، وأن لا تنال من هيبته، إلا أنها شاعت وذاعت حتى أصبحت حديث النساء في المدينة.[2]

فقلن (امرأة العزيز) تراود فتاها وتحاول مخادعته عن نفسه لتقضي وطرها منه، وقد بلغ حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها، وإنا لنراها في ضلال بسبب حبها ومراودتها.[3]

ولما وصل إليها حديثهن، دبرت لهن مكيدة للانتقام لعرضها الملوك بألسنتهن، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.[4]

فالآية الكريمة تبين الحيلة التي قامت بها امرأة العزيز لتجمع النسوة بإقامة مؤدبة طعام في بيتها، وأعطت كل واحدة منهن سكينا لتقطيع اللحم أو الفاكهة، ثم

---

(1)– سورة يوسف، الآية 31.

(2)– أحمد محمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، ج1، مرجع سابق، ص302.

(3)– محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج 2، مرجع سابق، ص449.

(4)– سورة يوسف، الآية 31.

أمرت يوسف بالخروج عليهن، فلما رأينه عظمن شأنه، وجرحن أيديهن لاندهاشهن نتيجة لفرط جماله، "ونفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما هو عليه من محاسن الصور، وأثبتن له الملَكية[1]، أي أنه ملاك وليس بشراَ.

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.[2]

نلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن امرأة العزيز التي أنكرت مراودة فتاها أمام زوجها، فهي تعترف بذلك أمام النسوة اللائي استهجن فعلها، وفي هذا يقول (ابو جندي): "فها هي إذ ترى انبهار النسوة بجمال يوسف تشعر بأنها على حق فيما أقدمت عليه من المراودة، فتعلن ذلك، ولكنها تعلن من حيث لا تدري براءة (يوسف)" [3]، بل أرى أنها تعلم برأته ولكن لا ترى طاعته، وهو الأمر الذي تريده، ولقد استعصم، وصرحت بذلك قائلة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[4]، وفي الاستعصام ايحاء بتكرار الموقف الثابت ليوسف عليه السلام وعدم الرضوخ لامرأة العزيز [5]، لأن الفعل (عصم) زيد عليه (السين والتاء) للمبالغة، والزيادة في المبنى زيادة في المعنى لبيان المبالغة في الاستعصام.

نرى روعة التعبير ودقته في الآية الكريمة ففي قوله تعالى ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ فـ(ذا) اسم إشارة والمشار إليه يوسف عليه السلام، واللام للبعد وذلك لبعد منزلة يوسف عليه السلام وسمو مكانته وبعده عن السوء، وقوله: ﴿لُمْتُنَّنِي﴾ فاللوم والعتاب لا

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص74.

[2]– سورة يوسف، الآية 32.

[3]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص292.

[4]– سورة يوسف، الآية 32.

[5]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص192.

يكون إلا في أمر خاطئ، وهي تدرك أن ما تقوم به من المراودة خطأ في حقها وحق زوجها وحق يوسف، ولقد استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿المراودة﴾ للتعبير عن محاولتها المتكررة لإخضاعه لرغبتها الحيوانية، ونلاحظ أن الفعل (راود) عدي بـ (عن) لما فيه من معنى المخادعة.[1]

وهي فعلا أرادت مخادعته ليستسلم لنزوتها الحمقاء، كما نجد جمال التعبير في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ فالسين والتاء للمبالغة أي عصم نفسه من الوقوع في الخطأ.[2]

ورغم ذلك لم تيأس بل ظلت تصر على فعلتها مهددة إياه بعقابه بالسجن أو بالإهانة والإذلال ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.[3]

وفعلا نفذت تهديدها بإدخاله السجن، لكن الله تبارك وتعالى أراد أن يظهر براءته على يد المرأة التي اتهمته وأدخلته السجن – مع النسوة اللائي حضرن مجلسها– وذلك بعد أن طلبه الملك للمثول بين يديه بعد أن فسر له رؤياه، إلا أن (يوسف) عليه السلام أبى المثول أمام يدي (الملك) إلا بعد أن يعرف حقيقة النسوة اللائي قطعن أيديهن، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.[4]

---

[1]– مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص77.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص 264.

[3]– سورة يوسف، الآية 32.

[4]– سورة يوسف، الآية 50.

ويوسف بسؤاله هذا يود أن يظهر براءته قبل خروجه من السجن، حتي يعلم الجميع ذلك، وأنه ما دخل السجن إلا بسبب تلك المكيدة المدبرة له، وقد استجاب الملك لطلبه، وجمع النسوة وسألهن: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[1]

وهنا يأتي الدليل القاطع على نزاهة يوسف وبراءته مما نسب إليه من المراودة، حيث أجابت النسوة بقولهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ واستعمال لفظة ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ مبالغة في النفي والتنزيه.[2]

وفي الأخير تأتي الحجة الدامغة على براءة (يوسف) باعتراف (امرأة العزيز) التي عاد إليها صوابها قائلة: الآن قد تبين الحق، فأنا من راودته عن نفسه وهو صادق في أفعاله وأعماله.

ونلاحظ أن الآية الكريمة التي وردت في صدق (يوسف) على لسان (امرأة العزيز)، جاءت مؤكدة بـ (أن) و(اللام) ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لتدل على صدق (يوسف) الأكيد الذي لا شك فيه، وهذا من بلاغة التعبير القرآني حيث يدل المبنى على المعنى بدقة واتقان. ثم تواصل امرأة العزيز تبرئة يوسف وتبرئة نفسها في الوقت نفسه قائلة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.[3]

---

[1]– سورة يوسف، الآية 51.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص 290.

[3]– سورة يوسف، الآية 52.

يقول (صاحب النهر الماد): "الظاهر أن هذا من كلام امرأة العزيز وهو داخل تحت قوله: ﴿قَالَتْ﴾ والمعنى ذلك الاقرار والاعتراف بالحق، ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته وأكذب عليه، وأرمه بذنب هو بريء منه، ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات[1] بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2]

فالآية الكريمة تشير إلى اعتراف المرأة ببراءة يوسف عليه السلام وبخطئها، وبررت ذلك بالنفس الأمارة بالسوء، إلا من رحمه الله برحمته من الوقوع في الخطأ، وهنا إشارة إلى عصمة يوسف من الوقوع في الفاحشة وأن الله غفور رحيم لمن تاب وأناب، وهذا الكلام من تتمة كلام المرأة.[3]

إلا أن هناك من يرى من المفسرين أن هذا من كلام (يوسف) عليه السلام وفيه تعريض بـ(امرأة العزيز) التي خانت زوجها، وتعريض بالعزيز الذي قابل الأمانة بالخيانة حيث حبس يوسف وكان الأجدر به أن يتأنى في الحكم عليه، وأن يكافئه لا أن يعاقبه بالسجن فقد قابل الإحسان بالإساءة ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أراد بهذا القول أن يتواضع لله ويهضم نفسه لأن لا يكون لها مزكيا وبحالها في الأمانة معجبا ومفتخرا. [4]

---

[1]– أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، مرجع سابق، ص130.

[2]– يوسف، الآية 53.

[3]– أحمد محمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، مج1، مرجع سابق، ص325.

[4]– الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، ص81.

والظاهر من سياق الآية الكريمة أن هذا من كلام امرأة العزيز، وحمله على يوسف عليه السلام فيه تكلف وتعسف[1]؛ لأن (يوسف) لم يذنب ولم يقع منه سوء حتى يقول وما أبرئ نفسي، فنفسه كانت بريئة من كل ما حدث.

من خلال هذا المشهد من قصة (يوسف) عليه السلام نجد (امرأة العزيز) قد شكلت مفصلا مهما في هذه القصة، إذ كانت نقطة البداية التي مهدت ليوسف عليه السلام أن يعتلي حكم خزائن مصر، حيث دخل هذا البيت عبدا رقيقا، فطلب من (امرأة العزيز) أن تكرمه وتحسن إليه، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[2].

إلا أن الأقدار غيرت طبيعة المرأة التي كانت من المفروض أن تكون بمثابة الأم ليوسف عليه السلام، فأصبحت شغوفة بحبه، بل تجاوزت موقف المحب إلى موقف الملهوف على ارتكاب الخطيئة والمعصية، ولكن في الأخير اعترفت المرأة بخطئها وبرأت نبي الله يوسف عليه السلام.

ملامح شخصية امرأة العزيز في مشهد (الإغواء) من قصة يوسف عليه السلام

امرأة العزيز تعد من الشخصيات الفاعلة في قصة يوسف عليه السلام، حيث كان لها دور فعال في تطور الأحداث وتغيير مسارات القصة، وهي من النماذج الفريدة لما تحمله من دلالات نفسية متناقضة، فهي تارة تمثل سيطرة الغريزة على النفس البشرية، وما تمليه النفس الأمارة بالسوء على صاحبها ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[3]، وتارة تمثل يقظة الضمير الإنساني

[1]– أحمد محمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، مج1، مرجع سابق، ص325.

[2]– يوسف، الآية 21.

[3]– يوسف، الآية 23.

عندما يصحوا من غفوته فيخضع لما يمليه عليه ضميره الحي من صدق وأمانة وإخلاص.

لهذا كان سلوكها يمتاز بالصخب والضجيج والوحشية والجبروت، عندما كانت تحت سيطرة الغريزة، ولكن عندما استفاق ضميرها تصرفت بتعقل واتزان[1].

فالقرآن الكريم قد رسم لنا صورة دقيقة لامرأة وقعت تحت ضغط الغريزة الحيوانية، محاولة في بداية الأمر الضغط على نفسها وكبح جماحها حتى لا تفقد كرامتها أمام فتاها، فبدأت بالمراودة علها تستميله إليها، ولما فشلت تلك المحاولة الخبيثة نزعت عن وجهها قناع الحياء والحيلة، فكشفت عن قصدها ودعته إليها صراحة، قائلة له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وهو طلب فيه من الصفاقة وقلة الحياء ما فيه؛ لأن من طبيعة المرأة أن تكون المطلوبة لا الطالبة، ولما استنفدت المرأة كل الوسائل لقضاء رغبتها، حيث استعصم يوسف بالله سبحانه وتعالى ولم يجاريها في ارتكاب جريمتها محاولا الفرار منها ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

هنا نجد القرآن الكريم يصور (امرأة العزيز) في حركتها الغاضبة، كأنها تتحرك أمام أعيننا مسرعة في حالة عصبية جنونية، لتمسك بفتاها وهو يجري مسرعا للانفلات منها والخروج من عندها، فتلحق به ممسكة بقميصه بقوة حتى مزقته، وما إن وصلا حتى وجدا (العزيز) أمامهما بالباب، وهنا تكون المفاجأة

[1]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص192.

[2]– سورة يوسف، الآية 25.

عنيفة، ولكنها أسرعت في دهاء وخبث لنفي التهمة عن نفسها قائلة: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]

إن هذا التصرف السريع من جانبها يدل على سرعة بديهتها وشدة ذكائها حيث تحولت – بسرعة – تعبيرات وجهها ونظرتها لكي تبدو في صورة الخائفة المرتعبة التي جاءتها النجدة في وقت لم تكن تتوقعها فيه[2]، وهي لم تتوقف عند هذا الحد بل حاولت أن تبين لزوجها ما يجب أن يتخذه حيال هذا المعتدي، وهو السجن أو العذاب الأليم، إلا أن (يوسف) قد فوت عليها هذه الفرصة كاشفا الحقيقة ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]

وبعد أن انكشفت الحقيقة وأصبح الدليل قاطعا أمام ناظري (العزيز) لم يجد بدا من محاولة ستر الموضوع حتى لا يفتضح أمر المرأة وينكشف ستر البيت قائلا: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾[4]

إلا أن خبر المراودة قد ذاع وانتشر بين نسوة المدينة واستقبحن موقف (امرأة العزيز) مع فتاها فقلن: ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[5]، إلا أن (امرأة العزيز) لم تسكت إزاء هذا القيل والقال

---

[1]– سورة سورة يوسف، الآية 25.

[2]– أحمد علي المجدوب، المعالجة القرآنية للجريمة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1998، ص132.

[3]– سورة يوسف، الآية 26–27.

[4]– سورة يوسف، الآية 29.

[5]– سورة يوسف، الآية 30.

في عرضها، فحاولت بدهائها ومكرها أن تنتقم لنفسها فدبرت لهن مكيدة لتوقعهن فيما وقعت فيه "فرأت أن تدينهن وتضعهن أمام المحنة التي تعيشها"[1]، وقد انطلت عليهن الحيلة ووقعن في الفخ المنصوب لهن، حيث انبهرن بجمال (يوسف)، وقطعن ايديهن وقلن: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2]، هنا تبدو امرأة العزيز منتصرة قائلة: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. [3]

وهنا يرسم القرآن الكريم صورة لامرأة متغطرسة متعالية أعمتها الغريزة، واختفى عندها منطق العقل، فهي تمثل دور المنتصر على النسوة، ودور الآمر الناهي على يوسف، رافعة عن وجهها غطاء الحشمة والحياء، "وفي هذا السلوك إشعار فني يوحي إلينا بقدرة امرأة العزيز واقتدارها في آن واحد، فهي قادرة بعقلها على تدبير المكائد"[4].

يبدو لي أن هذا السلوك لا يدل على العقلانية والقدرة بقد ما يدل على التهور وليس صادرا عن العقل، وإنما هو سلوك انفعالي صادر عن العاطفة والغريزة البهيمية، وخاصة أنها قد دبرت المكائد، والكيد هو أسلوب الضعفاء لا الأقوياء المقتدرين.

وهنا يجب أن أشير إلى لفتة أشار إليها القرآن الكريم أن المرأة التي تفقد الرجولة في زوجها، قد تلجأ إلى من تجد فيه هذه الصفة، حتى لو كان عبدا مملوكا، وهذا ما يبدو في شخصية العزيز المستهينة حتى بشرفه وعرضه.

---

[1]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص196.

[2]–سورة يوسف، الآية 31.

[3]–سورة يوسف، الآية 32.

[4]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص197.

إلا أن امرأة العزيز يتغير موقفها بعد أن يسجن يوسف فتصبح امرأة أخرى، تتحدث بلسان صادق، معلنة براءة يوسف عليه السلام نافية عنه كل التهم التي ألصقتها به، قائلة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

إن المتتبع لسلوك هذه المرأة يلاحظ أن هناك تباينا في شخصيتها، فعندما كانت تحت وطأة العاطفة والغريزة، كانت تتصرف بتهور وصفاقة وجنون، وعندما تخلصت من ضغط العاطفة والغريزة، عاد إليها رشدها فتصرفت بعقلانية وحكمة وصدق، فاعترفت بخطئها، وخيانتها، راجية الرحمة والغفران معترفة أن النفس أمارة بالسوء قائلة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2]

وهذا التناقض الحاصل في سلوك امرأة العزيز يعكس صورة النفس الإنسانية بصفة عامة، وما تحمله بين جوانحها من صراع بين الخير والشر، فهي بكل المقاييس تمثل طبيعة النفس البشرية حال ضلالها وحال هدايتها، وبهذا خرجت عن طبيعة الشخصية الفردية إلى طبيعة الشخصية الكلية[3].

كما نلاحظ أن القرآن الكريم لم يعر أي اهتمام للجانب الشكلي لهذه المرأة؛ لأن الله لا ينظر إلى أشكالنا ولا إلى صورنا، ولكنه ينظر إلى جوهر الإنسان المتمثل في قلبه، وما يحمله من فيم أخلاقية سامية، أو من شر وسوء طوية.

---

[1]– سورة يوسف، الآية 51– 53.

[2]– سورة يوسف، الآية 53.

[3]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص198.

ولهذا نجد القرآن الكريم قد رسم الأبعاد الخيرة والشريرة لهذه المرأة (امرأة العزيز) ليبين لنا أن النفس الإنسانية تحمل بين طياتها ثنائيات ضدية فيها الخير وفيها الشر، وأن النفس الأمارة بالسوء قد تهوي بصاحبها إلى مدارك الهلاك، وتجعله ينحط إلى مستوى الحيوانات المتوحشة، أما النفس المتيقظة الحية الضمير، المتقية لله، تسمو بصاحبها إلى أعلى درجات الفوز والنجاح.

ورغم ما يحويه هذا المشهد من تقنيات فنية في رسم هذه الشخصية إلا أن الهدف الأساسي منها هو العبرة والعظة، حتى يدرك كل إنسان خطورة السعي وراء أهوائه ورغباته التي تحط من قيمته وقدره، وفي المقابل عليه أن يعمل من أجل مجاهدة النفس ليصل إلى سعادة الدارين، كما فعل يوسف عليه السلام الذي رضي بالسجن والعذاب على أن يجاريها في ارتكاب الخطيئة قائلا: ﴿. . . رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

وهذا الموقف الكريم الذي ثبت عليه "يوسف" عليه السلام درس بليغ في الحكمة[2] يجب على كل مسلم ومسلمة أن يقتدي به في حياته، وخاصة في هذا الزمن المليء بالمغريات.

وفي الأخير يجب أن أشير إلى أن هذا المقطع من سورة يوسف عليه السلام يحوي مجموعة من الشخصيات كلها أسهمت بطريقة أو بأخرى في إبراز الحدث وتطوره ليصل إلى الهدف الذي من أجله سيقت القصة، إلا أن الشخصيات المحورية التي دار حولها حدث المراودة هي: شخصية (امرأة العزيز) وشخصية "يوسف" عليه السلام، وهما شخصيتان مهمتان في هذا المشهد وتتمثل أهمية هذه الشخصيات الرئيسية بالقيمة التي تحملها لتكون أهلا للتأسي بها، أو تكون قيمتها

---

[1]– سورة يوسف، الآية 33.

[2]– أحمد محمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، مج1، ص333.

فيما تحمله من شر للتنفير منها، فمحورية الشخصية لا تنحصر في ذاتها بل في قيمتها[1].

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هاتين الشخصيتين المحوريتين عبارة عن نماذج بشرية واقعية ذكرت بأسمائها أو بانتسابها لأسماء أخرى معروفة لتكون رمزا للقيمة التي تحملها.

فشخصية يوسف عليه السلام ترمز للعفة وما يتبعها من صدق، وأمانة، وثبات، وتقوى، وأهميتها تكمن في هذه القيمة الخلقية العالية وهي (العفة)، بحيث يمكن أن تتخذ قدوة في الحياة.

أما شخصية (امرأة العزيز) فلم تذكر باسمها بل منتسبة إلى زوجها (العزيز) حفاظا على الأعراض وسترا عليها، فهي تمثل الصراع القائم داخل النفس الإنسانية بين الخير والشر وكيف يطغى الجانب السلبي أحيانا على النفس الإنسانية وخاصة عند المرأة حيث طغت الرذيلة وما تبعها من كذب وخيانة وتدبير للمكائد وظلم للآخرين، فهذا نموذج حي يرمز للرذيلة حين تطغى على النفس الإنسانية، وعلى الإنسان أن يبتعد عن هذا السلوك حتى لا يقع فيما وقعت فيه امرأة العزيز من ذل وصغار، حتى يتخذ منه العبرة والعظة.

وعليه إن أخطأ كما أخطأت هذه المرأة أن يتراجع عن خطئه ويتوب عن ذنبه إلى الله، ولا يتمادى في خطئه فيتراجع كما تراجعت هذه المرأة واعترفت بخطئها.

الأحداث في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام

إن الحدث في القصة القرآنية حدث حقيقي وقع بالفعل في مكان معين، وزمان محدد، قام به أشخاص حقيقيون، عاشوا أعمارهم، وقضوا حياتهم على

[1]– عماد عبدو يحيى، البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، مرجع سابق، ص345.

مصرح الحياة؛ ولهذا لا يمكن الفصل بين الحدث والشخصية ؛ لأن الشخصية هي التي تقوم بالحدث، وهي التي تبلوره وتحدده، من خلال تصرفاتها، وحركاتها، وسكناتها.

وقصة يوسف عليه السلام تعرض لنا مجموعة من الأحداث الفنية الناضجة، والمقصود بالحدث الفني الناضج كما يعرفه الدكتور خالد أبو جندي بقوله: "وأعني بالحدث الفني الناضج أن يكون الحدث ذا ثلاثة أجزاء متضافرة، بداية وتوتر فيه إثارة، ونهاية مفتوحة، وأعني بمفتوحة أن تسمح بتولد الحدث من الحدث"[1].

وسوف أتناول بالدراسة مقطعا من قصة (يوسف) عليه السلام يتناول حدثا فنيا ناضجا، وهو حدث "الإغواء" وهو حدث رئيسي وهام في حكاية القصة لا يختلف عن حدث ورود السيارة إذ في كل منهما البداية، والتوتر، والنهاية المفتوحة.

والأحداث في هذا المقطع من قصة (يوسف) عليه السلام تبدأ بدخول "يوسف" إلى "مصر" حيث بيع بثمن بخس دراهم معدودة وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[2].

وهذا الحدث يعد نقطة تحول في حياة (يوسف) عليه السلام إذ يبدو في ظاهره، إذلال له، وسلب لحريته، وابعاده عن أهله وذويه، وامتهان لكرامته؛ لأنه الكريم ابن الكريم، إلا أن الله قد أضمر له في هذا الحدث العزة والكرامة، ومكن له في الأرض فجعله حاكما على خزائن مصر.

وبعد هذا الحدث (حدث البيع) يعقبه حدث آخر متصل به، وهو دخوله إلى بيت (العزيز) وهو صاحب الملك وخازنه[1].

---

[1]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص148.

[2]– سورة يوسف، الآية 20.

وعندما اشتراه أوصى زوجته بأن تحسن إليه، وتكرم مقامه، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[2].

وهذه الوصية التي أوصى بها العزيز امرأته تدل على أن العزيز قد رأى علامات الذكاء على هذا الغلام، زيادة على ما حباه الله به من الجمال، لذا أراد أن يستعين به في قضاء حوائجه، أو يتخذه ولدا بالتبني، لأن معظم المفسرين يرون أن (العزيز) ليس له أولاد، ولذا قال لامرأته ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

وهكذا يبقى هذا الحدث الفني مفتوحا ليتولد منه حدث جديد بمسوغات فنية واضحة، حيث يشعرنا أن يوسف عليه السلام سوف يبقى في بيت (العزيز) إلى ما شاء الله له البقاء[3].

إلا أن الحدث التالي المتولد عن الحدث السابق، حدث مفاجئ وغريب، لا يمكن أن يتوقعه عاقل، وهو حدث (الإغواء)، إذ كيف يتصور عاقل أُمًا أو من هي بمثابة الأم، تتعلق بابنها وتراوده عن نفسه، بعد أن شغفها حبا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[4].

نجد في هذه الآية الكريمة "ثلاث جمل فعلية متتالية عبرت عن أحداث ثلاثة، قامت بها امرأة العزيز، هذه الأفعال ترتبت بصفة منطقية من حيث الزمان، فلقد طلبت امرأة العزيز من يوسف عليه السلام تلبية نزوتها الجنسية، ثم تلت ذلك

---

[1]– عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج2، تحقيق الدكتور عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص312.

[2]– سورة يوسف، الآية 21.

[3]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص148.

[4]– سورة يوسف، الآية 23.

بتهيئة الجو المناسب، حيث غلقت الأبواب لتشيع الأمان في نفس يوسف واتبعت هذا التهيؤ بتقديم نفسها عن رضى وطواعية".[1]

و لكن يبدو لي أن هذه الأحداث مرتبة ترتيبا منطقيا إلى أبعد الحدود ولكن "امرأة العزيز" لم تبدأ بتلبية نزوتها الجنسية بل مهدت لذلك بمحاولة استمالة يوسف إليها بمراودته، ثم تلا ذلك غلق الأبواب لتهيئة الجو المناسب لتضمن لنفسها أولا، ثم ليوسف الأمان، وبعدها قدمت نفسها، إلا أن يوسف عليه السلام ألهمه الله الرشد والهداية، فتأبى عن دعوتها ونأى بنفسه عن الفاحشة فقال ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2]

و المرأة لم ترعو ولم تتراجع عن فعلتها فقد صممت وهي تحاول التنفيذ، فهمت به، وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه، وقد اختلف المفسرون حول هم يوسف عليه السلام، وتشعبوا في ذلك، ثم تلت هذه الأحداث السابق ذكرها أحداث ثلاثة أخرى.

كما نص عليها القرآن الكريم، وحددها السرد اللغوي في هذه الآية الكريمة، ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[3]، فهذه الأفعال الثلاثة، واستبقا الباب، قدت قميصه، ألفيا سيدها قد حددت هذه الأحداث في هذا النص القرآني، وكان الرابط بين هذه الأفعال الثلاثة حرف العطف، "الواو" الذي يفيد الجميع بين السابق واللاحق ليعبر عن تسلسلها وتتابعها بصورة منطقية، حيث رتبت حسب حدوثها في الواقع، والوسائط النحوية- كما يقول محمد طول: "حروف العطف أدت الرسالة القصصية والمواقف أداءً دقيقا لا يترك ثغرة أو خللا

[1]- طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص162.

[2]- سورة يوسف، الآية 23.

[3]- سورة يوسف، الآية 25.

حيث وقعت كل منها موقع السداد وارتبطت كلا بما يناسبه فتم بذلك التوافق بين المبنى والمعنى، والتناسق الكلي بين عناصر النص"[1].

ثم تلت هذه الأحداث مجموعة من المشاهد التي تتولد أحداثها بعضها من بعض، حيث يحكم العزيز حكما لينا بعد أن ثبتت التهمة على زوجته، وتبينت براءة " يوسف" عليه السلام عندما شهد شاهد من أهلها على ذلك قائلا: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.[2]

ومن هذا المشهد تتولد أحداث أخرى مرتبطة به إذ تخوض النسوة في شأن امرأة العزيز مع فتاها، وعندما تسمع بمكرهن تكيد لهن، فتقيم لهن مأدبة وتدعوهن لها، وقد هيأت لهن متكئا وأعطت كل واحدة منهن سكينا، ثم أمرت فتاها ليخرج عليهن، ولما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن.

والغرض من هذه المكيدة الدفاع عن نفسها، وإثبات أحقيتها في ما قامت به من إغواء يوسف عليه السلام ومراودته.

وهذا المشهد دفع بالمرأة إلى المكابرة والتحدي معلنة عن خيبة أملها في تحقيق هدفها من يوسف عليه السلام دون مواربة أو حياء، مصممة على تحقيق أملها، مهددة متوعدة، وفي ذلك يقول الله عز وجل على لسان امرأة العزيز:

---

[1]– طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، مرجع سابق، ص107.

[2]– سورة يوسف، الآية 26–29.

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.[1]

ومن هذا المشهد يتولد حدث جديد، وهو دخول يوسف السجن، وما ظهر على يديه من تفسير الرؤى، ثم إطلاق سراحه بعد شهادة النسوة، وشهادة امرأة العزيز على براءته.

البيئة المكانية في مشهد (الإغواء) من قصة يوسف عليه السلام

لقد بينت سابقا أن للمكان في القصة عامة والقصة القرآنية بصفة خاصة، دورا لا يقل عن دور الحدث والشخصية، إذ لا يمكن الفصل بينهما إلا على سبيل التوضيح؛ لأن المكان هو المجال الذي تنطلق منه الأحداث، وتؤدي فيه الشخصيات أدوارها وبالتالي يصبح المكان جزءا لا يتجزأ من بناء القصة وعنصرا فعالا فيها.

و إذا تتبعنا قصة (يوسف) عليه السلام نجد القرآن الكريم استعرض فيها نوعين من الأماكن التي جرت فيها أحداث هذه القصة، فكانت البيئة الأولى، وهي بيئة بدوية، حيث الموطن والمنشأ، وفيها وقعت أحداث المكيدة، ومنها انطلقت السيارة بيوسف عليه السلام إلى (مصر)، أما البيئة الثانية وهي البيئة الحضارية التي انتقل إليها يوسف عليه السلام، بعد أن أخذته السيارة إلى (مصر)، وسوف أتناول في دراسة هذه البيئة التي انتقل إليها "يوسف" وهي البيئة المصرية الحضارية التي ارتبطت فيها الأحداث بامرأة العزيز، حيث نجد القرآن الكريم، يستعرض في هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام، دخوله إلى مصر وكيف بيع بثمن بخس دراهم معدودة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك قائلا: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ

[1]– سورة يوسف، الآية 32.

مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.[1]

يستعرض هذا المشهد دخول (يوسف) إلى (مصر) وبيان طبيعتها الحضارية، وما فيها من أسواق للنخاسة، حيث بيع يوسف عليه السلام، وما فيها من ظواهر الترف باقتناء العبيد في البيوت، وأشكال البيوت ذات الأبواب التي تغلق[2]، (وغلقت الأبواب) زيادة في الأمن، حيث يدخل الحدث إلى بعض هذه البيوت، وهو بيت (العزيز) الذي يدل على الثراء باقتناء الفتيان في بيته لخدمته.

و(للبيت) أهمية كبرى؛ لأنه المكان الأليف الذي يشعر فيه الإنسان بالحماية والأمان، والاستقرار، حيث يستريح فيه المرء من الضغط الخارجي الذي يعانيه، إلا أن يوسف لم يجد الراحة في هذا البيت نتيجة لمراودة (امرأة العزيز) له باستمرار، كما يبرز فيه ذلك السلوك البشع لتلك المرأة التي تحاول خيانة زوجها في بيته، "فهذا (البيت) الوارد هنا لوروده دلالة عند المتلقي، الذي يجعل البيت حمى، حرمته مقدسة، فذكر البيت ولا سيما بيت الزوجية فيه وخزة لاذعة للإنسان، لأن فيه تدنيس المقدس".[3]

كما نجد هذه البيئة تستعرض بعض الأنماط السلوكية للمجتمع المدني المتحضر وخاصة أصحاب الطبقة العالية في المجتمع حيث لا تحترم العلاقات الزوجية وتتفشى الخيانة كما يبدو ذلك جليا في "زوج العزيز"، وهي تراود فتاها عن نفسه، ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[4]، ولما

---

[1]– سورة يوسف، الآية 20–21.

[2]– خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص221.

[3]– ياد كار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، مرجع سابق، ص195.

[4]– سورة يوسف، الآية 23.

فشلت محاولتها، انكشفت طباع أهل المدينة في برودة طباعهم في مواجهة الخيانة الزوجية[1]، ويبدو ذلك في سلوك العزيز مع زوجته التي خانته وعدم الغيرة عليها، قائلا: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[2].

كما عكس المكان سلوك (النسوة) الذي تمثل في الكيد لـ(امرأة العزيز) وذلك في إذاعة سرها ومحاولة نشره بين الناس في (المدينة) وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3].

كما يعكس المكان مظاهر الترف المادي لـ(بيت العزيز) الذي يوجد داخل إحدى (مدن مصر) الواسعة، وهذا البيت يعد من بيوت الطبقة الاجتماعية العالية ممثلة في استخدام المتكآت في الجلوس، والسكاكين في الأكل وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.[4]

وهذا يدل على التحضر القائم عند المصريين قديما وخاصة علية القوم منهم، القاطنين بالمدن.

و نلاحظ أن هذا المشهد قد ركز على البيئة الخاصة للمجتمع المصري، وفصّل فيها لما لذلك من أهمية في بناء القصة، وما ترتب عليها من أحداث وفي

---

[1]– خالد أبو جندي الجانب الفني في القصة القرآنية، المرجع السابق، ص222.

[2]– سورة يوسف، الآية 29.

[3]– سورة يوسف، الآية 30.

[4]– سورة يوسف، الآية 31.

ذلك يرى أبو جندي أن التأني في تصوير هذه البيئة له أهمية لغاية القصة وحبكة الحكاية، فذِكر البيئة بهذا التفصيل يدخل في صميم البنية الفنية للقصة[1].

لقد أهمل التدفق الروائي التفاصيل في البيئة المصرية العامة وفصّل في البيئة الخاصة، أهمل تصوير مصر بعامة، وصور منها البيت، والقصر، وحديث النسوة، والسجن، وقد أمدتنا هذه التفاصيل بظواهر حضارية ذات صلة بمدينة مصر القديمة، وازدهارها وما وصل إليه المجتمع المصري من رقي".[2]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام قد استثمر المكان لمقاصد توجيهية إرشادية تنسجم مع تربية القرآن الكريم القائمة على مبدأ الإقناع العقلي، مع مراعاة الجانب الوجداني في الإنسان، وبذلك يتحقق الهدف المرجو من القصة القرآنية بصفة عامة، ومن هذه القصة بصفة خاصة.

إن هذا المشهد قد صور هذه البيئة الحضرية المترفة وما فيها من نعيم العيش ورغده، وصور أصحاب القصور وما يتمتعون به من ملذات الحياة التي بلغت أوج رقيها في مصر آنذاك، وما ينتج عنها غالبا من انحلال خلقي، وانحراف عن القيم المجتمعية على غرار امرأة العزيز وسلوكها المنحرف مع فتاها، وعدم احترام بيت الزوجية المقدس، فحاولت أن تدنس المكان لولا عفة يوسف عليه السلام.

كما صور المشهد نمطا من سلوك رجال القصور المترفين مع زوجاتهم، وكيف يتساهلون مع نسائهم ويسمحون بأن تمس أعراضهم وتداس كرامتهم من طرف زوجاتهم، كما حدث مع العزيز وزوجته.

---

[1]– خالد أبو جندي الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص222.

[2]– خالد أبو جندي الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص222.

البيئة الزمانية في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام

إن المتتبع للزمن في قصة يوسف عليه السلام، يجده ينحو منحى تصاعديا انطلاقا من زمنية طفولته، وما لاقاه من حسد إخوته، وكيدهم له بإلقائه في الجب، ونقل السيارة له إلى مصر، ودخوله بيت العزيز، وغواية المرأة له، ثم دخوله السجن، ومنه إلى حكم خزائن مصر.

والزمن في هذه القصة قد توزع بدقة حسب المشاهد وأهدافها، حيث نجد الزمن الواقعي الذي حدثت فيه بعض هذه الأحداث أطول بكثير من زمن السرد أو زمن الخطاب القرآني كما يسميه أبو جندي الزمن التمثيلي أو الزمن الممثل[1].

لأن الهدف من القصة ليس التأريخ لها وإنما ما تهدف إليه من عظة وعبرة وبشرى، لهذا نجد مشهد "الغواية" قد نال حيزا زمنيا واسعا مقارنة برحلة يوسف من الشام إلى مصر، فالفترة الزمنية لهذه الرحلة طويلة قد تفوق الشهرين وقد تصل إلى السنة إذا تباطأت السيارة في سيرها[2]، إلا أن السرد القصصي أشار إليها إشارة سريعة عابرة فقال تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.[3]

وعند وصوله إلى مصر نجد التدفق الروائي يومئ إليها كلمح من بصر ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ

---

[1]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص213.

[2]– المرجع نفسه، ص218.

[3]– سورة يوسف، الآية 19.

مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[1]، وهذه الإشارة "لا تستغرق أكثر من سبع ثوان في الخطاب القرآني".[2]

فالزمن في هذه المراحل الأولى من القصة نجده يتدفق بسرعة في السرد القصصي نحو البيئة الجديدة التي انتقل إليها يوسف عليه السلام، وهي مصر، ودخوله إلى بيت العزيز، وفي بيت العزيز يحط رحاله، ويتعرض للغواية من قبل امرأة العزيز، وهنا نجد التدفق القصصي يعرض المشهد في أكبر مقسم زمني لما له من أهمية في مفاصل القصة فهو بمثابة العقدة التي تشابكت فيها الأحداث أو بالأحرى فهو البوابة التي من خلالها دخل يوسف السجن، ليصل بعدها إلى مرحلة التمكين حيث يتولى حكم خزائن مصر، والسبب الذي جعل هذا المشهد يحتل أكبر حيز زمني من القصة، يعود كما يقول أبو جندي إلى "... أن هذا الحدث الذي يحكي لنا حكاية امرأة العزيز مع فتاها هو الحدث المحوري الذي تنشد إليه كل أحداث القصة من بعد ومن قبل، ولقد أرسل المنهج القرآني هذا المفهوم الجديد للعقدة من خلال استخدام الزمن وحساباته"[3].

و الزمن في هذا المشهد توزع بين زمن نحوي تحدده بعض الأفعال وبعض الظروف الزمانية، وزمن دلالي تحدده السياقات الدلالية لبعض الجمل التي تحيلنا على الزمن بطريقة ايحائية غير مباشرة كقوله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ فالأشد: القوة، وفسرها ابن عاشور بأنها بين خمسة وثلاثون عاما وأربعون عاما[4]

---

[1]– سورة يوسف، الآية 21.

[2]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص 216.

[3]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص217.

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص248.

أما الزمن النحوي فقد حددته هذه الأفعال التي وردت في هذه الآية القرآنية ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾[1]

لقد وردت هذه الأفعال مرتبة ترتيبا زمنيا داخل فضاء القصة على الصورة التي عرضت بها، حيث قامت امرأة العزيز بالمراودة لتستميل إليها "يوسف" عليه السلام، ثم غلقت الأبواب لتضمن لنفسها الأمان ثم اتبعت هذا التحضير لقضاء وطرها من يوسف عليه السلام بتقديم نفسها عن رضى وطواعية وفي ذلك يقول محمد طول: " إن السرد في هذه الأحداث قد استعان بحرف العطف "الواو" الذي يفيد معنى الجمع فيعطف به اللاحق والسابق ليعبر عن تسلسلها وتتابعها بصورة منطقية ومقبولة"[2]

كما عبر عن الأحداث التي تليها بالكيفية نفسها حيث رتبت حسب حدوثها في الواقع إذا جاء هذا الترتيب على الصورة التالية في قوله تعالى ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[3]

إن فعل "الاستباق" يحمل في مضمونه معنى السرعة وهو قد وقع من الطرفين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، ثم تلاه فعل "القد" وهو التمزيق بعنف أو بشدة من طرف امرأة العزيز محاولة رده إليها، ثم "ألفيا" سيدها لدى الباب وفعل "الإلفاء" يحمل معنى المفاجأة للطرفين "يوسف" و"امرأة العزيز"، "لقد وردت هذه الأفعال مرتبة ترتيبا زمنيا وترتيبا مكانيا داخل فضاء القصة على الصورة التي عرضت بها"[4].

---

[1]– سورة يوسف، الآية 22.

[2]– محمد طول، البنية السردية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص161.

[3]– سورة يوسف، الآية 25.

[4]– محمد طول، البنية السردية في القرآن الكريم، المرجع السابق، ص163.

و مما يضاف إلى مشهد المراودة، حديث النسوة في المدنية، وعلم امرأة العزيزة بحديثهن واستدعائها لهن، وما حضرته لهن من مفاجأة، ثم اعترافها لهن بالمراودة، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.[1]

فالسرد في هذا المقطع لم يهمل الزمن بل أشار إليه بكل دقة، فالأفعال والأحداث قد عبرت عن الزمن بكل دقة ووضوح، حيث نجد أن هذه الأفعال المقترنة بأحداثها جاءت بصيغ مختلفة منها ما يحمل الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

و نلاحظ أن فعل "المراودة" الذي جاء في بداية مشهد المراودة في السرد القرآني جاء بصيغة الماضي ﴿رَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولكن في هذا المقطع جاء بصيغة المضارع ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وذلك ليدل على الاستمرار وفي ذلك يقول ابن عاشور: ومجيئ "تراود" بصيغة المضارع مع كون المراودة مضت لقصد استحضار الحالة العجيبة بقصد الإنكار عليها[2] واستحضار الحالة دليل على استمرار الزمن القرآني، ولا ينتهي بانتهاء الحادثة؛ لأن الهدف من القصة

[1]– سورة يوسف، الآية 30– 32.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص261.

أو الحادثة الواردة في القرآن هي العبرة والعظة وليس التأريخ لها، فنحن عندما نقرأ القصة القرآنية نتمثلها ونتفاعل معها، وبالتالي يتجدد زمانها مع قراءتنا لها.

كما نجد الأزمنة توزعت في هذا المشهد بين الماضي والحاضر والمستقبل، ومثلته الأفعال الماضية والمضارعة وأفعال الأمر كقولها: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ على لسان "امرأة العزيز" إضافة إلى بعض الظروف الدالة على الأزمنة كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وقوله ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾.

نلاحظ هنا أن (لما) أداة لغوية لها فاعلية تعبيرية اقتصادية ولها قابلية ضغط الزمن والقفز به من مشهد إلى آخر، ونجد أن (لما) الحينية هنا جاءت معطوفة بفاء التعقيب لتدل على فترة زمنية مرت بين أمر امرأة العزيز ليوسف بالخروج على النسوة وبين رؤيتهن إياه. [1]

ثم تأتي تتمة هذا المشهد لتظهر براءة يوسف عليه السلام، وذلك حين أراد الملك إخراج يوسف عليه السلام من السجن، فأبى أن يخرج إلا أن يعرف سبب كيد النسوة له، وما كان من الملك إلا أن لبى رغبته، فاستدعى النسوة وسألهن عن ذلك قائلا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. [2]

هنا يظهر الله براءة يوسف عليه السلام باعتراف النسوة وعلى لسان امرأة العزيز نفسها، والاعتراف سيد الأدلة، ولقد عبرت امرأة العزيز عن براءة يوسف بظرف الزمان (الآن) الدالة على الأينونة المستغرقة للزمن الحاضر، والفعل الماضي (حصص) والجمع بين الزمن الحاضر والماضي لتقريب الزمن الماضي

[1]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط 1998، ص18.

[2]– سورة يوسف، الآية 51.

وقد بين ذلك محمد الطاهر بن عاشور قائلا: "والتعبير بالماضي مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الذي لم يسبق لأنه قريب الوقوع، فهو لتقريب زمن الحال من المضي".[1]

و قد يكون التعبير بالماضي على حقيقته؛ أي أن الآن ظهرت براءة يوسف عليه السلام؛ لأن الزمن الماضي كان زمن اتهام يوسف بالمراودة، وهو زمن باطل وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن عاشور: "ويجوز أن يكون المراد ثبوت الحق بقول النسوة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ فيكون الماضي على حقيقته، وتقديم اسم الزمان للدلالة على الاختصاص؛ أي الآن لا قبله للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمنا باطلا وهو زمن تهمة يوسف عليه السلام بالمراودة"[2]

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن السرد القصصي في قصته يوسف عليه السلام لم يهمل الزمن إلا أن مشهد الغواية أخذ أكبر حيز زمني لما له من أهمية كبرى في مفاصل القصة، فهو يعكس الصراع القائم بين القيم الايجابية والسلبية، ولذا نجد الخطاب القرآني ركز على فعل (المراودة) الذي تكرر في القصة لعدة مرات، ست مرات في مشهد الغواية، ومرة واحدة على لسان إخوة يوسف.

و لو تأملنا فعل (المراودة) نجده قد جاء بصيغة الماضي خمس المرات في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾[3] وقال: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[4] وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[5] وقال ﴿مَا خَطْبُكُنَّ

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسيرا لتحرير والتنوير، ج12، مرجع سابق، ص291.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، تفسيرا لتحرير والتنوير، ج12، مرجع سابق، ص291.

[3]– سورة يوسف، الآية، 23.

[4]– سورة يوسف، الآية 26.

[5]– سورة يوسف، الآية 30.

إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ﴾[1]، وقوله: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[2]

و جاء بصيغة المضارع مرتين في قوله تعالى: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [3]، وقوله ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾.[4]

و تكرار هذا الفعل في السرد القصصي وفي مشهد الغواية بالذات لم يأت عبثا، وإنما جاء بهدف التحذير من خطورة هذا الفعل الذي يحمل معنى تكرار المحاولة للإيقاع بالآخر في الغواية والضلال، واستدراجه إلى الرذيلة، فالمراودة في الحقيقة ليست وقفا على امرأة العزيز، ولم تنته بانتهاء قصة يوسف عليه السلام، بل هي مستمرة مع الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حتى وإن جاءت بعض الأفعال بصيغة الماضي فهي تحمل ضمنيا دلالة الزمن المستمر؛ لأن زمن القرآن الكريم زمن دائم ومستمر، ومفعوله يتجدد بتجدد متلقيه، ولذا فهو زمن مستقبلي أبدي أو بالأحرى زمن سرمدي لا ينقضي بانقضاء الحادثة.

و لهذا نجد الإلحاح على هذا المشهد كما يقول أبو جندي: لم يكن للتسلية أو للترفيه عن القارئ بل إنه النموذج القصصي الكامل لكيفية التناسب بين الأحداث الهامة وأزمانها والأحداث الهامشية وأزمانها.[5]

و الحقيقة أنه لا توجد أحداث هامشية في القصص القرآني، بل كلها أحداث مهمة ولكن بدرجات متفاوتة حسب ما يحتاج إليه الإنسان، لأن الله خالق الإنسان،

---

[1]– سورة يوسف، الآية 32.

[2]– سورة يوسف، الآية 51.

[3]– سورة يوسف، الآية 51.

[4]– سورة يوسف، الآية 51.

[5]– خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص218.

وخالق الزمن، يعلم متى يعطي الحدث متسعا زمنيا ومتى يقصر فيه، وإذا كان السرد القصصي أعطى لهذا المشهد حيزا زمنيا كبيرا فلأنه يعرض الصراع القائم بين القيم الأخلاقية المتناقضة، بين الفضيلة والرذيلة، الفضيلة التي تمثلها العفة، وبين الرذيلة التي تمثلها الغواية، بين الصدق والكذب، بين الحق والباطل، بين الأمانة والخيانة، بين الخير والشر، وانتصار الخير على الشر.

كما يعكس هذا المشهد الصراع الداخلي للنفس الإنسانية وما تنطوي عليه من خير وشر في آن واحد، ويبين أن الشهوة عندما تتحكم في صاحبها يضرب بكل القيم عرض الحائط، فامرأة العزيز عندما تحكمت فيها الغريزة الحيوانية، خانت زوجها بمراودة يوسف عليه السلام، وكذبت، وكادت، وجاهرت بنزوتها بطريقة مكشوفة دون حياء وظلمت وتوحشت، وقست.

فهذا الموقف يعكس صورة النفس البشرية عندما تتحكم فيها الغريزة والعاطفة العمياء، فتفجر وتكذب وتأخذها العزة بالإثم كما بدا واضحا في سلوك امرأة العزيز.[1]

ولكن هذا السلوك يتغير عندما يقاوم الإنسان نزواته، ويخضع لحكم العقل فيصير متزنا صادقا أمينا، وهذا ما يعبر عنه موقف (امرأة العزيز) عندما ذهب عنها شيطان الغريزة، اعترفت بخطئها، وببراءة يوسف فقالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[2]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن السرد القصصي في قصة يوسف عليه السلام قد أعطى لمشهد الغواية حيزا زمنيا واسعا، ليبين للناس خطورة الرذيلة وما تجره من

[1]– خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص197.

[2]– سورة يوسف، الآية 51.

أخطاء تهوي بصاحبها إلى الحضيض، وبين أن العفة والفضيلة ترفع صاحبها إلى أعلا الدرجات، وذلك ليتخذ الإنسان من ذلك كله العبرة والعظمة في حياته.

الحوار في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام

إن الحوار كما بينت سابقا هو عبارة عن علاقة تواصلية بين طرفين بما يحقق اكتمال جوانب البناء الفني في القصة، وبيان حقيقة الشخصيات وما تحمله بين جوانبها من خير أو شر.

فالحوار في هذا المشهد يقوم بين مجموعة من الشخصيات بدءا بالعزيز وامرأته حين اشترى يوسف عليه السلام من السيارة قائلا لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[1]، فهذا القول الصادر من العزيز إلى امرأته يكشف عن شخصية (العزيز) الراغب في الأبوة، فأوصاها خيرا بهذا الغلام، ولكنه بدأ بقوله ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، لأن اتخاذ الغلمان في البيوت أساسا كان للانتفاع بخدماتهم، ولأن الآباء عادة ما ينتظرون النفع من أبنائهم خاصة عند الاحتياج إليهم، ولأن العزيز كما يرى بعض المفسرين كان عقيما ليس له أبناء فأراد أن يتبنى هذا الولد[2]، إلا أن المرأة لم تعط جوابا على هذا القول بالإيجاب أو بالسلب.

و بعد هذا يبدأ الحوار بين (امرأة العزيز) و(يوسف) عليه السلام في (موقف المراودة) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[3]، فقد جسد

---

[1]– سورة يوسف، الآية 21.

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج3، مرجع سابق، ص69.

[3]– سورة يوسف، الآية 23.

الحوار حقيقة المتحاورين، حيث كشف حقيقة (امرأة العزيز) التي تحكمت فيها العاطفة والغريزة الحيوانية وحطمت كل الحواجز الأخلاقية، وتنازلت عن كرامتها وكبريائها، فبذلت نفسها رخيصة حقيرة في لهفة محمومة مقابل قضاء نزوتها قائلة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي هيئت نفسي لك إلا أن جواب يوسف عليه السلام كان بالرفض والترفع عن السوء والفحشاء قائلا لها: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[1]

فهذا القول يكشف عن شخصية عاقلة متزنة مؤمنة بالله، وهي شخصية (يوسف) عليه السلام، حيث يستعيذ بالله، ويرفض خيانة من آواه في بيته، ويبين لها أنه لا يفلح الظالمون علّها تعود إلى رشدها وتتراجع عن هواها، إلا أن (امرأة العزيز) لم تتوقف عن مراودتها ليوسف عليه السلام بل استمرت في مراودته لقضاء وطرها منه، وهو يفر منها هاربا، وهنا تأتي المفاجأة حيث يتحول الحوار من (يوسف) و(امرأة العزيز) إلى (العزيز) و(امرأته)، حين استبقا يوسف وامرأة العزيز الباب ووجدا سيدها لدى الباب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وقولها هذا يدل على المكر والدهاء وسرعة البديهة لأنها " توصلت إلى هذا القول مباشرة دون أن تصاب بالهلع أو أن تتمتم؛ لأن الإنسان

[1]– سورة يوسف، الآية 23.

[2]– سورة يوسف، الآية 25.

عادة ما يقع في حيرة ويلتبس عليه الكلام فلا يستطيع النطق، في مثل هذه المواقف المباغتة".[1]

إلا أن محمد الدالي يرى إضافة إلى سرعة البديهة التي تميزت بها المرأة، فهي محبة عاشقة، لهذا أمرت بعقاب مأمون النتائج قائلا: "كان جوابها حاضرا وكانت سريعة البديهة حتى أنها لم تعط فرصة التفكير للعزيز ليتصرف مع يوسف بعد هذا الاتهام الصريح، إنها امرأة عاشقة خافت على يوسف من الردى فأشارت على زوجها بالعقاب المأمون جانبه"[2]، السجن أو العذاب الأليم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، وفي تقديم السجن على العذاب الأليم ترجمة لما في نفسها من حب يوسف والإشفاق عليه، وابقاء لأملها في استجابة ما أرادت منه؛ لأنها كانت بين حالتين متضادتين، المسارعة إلى تبرئة ساحتها أمام زوجها ثم حبها ليوسف، وعدم يأسها من الحصول على مرادها منه".[4]

كما أن هذا الرد يدل على الروح الانتقامية للمرأة وذلك لرد الاعتبار لكرامتها المجروحة إلا أن جواب يوسف عن هذه التهمة الباطلة الموجهة إليه، كان جوابا مقتضبا قصيرا يعبر عن ثقة في النفس وصدق في القول قائلا: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[5]، والصدق والأمانة ينجيان صاحبهما، ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى قد أرسل له من يشهد على صدقه وأمانته ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ

---

[1]– ياد كار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان، دمشق، سوريا، 2010، ص142–143.

[2]– محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، مرجع سابق، ص98.

[3]– سورة يوسف، الآية 25.

[4]– عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، ج2، مكتبة وهبة، القاهرة، 2007، ص126.

[5]– سورة يوسف، الآية 26

قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.[1]

والحوار لم يتوقف عند هذا الحد بعد أن تجلت الحقيقة ساطعة أمام العزيز محاولا إخفاء الأمر والتستر على هذه الفضيحة فتوجه إلى يوسف عليه السلام وامرأته في آن واحد قائلا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.[2]

فهذا القول المختصر يدل على أن (العزيز) لم يهمه من هذا الأمر كله إلا أن يبقى سرا، وأن لا يعلم به أحد، لكنه لم يغضب ولم يثر لهذه الخيانة التي تمس بكرامته، إلا أن مثل هذه الخيانات سرعان ما تذاع وينتشر أمرها وخاصة إذا سمعت بها النساء، وما كان يخشاه العزيز قد حدث إذ خرج الخبر من بيته ووصل إلى مسامع النسوة[3]، وأذعن به قائلات ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[4].

---

[1]– سورة يوسف، الآية 26–28.

[2]– سورة يوسف، الآية 29.

[3]– كن خمسا، زوجة الحاجب، والساقي، والخباز، والسجان، وصاحب الدواب.

أنظر أبو العباس أحمد محمد بن المهدي ابن عجينة الحسيني، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عمران، مج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص275.

[4]– سورة يوسف، الآية 30.

فالموقف هنا موقف إشاعة، وتقول، ومزايدة، وتكذيب، وتصديق، وقد نحا السرد بالموقف منحى إخباريا حواريا[1] يعبر عن شخصيات هؤلاء النسوة وما تنطوي عليه أنفسهن من حقد وكراهية لهذه المرأة، وأقوالهن تدل على ذلك.

و لهذا نلاحظ أن النسوة عندما حاولن إشاعة هذا الخبر قلن (امرأة العزيز) ولم يذكرنها باسمها نكاية بها وبزوجها؛ لأن العزيز له مكانة مرموقة في المجتمع، والخيانة في حقه فضيحة نكراء، كما عبرن بصيغة المضارع في المراودة قائلات ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولم يقلن راودت بصيغة الماضي؛ لأن صيغة المضارع تدل على الدوام والاستمرار، كأن أمر المراودة صار سجية لها تخادعه عن نفسه دائما، ثم عللت ديمومة المراودة كونها شغفت به حتى بلغ حبه شغاف قلبها.[2]

و هذا الموقف برمته يدل على حقد العامة على الطبقة الحاكمة وأصحاب النفوذ في المجتمع وتحين الفرص للإطاحة بهذا الشموخ المزيف لأصحاب القصور، إلا أن امرأة العزيز عندما سمعت بمكرهن دبرت لهن مكيدة لتوقعهن في شباك الرذيلة ثأراً لكرامتها:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[3]

---

[1]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مرجع سابق، ص207.

[2]– ياد كار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، مرجع سابق، ص343.

[3]– سورة يوسف، الآية 31–32.

فالحوار في هذا المقام دار بين محورين (امرأة العزيز) مع (النسوة) اللائي دعتهن، وقد عكس هذا الحوار طبيعة المتحاورين وما تنطوي عليه أنفسهم فامرأة العزيز يبدو عليها التعالي والتكبر والغطرسة وذلك في قولها ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بصيغة الأمر، الذي يدل على العلو لتثبت للنسوة أنها قادرة على تحيكم امرها وتحقيق رغبتها، وكان جواب النسوة عند رؤية يوسف عليه السلام تنزيهه عن البشرية، فكان جوابها حاضرا، كونه كما زعمتن ملكا ولمتنني فيه، هو الذي دعاني لمراودته ؛ ولقد صرحت بمحاولتها إغواء يوسف دون خجل أمام النسوة قائلة ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، كأنها أجابت عن قول يوسف هي راودتني عن نفسي.

و هذا التعبير المكشوف البعيد كل البعد عن العفة يدل على أن المرأة قد تحكمت فيها الغريزة الحيوانية وأعمت بصيرتها، وأن (التصريح بمحاولتها دليل على تفشي هذه الظاهرة لدى نساء الطبقة الرقية المترفة من المجتمع المصري)[1]

فما موقف يوسف من كل ما جرى في هذا المجلس السنوي؟

(يوسف) عليه السلام التجأ إلى الله أن يصرف عنه كيدهن لئلا يضعف ويخضع لهن، وفضل السجن على ارتكاب الخطيئة، قائلا ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.[2]

و هذه المناجاة الربانية تعكس شخصية (يوسف) الإيمانية العفيفة المعصومة من الوقوع في الرذيلة والممانعة من الاستسلام للخطيئة.

---

[1]– ياد كار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، مرجع سابق، ص143.

[2]– سورة يوسف، الآية 50.

و بعد أن أدخل يوسف السجن ومكث فيه زمنا حتى قرر الملك إطلاق سراحه بعد أن عبر له الرؤيا، رفض الخروج من السجن حتى يعرف حقيقة النسوة اللائي قطعن أيديهن قائلا لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.[1]

ثم يتواصل السياق القرآني بصيغة حوارية إخبارية للوصول لتلك الحقيقة في هذا الحوار الدائر بين (الملك) و(النسوة) و(امرأة العزيز) وذلك في قوله تبارك وتعالى ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

إن هذا الحوار الثلاثي قد أبان عن وقائع مختزلة عبرت عن مواقف المتحاورين إذ عبر موقف الملك عن محاولة معرفة الحقيقة عن طريق التحري بالاستفهام، والاستفسار، والاستنطاق، وعبر موقف النسوة عن تبرئة ساحة يوسف عن طريق شهادة الحق، وقول الصدق، وعبر موقف امرأة العزيز عن الإنابة عن الغي والضلال وذلك بالاعتراف بالحقيقة، والتصريح بخطئها، ويسميه الدكتور (سليمان عشراتي) بموقف الاعتراف والافتضاح [2]، وهو في الحقيقة موقف الرجوع عن الخطأ وهو دليل توبة وإنابة، والاعتراف بالحق فضيلة وليس فضيحة، مصادقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون﴾.[3]

---

[1]– سورة يوسف، الآية 51.

[2]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مرجع سابق، ص210.

[3]– أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، مرجع سابق، ص689.

و نلاحظ أن هذا الحوار قد حمل طابع الإيجاز، والحذف، والتجاوز التفصيلي، ليصل بنا إلى الحقيقة، وهي براءة يوسف، وتمكينه في الأرض وهو الهدف المرجو من ورائه.

وهذه الموافق الثلاثة بملابساتها المعقدة والغنية بالوقائع والأحوال الانفعالية احتوتها بنية حوارية مختزلة ومركزة لتقرر حقيقة وتميط اللثام عن أزمة وقعت في بنية هذه القصة".[1]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الحوار في هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام قد أبان عن أزمة عاطفية وقعت في بنية القصة وصراع أخلاقي متباين بين المتحاورين ليبين عن طبيعة المتحاورين ومستواهم الفكري، والنفسي، والديني، والخلقي، بلغة بلغت حد الدقة والاتقان والبلاغة والوضوح والسمو عن كل ما يخدش الحياء أو يمس بالذوق حتى في أصعب المواقف الحساسة.

كما كشف عن شخصية المتحاورين الايجابية والسلبية وسبر أغوار النفس الإنسانية وما يتنازعها من منازع الخير والشر وما تحمله بين جوانحها من قوة حين تحكم عقلها وترعى ربها، ومن ضعف حين تخضع لرغباتها وأهوائها.

هكذا يكون الحوار في هذا المشهد قد أضاء الفكرة وأبان عن الحدث وساهم في تطوره لإيصاله إلى الهدف المرجو منه وهو خروج يوسف من السجن والتمكين له في الأرض، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فكان هادفا ومؤديا لدورة الفني والموضوعي (الوعظي) وهو في الأخير تصوير للصراع القائم بين الخير والشر أو بالأحرى بين العفة والرذيلة على مسرح الحياة من خلال

[1]– سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، المرجع السابق، ص210.

[2]– سورة يوسف، الآية 21.

إعطاء نماذج للعفة والخير كما في شخصية يوسف بحيث يتمثلها الناس في حياتهم، وأخرى للرذيلة والشر كما في شخصية (امرأة العزيز) ليحاول الناس الابتعاد عنها وإن وقعوا في الخطأ عليهم أن يتوبوا ويعترفوا بخطئهم كما فعلت (امرأة العزيز)؛ لأن الهدف الأساسي من القصة القرآنية هو العبرة والعظة.

لقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بطريقة لطيفة فيها من الستر والحفاظ على الأعراض ما لا يمكن لأسلوب آخر أن يضاهيه أو يجاريه.

بعد هذا يتبين لنا أن القصة القرآنية هي جزء من القرآن الكريم، وأن كل ما ورد فيها من أحداث وشخصيات وأزمنة وأمكنة وحوارات حقيقية وقعت بالفعل على مسرح الحياة والواقع، وهي سيقت أساسا لغرض ديني مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[1]

فمن القصة تتخذ العظة والعبرة على مر العصور، وقد صيغت بأسلوب القرآن المعجز، الذي تحدى به الله سبحانه وتعالى أفصح العرب، وفيها من الجمال الفني والسمو الفكري ما لا يمكن أن يوجد في غيره لأنه من كلام رب العالمين.

والقصص القرآني قد ساق نماذج إيجابية الهدف منها توصيل هدف إيجابي معين كالعفة، والصدق، والأمانة، والتدين، والتوحيد، كما في نموذج (العذراء)، فهي نماذج نستهدي بها ونأخذ منها معالم طريقنا.

كما ساق نماذج سلبية يهدف من ورائها إلى إبراز السلوك المرضي المخالف للفطرة السليمة، والذي غالبا ما يجني على صاحبه، فيجره إلى مهاوي الفساد

[1]– سورة يوسف، الآية 111.

الأخلاقي كالرذيلة، والكذب، والفجور، والنفاق، والكفر، كما في سلوك (امرأة العزيز)، وما يمثله من دناءة وانحطاط.

وفي الأخير، فكلا النموذجين الإيجابي والسلبي حاضر في كل زمان وفي كل مكان.

فالأول يتخذ قدوة نتمثلها في حياتنا، والثاني نتخذ منه العبرة، والعظة، ونبتعد عن سلوكه، وكلا النموذجين يشكل صورة من صور الصراع بين الخير والشر، ويعكس في الأخير انتصار الخير.

الخاتمة

الخـاتمة

لقـد تبـين لـي مـن خـلال هـذه الدراسـة أن حضـور المـرأة فـي الدراسـات عامـة، والقرآنيـة منهـا خاصـة، حضـور لافـت ومتميـز حيـث خصـص لهـا القـرآن الكـريم حيـزا واسـعا مـع شـقيقها الرجـل، وخصـها بعنايـة فائقـة ومتميـزة؛ لأن المـتفحص للقـرآن الكـريم يجـد أن هـذا الـنص القرآنـي رحـب المـدى، واسـع المجـال فـي هـذا الموضـوع، وفيـه الـرد المقنـع، والتحـدي المعجـز للمتحـاملين عليـه فـي موضـوع المـرأة بالـذات، الـذين اتخـذوا مـن بعـض الأحكـام الـواردة فيـه، الخاصـة بـالمرأة، كـاختلاف الـذكر عـن الأنثـى، والميـراث، والقوامـة، وتعـدد الزوجـات، والحجـاب، والطـلاق، دلـيلا علـى أن الإسـلام لـم ينصف المرأة ولم يسوها بأخيها الرجل.

وأن حضـورها فـي القـرآن الكـريم حضـور محـدود، الغايـة منـه اسـترقاق المـرأة بجعلهـا أسـيرة البيـت لا تعـدو أن تكـون خادمـة يسـتغلها الرجـل كمـا يسـتغل السـيد أَمتـه، فحضـورها فـي القـرآن الكـريم حضـور سـلبي لا يخـدم مصـلحتها ولا يرفـع مـن شـأنها، فهـي مسـلوبة الحريـة، مهضـومة الحقـوق، وذلـك لضـرب الـدين الإسـلامي فـي أهـم ركيـزة فـي المجتمـع وهـي (المـرأة)، وبـذلك يجعلهـا تتشـبث بقشـور الحضـارة الغربيـة الداعيـة إلـى التحـرر المطلـق للمـرأة، وجعلهـا نـدا للرجـل فـي كـل شـيء حيـث تهمـل دورها الأساسي في بناء الأسرة والمجتمع.

وأوهموهـا أن الإسـلام قـد ظلمهـا، فصـدقت بعـض النسـاء هـذه الـدعاوي المغرضـة التـي دفعـت بـالمرأة إلـى التمـرد علـى الأسـرة والمجتمـع، بـل علـى الـدين والخلـق، محاولـة البحـث عـن وهـم المسـاواة التامـة بالرجـل، ممـا خلـق أزمـة مسـتفحلة فـي المجتمـع المسـلم اليـوم، التـي لا يمكـن حلهـا إلا بـالعودة إلـى منـابع التشـريع الأولـى المتمثلـة فـي القـرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

-أن القرآن الكريم منهج حياة متكامل يجمع خيري الدنيا والآخرة، وفيه الحلول المثلى لمشاكل الناس جميعا، ذكورا وإناثا بأسلوب مقنع ومؤثر.

-للمرأة حيز كبير في القرآن الكريم، وكان حضورها قويا وفاعلا، سواء أكانت أما أم أختا أم زوجة أم بنتا أم ملكة، وفسح لها المجال واسعا مع أخيها الرجل منذ خلق آدم عليه السلام، فلم تكن مغيبة أو مهملة أو مهمشة كما يدعي أعداؤها.

-أقر الإسلام ثنائية الرجل والمرأة واختلافهما من ناحية الذكورة والأنوثة، ولكن لم يقصد من هذه الفوارق أن يجعل من التذكير محمدة ومن التأنيث منقصة، لخلق الصراع بينهما، وإنما كان القصد منها التعاون والتكامل لتستمر الحياة، فالقرآن يرى أن الذكورة والأنوثة تشكلان وحدةً ولا تشكلان تطابقا.

-القرآن الكريم هو التشريع الرباني الأعظم الذي دعا إلى ضرورة التخلص من النظرة الدونية للمرأة في جاهلية ما قبل الإسلام، وما نتج عنها من معاملات سيئة ومجحفة في حقها أضرت بها حتى وصلت إلى حد إعدام حياتها بالوأد.

-أعطى القرآن الكريم بدائل لتلك العادات السيئة والمعاملات السلبية في حق المرأة قبل الإسلام تمنح المرأة حقوقها كاملة بالعدل مرفوقا بالرحمة.

-المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم لا تعني الندية والمماثلة التامة بينهما، إنما القصد منها حضورها مساوية لشقيقها الرجل في الإنسانية وفي التكاليف الشرعية، وفي الحقوق والواجبات، وفي الجزاء عليها.

-إن المفاضلة في القرآن الكريم مبدأ عام في جميع الموجودات لا على صعيد الرجل والمرأة فحسب، فالتفاضل سنة كونية في جميع الكائنات، ولكن ذلك لا يعني أن التذكير فضل زائد، والتأنيث عيب أو نقيصة.

فالتذكير في الحقيقة مسؤولية زائدة وعبء كبير على عاتق الرجل اتجاه المرأة.

-حضور المرأة في القصص القرآني حضور لافت إذ نجد أن معظم القصص القرآني تكون المرأة طرفا فيه إيجابا أو سلبا، وهي على نوعين:

أ- شخصيات إيجابية تحمل الخير والنبل والفضيلة والعفو والإيمان، فهي نماذج حية شاخصة يحتذى بها في الجانب الإيجابي، كـ(مريم العذراء).

ب- شخصيات سلبية تحمل الشر كالخيانة والكفر والرذيلة والفسوق والكذب، وهذه نماذج تتخذ للعبر ة والعضة كـ(امرأة العزيز).

ج- رسم القرآن الكريم شخصية المرأة وما تنطوي عليه نفسها من قوة أو ضعف، من إيمان أو كفر، من صبر أو جزع، من دهاء ومكر، ومن حكمة وحنكة، كل ذلك جاء بتعبير عجيب، أبرز الخصوصيات وصور الانفعالات، وذكر الحقائق، دون أن يحرج أو يثير الغرائز كـ(امرأة العزيز).

لم يتعرض القرآن الكريم لتصوير جسد المرأة من قريب أو بعيد ، حفاظا على خصوصيتها، وعلى أجواء العفاف والصفاء التي ينشدها القرآن الكريم لعالم أفضل.

-أما الأحداث المتصلة بالمرأة في القرآن الكريم كانت مرتبطة ارتباطا كليا بالشخصيات، سواء الإيجابية منها أو السلبية، وأن عنصر المفاجأة فيها كانت بالغة الأهمية في الحدث القرآني، وما استرعى انتباهي أن تلك الأحداث تحمل في معظمها ثنائيات ضدية في ظاهرها العذاب والهلاك، ولكن في باطنها الرحمة والنجاة.

-أمـا الـزمن فـي القصـص القرآنـي المتصـل بـالمرأة فهـو زمـن أزلـي سـرمدي كمـا أنـه لا يخضـع لأزمنـة البشـر، كمـا فـي حمـل العـذراء وولادتهـا، فهـو زمـن معجـز فـي حـد ذاتـه، بحيـث لـم يخضـع لـزمن البشـر فـي الحمـل، وقـد يحـدد أحيانـا بـبعض الظـروف الزمنيـة كالصـباح، أو العِشـاء، أو الضـحى، أو الليـل، ورغـم ذلـك فـزمن القرآن متجدد مع الزمن فهو زمن أبدي.

-أمـا المكـان فـي القصـص القرآنـي المتصـل بـالمرأة فلـم يحـدد جغرافيـا وإنمـا حدثتـه بعـض الأحـداث التـي وقعـت فيـه، أو بعـض المكونـات الدالـة عليـه، كالنخلـة الدالـة علـى الصـحراء والأبـواب الدالـة علـى البيـت أو القصـر، والمحـراب الـدال علـى مكان العبادة، فالقصص القرآني فيه روعة المكان وسحر الزمان.

-أمـا الحـوار فـي القصـص القرآنـي فقـد كـان وسـيلة فعالـة لإفصـاح الشخصـيات عـن نفسـها والتعبيـر عـن مكنوناتهـا، ومـا يعتمـل داخلهـا مـن أفكـار وأراء ومشـاعر وأهداف.

-كـل ذلـك جـاء بأسـلوب بلـغ الغايـة فـي الإقنـاع والامتـاع، مـن خـلال الأسـاليب اللغويـة أو البلاغيـة التـي جعلـت مـن القصـة بنيـة جماليـة فـي معناهـا ومبناهـا، حيـث شكلت نصا جماليا مشوقا متآلف العناصر، معجزا في بنيته ودلالته.

هكـذا نجـد القـرآن الكـريم عبـر عـن هـذا الموضـوع (حضـور المـرأة فـي القـرآن الكـريم) بأسـلوب يعتمـد علـى الإقنـاع بالحجـة والـدليل والبرهـان، لبيـان أهميـة المـرأة وموقعهـا الحسـاس فـي المجتمـع ومـا يجـب أن تعامـل بـه، بحيـث يتـرك المجـال للقـارئ أو المستمع أن يتأمل ويتدبر، ثم ينظر ويقرر.

ولـم يغفـل جابـب الامتـاع الـذي يعتمـد علـى ربـط المبـاني بالمعـاني ربطـا محكمـا يبعـث فـي الـنفس الإحسـاس بالجمـال، ابتـداءً مـن الحـروف سـواءً أكانـت حـروف مبـان أم حـروف معـان، كـل حـرف فـي مكانـه المناسـب لـه، بحيـث لـو وضـع مكانـه حـرف

آخـر لنبـا عـن مكانـه، ولمـا أدى وظيفتـه، إلـى صـياغة الألفـاظ المفـردة باختيـار لفظـة دون أخـرى، إلـى ترتيبهـا داخـل نسـج الآيـة، تقـديماً أو تـأخيراً، ذكـراً أو حـذفا، حسـب الأولويـات، إلـى مـا فـي الآيـة مـن الصـور البلاغيـة التـي تزيـد المعنـى وضـوحا، وجمـالا، وتـأثيرا، فتخـرج المعـاني الذهنيـة فـي مشـاهد حيـة شاخصـة فيهـا صـوت ولـون وحركة.

فـالنص القرآنـي جـاء جامعـاً بـين الغـرض الـديني الفكـري، والغـرض الفنـي الجمـالي، ووحـدهما فـي بوتقـة واحـدة هـي أسـلوب القـرآن الكـريم الـذي بلـغ الغايـة فـي الدقـة، والاتقـان، والجمـال، لتبليـغ رسـالته للمتلقـي بمـدى اهتمـام القـرآن بـالمرأة، وهـي رسـالة دينيـة، خلقيـة، اجتماعيـة، وجماليـة، لتقويـة جانـب الـوعي فيـه، لـدحض الحجـج الواهيـة فـي اتهـام القـرآن بعـدم إنصـافه للمـرأة، بجعلهـا مهمشـة حينـاً، ومغيبـةً أحيانـاً، وذلك بعدم مساواتها للرجل بإعطائها حقوقها كاملة مثله تماما.

فـإن كنـت وفقـت إلـى مـا أردت فـذلك فضـل مـن الله وعـون منـه، وإن كـان غيـر ذلـك، فـذلك هـو جهـدي الـذي أرجـو مـن الله عليـه الأجـر والمغفـرة، والله الموفـق وهـو يهدي السبيل.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص**

1. ابن عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، ضبط نصها أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
2. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2002.
3. ابن هشام الأنصاري المصري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2009.
4. ـــ، شرح قطر الندى وبل الصدى، دار رحاب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
5. أبو الفضل شهاب الدين أحمد علي محمد بن محمد العسقلاني الشافعي، فتح الباري، دار احياء التراث العربي بيروت، ط3، 1985.
6. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دت.
7. أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط1، دار النشر. دمنهور، مصر، دت.
8. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1984.
9. أبو حيان الأندلسي، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، تحقيق الدكتور، بوران وهديان الضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

10. أبو زكريا يحي بن شرف النووي، رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، الدار الذهبية للنشر والتوزيع، القاهرة، دت.
11. أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن برزويه الجعفي البخاري، صحيح البخاري، مكتبة الصفا، مطابع دار البيان الحديثة، القاهرة، ط1، 2003.
12. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ضبط نصها أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
13. أبو يحيى بن صمادح التجيني، مختصر تفسير الطبري، دار الفجر الإسلامي، دمشق، ط6، 1998.
14. أبو يحيى بن صمادح التجيني، مختصر تفسير الطبري، دار الفجر الإسلامي، دمشق، ط6، 1991.
15. أحمد أبو العباس أحمد بن محمد المهدي بن عجينة الحسيني، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد الراوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 2002.
16. أحمد عمر أبو شوفة ، المعجزة الكبرى في القرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بن غازي، ليبيا، ط1، 2002.
17. أحمد الصاوي، حاشية الصاوي، على تفسير الجلالين، دار الجيل، بيروت، دت.
18. أحمد علي المجدوب، المعالجة القرآنية للجريمة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، دت.
19. اسماعيل حقي البروساوي، تفسير روح البيان، دار الفكر للنشر والتويع، لبنان، دت.
20. الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت.

21. بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم المعاني، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1992.

22. ـــ، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، ط4، 1980.

23. بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، 2005.

24. بيوض إبراهيم بن عمر، في رحاب القرآن – تفسير سورتي مريم وطه، نشر جمعية التراث القرارة، غرداية، الجزائر، 1995.

25. الترمذي، الجامع الصحيح لسنن الترمذي، تحقيق محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000.

26. ـــ، مختصر سنن الترمذي، اختصره الدكتور مصطفى ديب البغا، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1997.

27. تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2007.

28. جبير صالح حمادي، التصوير الفني في القرآن الكريم، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007.

29. جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1997.

30. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان لعرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1955.

31. حامد حسين الفلاحي، نساء في القرآن الكريم، مكتبة سلسبيل، الفلوجة، العراق.

32. حميدة النيفر، النص الديني والتراث الإسلامي، قراءة نقدية، دار الهادي، بغداد، ط1، 2004.

33. خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دت.

34. زكي الدين عبد العظيم المنذري، مختصر صحيح مسلم، مركز فجر للطباعة والنشر، دمشق، دت.

35. سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقارنة توصيفيه لمجليات السرد والإعجاب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1998.

36. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط7، 1982.

37. ـــ، في ظلال القرآن، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط7، 1971.

38. الصادق المهدي، الحقوق الإسلامية والإنسانية للمرأة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006.

39. صلاح عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية للتوزيع لونجمان، مصر، 1992.

40. عابدة المؤيد العظم، سنة التفاضل، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

41. عبد الحليم محمد أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج5، دار القلم للنشر والتوزيع، القارة، مصر، ط6، 2002.

42. عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق الدكتور عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت.

43. عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004، ص71.

44. عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، 2007 .

45. عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.

46. ـــ، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1983.

47. عبد الفتاح لاشين، في البلاغة القرآنية، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، (الحروف)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2014.

48. عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

49. عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

50. عبد المنعم الهاشمي، قصص النساء في القرآن، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، دت.

51. عماد عبدو يحيى، البنى الدلالية في لغة القصص القرآني، دار دجلة، الأردن، ط1، 2009.

52. عمار ساسي، المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2007.

53. فاضل صالح السمرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، ج2، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 2011.

54. فاضل صالح السمرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط5، 2009.

55. فؤاد حيدر، المرأة في الإسلام وفي الفكر الغربي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1992.

56. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الراعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، دت.

57. مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط2، 1996.

58. محمد احمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 2001.

59. محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، دار آمون للطباعة، القاهرة، ط1، 1993.

60. محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، دت.

61. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984.

62. محمد الغزالي وآخرون، المرأة في الإسلام، مكتبة أخبار اليوم الإسلامية، القاهرة، دت.

63. محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 2005.

64. ـــ، كيف نتعامل مع القرآن؟، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط8، 2006.

65. محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الهناء، الجزائر، ط1، 2001.

66. محمد حسين سلامة، الاعجاز البياني للقرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط2، 2004.

67. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1973.

68. محمد رضا، معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1958.
69. محمد سعيد البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1996.
70. محمد شلتوت، تفسير القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، ط10، 1983.
71. محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دت.
72. محمد عبد الواحد حجازي، الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، دت.
73. محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، دار الجيل، لبنان، 2010.
74. ـــ، صفوة التفاسير– تفسير القرآن الكريم، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط9، 1976.
75. ـ، ايجاز البيان في سور القرآن، دار الجيل، بيروت، ط1، 2001.
76. محمد علي النجار، معجم ألفاظ القران الكريم، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1969.
77. محمد فريحة، حقوق المرأة المسلمة في القرآن والسنة، المكتب الاسلامي، بيروت، ط1، 1996.
78. محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1990.
79. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، مصر، دت.
80. ـــ، معجزة القرآن الكريم، تقديم وتخريج ناصر اسماعيل، دار عين مليلة، الجزائر، دت.
81. ـ، مكانة المرأة في الإسلام، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، دت.

82. محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، تاج العروس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979.

83. محمد مرهف حسين أسد، تأملات في المرأة بين الأصالة والمعاصرة، دار وحي العلم، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

84. محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، ط7، 1978.

85. محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دت.

86. ـــ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1987.

87. محمود شلبي، حياة مريم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، 1994.

88. مختار عطية، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم – دراسة بلاغية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، دت.

89. مختار فوزي النعال، موسوعة الألفاظ القرآنية، تقديم بكري شيخ أمين، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

90. مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2010.

91. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

92. مصطفى محمود، القرآن الكريم، محاولة لفهم عصري، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت.

93. منير سلطان، بديع التراكيب في شعر أبي تمام، دار المعارف الإسكندرية، ط4، 2002.

94. ناصر عقيل أحمد الزغول، اسما المكان والزمان في القرآن الكريم، دار الكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2006.

95. وليد قصاب ابراهيم، من أسرار لغة القرآن "اللفظ المفرد"، مجلة احوال المعرفة، العدد 42، 2006، تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية.

96. ياد كار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان، دمشق، سوريا، 2010.

97. يوسف القرضاوي، المرجعية العليا للقرآن والسنة – ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2001.

الفهرس

الفهرس:

المقدمة ..... أ

التمهيد 9

الفصل الأول المرأة بين عدالة الرحمن وظلم الإنسان في القرآن الكريم.....24

نظرة الإسلام لثنائية الرجل والمرأة في القرآن الكريم 25

تكامل الرجل والمرأة:.....26

نظرة الجاهلي للمرأة في القرآن الكريم 32

1- النظرة الدونية للمرأة: 33

2- التذمر من ولادة الأنثى.....41

3- وأد البنـات: 45

4- عظـل المرأة: 48

5- حرمان المرأة من المهر:.....52

6- الظهـار 53

البدائل التي أرساها القرآن الكريم للتعامل مع المرأة وفق المنظور الاسلامي.....61

الفصل الثاني المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم 76

نظرة الإسلام للمساواة في القرآن الكريم.....77

1- المساواة في الجزاء على الأعمال: 78

2-المساواة بين الرجل والمرأة في الأمر والنهي 93

3- المساواة في الوعيد بين الذكور والإناث " المنافقين والمنافقات" 100

4- المساواة في الأخلاق 103

5- المساواة بين الرجل والمرأة في العقوبة: 106

6-المساواة في الوصية بالوالدين والإحسان إليهما 113

الفصل الثالث: المفاضلة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم.....121

تعريف المفاضلة: 124

التفاضل سنة كونية: 125

1- شرف الزمان:.....125

2- شرف المكان: 128

3- التفاضل بين بعض الموجودات.....130

أ- التفاضل بين الجمادات 130

ب- التفاضل بين النباتات 130

4- التفاضل بين البشر 133

أ- فضل بعض الأنبياء والرسل على البعض.....133

ب- التفاضل بين الصحابة الكرام 134

ج- فضل المجاهدين على القاعدين 135

د- التفاضل بين النساء 137

5- فضل الذكر على الأنثى:.....140

أ- قوامة الرجل على المرأة: 149

ب- تفضيل الرجل على المرأة بدرجة 157

ج- النهي عن التمني: 161

الفصل الرابع: حضور المرأة في القصص القرآني.....170

مفهوم القصة 171

النموذج الإيجابي: (مريم العذراء).....176

حياة السيدة مريم العذراء 177

أ- مريم السيدة المصطفاة.....177

ب- مريم في كفالة زكريا.....179
ج- مريم والكرامات المعجزة 180
د- الحمل والولادة 188
هـ- الطعن في الشرف الرفيع.....194
بناء القصة.....195
1- الأحداث في قصة العذراء 198
2- علاقة الحدث برسم الشخصيات 200
3- الفضاء الزماني والمكاني للقصة.....204
أ- البيئة الزمانية 204
ب- البيئة المكانية: 208
4- الحوار في قصة مريم: 211
النموذج السلبي امرأة العزيز 219
ملامح شخصية امرأة العزيز في مشهد (الإغواء) من قصة يوسف عليه السلام 229
الأحداث في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام.....236
البيئة المكانية في مشهد (الإغواء) من قصة يوسف عليه السلام.....240
البيئة الزمانية في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام 244
الحوار في مشهد (الغواية) من قصة يوسف عليه السلام 252
الخاتمة 262
قائمة المصادر والمراجع.....268
الفهرس.....278